من الفكر
السياسي
والاشتراكي

أصل الشيوعية الروسية

تأليف

نقولا بردياف

ترجمة : فؤاد كامل

مراجعة : د. راشد البراوي

من الفكر
السياسي
والاشتراكي

أصل الشيوعية الروسية

تأليف

نقولا برديائف

ترجمة : فــؤاد كامــل

مراجعة : د . راشد البراوي

الدار المصرية للتأليف والترجمة

عصر موسكو ، وروسيا الامبراطورية فى عهد بطرس ، وأخيرا روسيا السوفيتية الجديدة . هذا وانا لنجانب الحق لو قلنا ان الروسيا بلد ذو حضارة جديدة ، وانها كانت الى عهد غير بعيد نصف همجية ، فالحق أنها — بمعنى محدد — بلد ذو ثقافة قديمة . ففى العهد الذى غلبت فيه كييف ، أقامت الروسيا حضارة أسمى من حضارة الغرب المعاصر لها آنذاك . وفى القرن الرابع عشر كان فيها علم كامل ، على نحو مشهور ، بالأيقونات ، فضلا عن فن معمارى بلغ شأوا ملحوظا من الرقى . وأنتجت الروسيا فى عصر موسكو حضارة عالية جدا فى الفنون التشكيلية ، تتميز بأسلوب عضوى متكامل ، وبأشكال للحياة متقنة الى حد بعيد . وكانت هذه ثقافة شرقية ... حضارة امبراطورية التتار التى اعتنقت المسيحية .

أما حضارة موسكو فتطورت فى تعارض متصل مع الغرب اللاتينى والعادات الأجنبية ، غير أن الحضارة العقلية فى الامبراطورية المسكوفية كانت ضعيفة كل الضعف ، وتفتقر الى الافصاح ، وتوشك أن تكون خالية من الفكر والتعبير . بيد أن الأساس العنصرى للحياة خلال هذه الفترة قد أضفى عليه شكل ذو دلالة بالاضافة الى تطور الفنون التشكيلية ، وهذا ما كانت تفتقر اليه الروسيا فى عصر بطرس ، وان تكن قد تنبهت فى هذا العصر الأخير الى التعبير عن أفكارها بالألفاظ . وهكذا كانت روسيا المفكرة التى أنتجت أدبا عظيما ، والتى سعت وراء العدالة الاجتماعية ، كانت هذه الروسيا متفسخة ، لا أسلوب لها ولا وحدة عضوية .

ويرجع التناقض الذى تتسم به الروح الروسية الى ما يتصف به التاريخ الروسى من تعقيد ، والى الصراع الناشب بين العنصرين الشرقى والغربى فيها . لقد صيغت روح الشعب الروسى على أيدى الكنيسة الأرثوذكسية ، وصبت فى قالب دينى صرف ما زال قائما حتى يومنا هذا ، حتى عصر العدميين والشيوعيين الروس . ولكن ثمة عنصر طبيعى قوى

ما زال مستقرا فى الروح الروسية ، عنصر مرتبط باتساع رقعة روسيا نفسها ، بالسهل الروسى الذى لا تحده الحدود .(١)

و « الطبيعة » عند الروس قوة عنصرية ، أقوى مما هى عند الشعوب الغربية ، وعلى الأخص فى أشد الحضارات تقدما كالحضارة اللاتينية .. بل لقد دخل عنصر الطبيعة « الوثنية » الى المسيحية الروسية . ان الروسى الصميم يتنازعه دائما عنصران متعارضان هما : وثنية طبيعية بدائية تتسم بها روسيا التى لا يعرف اتساعها حدا ، وزهد أرثوذكسى مصدره من بيزنطه ،وهو زهد يتطلع الى العالم الآخر .

ويتميز الشعب الروسى بنزعة ديونيزوسية طبيعية وبزهد مسيحى على حد سواء ، وثمة مشكلة صعبة تواجه الرجل الروسى بلا انقطاع ، هى مشكلة تنظيم أرضه المترامية الأطراف ، واتساع رقعة بلاده ، وانتفاء الحدود ، وهما أمران عبر عنهما بنيان الروح الروسية . ومنظر الروح الروسية يقابل منظر الأرض الروسية ، فكلاهما يتصف بانعدام الحدود ، وبالافتقار الى الشكل ، والانفتاح على اللانهاية ، والرحابة .

أما فى الغرب ، فنجد التحديد : كل شىء محدد ، متشكل ، مرتب فى طوائف ، وكل شىء (سواء فى تركيب الأرض أو تركيب الروح) يساعد على التنظيم وعلى تطوير الحضارة . ولعلنا يستطيع القول بأن الشعب الروسى قد راح ضحية اتساع أرضه . ان الشكل لا يأتى اليه طواعية ، وموهبة الشكل ليست عظيمة بين الروس . ويفسر المؤرخون الروس الطابع الاستبدادى للحكومة الروسية بهذا التنظيم الضرورى للسهل الروسى الذى لا تحده الحدود . ويقول كليوتشفسكى Kluchevsky هو أبرز المؤرخين الروس : « الدولة تزيد قوتها والشعب ينحدر الى الضعف » وهو قول يصدق بمعنى معين على الحكومة الشيوعية

---

(١) راجع الكتاب الشائق الذى ألفه فيدورستيبان تحت عنوان :
Das Antlitz Russlands und das Gesicht der Revolution.

السوفيتية ، التى تضحى بمصـــالح الشعب على مذبح ســطوة الدولة السوفيتية وتنظيمها .

وتميز التكوين الدينى للروح الروسية بعـــدة صفات ثابتة هى : الدجماطيقية (القطعيـــة) والزهد ، والقدرة على تحمــل الآلام ، وبذل التضحيـــات فى سبيل ما تؤمن به أيا كان ، والتطلع الى التعـــالى الذى يتمثل تارة فى علاقتها بالأبدية وبالعالم الآخر ، وتارة أخـــرى فى علاقتها بالمستقبل ، وبهذا العالم . وتمتلك الطاقة الدينية للروح الروسية القدرة على التحول وتوجيه نفسها الى أغراض ليست دينية صرفا ، كالأغراض الاجتماعية مثلا . وبفضل هذه الصفة الدينية الدجماطيقية فى الروح ، كان الروس — سواء من المؤمنين الصادقين أو الزنادقة ، أو الخـــوارج — ممن يعتقدون فى الرؤية أو عدميين . وكان الروس مخلصين لطبيعتهم ، سواء فى القرن السابع عشر بوصفهم من الخوارج أو من الطقوسيين القدماء أو فى القرن التاسع عشر بوصفهم ثوريين وعدميين وشيوعيين . فتركيب الروح واحد . وهذا التركيب ورثته الانتلجنسيا الثورية الروسية عن المنشقين من رجال القرن السابع عشر ، وظل الأمر الرئيسى دائمـــا هو ممارسة عقيدة تلتزم بالتعاليم ، وهذا هو دائما المعيـــار الذى يقاس به الانتماء الى الشعب الروسى .

وبعد سقوط الامبراطورية البيزنطية ، التى كانت بمثـــابة روما الثانية ، وأعظم دولة أرثوذكسية فى العالم ، شاع بين الشعب الروسى الادراك بأن الدولـــة المسكوفية الروســـية هى التى أصبحت الدولـــة الأرثوذكسية الوحيـــدة فى العـــالم ، وأن الشعب الروسى هو الأمـــة الوحيـــدة التى تعتنق العقيـــدة الأرثوذكسية . وكان الراهب فيـــلوفاى Filofei هو الذى نشر الدعـــوة القـــائلة بأن موســـكو هى روما الثالثة ، وكتب إلى القيصر ايفان الثالث عن « روما الثالثة الجديدة » .. وقال أيضا « من بين ممالك العالم قاطبة ، أشرقت فى مملكتك الكنيسة الرسولية المقدسة أسطع من اشراق الشمس . ولتعلم يا صاحب الجلالة .. أيها القيصر الورع المبارك . أن ممالك الدين المسيحى الأرثوذكسى

كافة قدا اندمجت فى مملكتك .. وأنك أنت وحدك .. تحت كل ما تظله السماء — القيصر المسيحى الوحيد .. ولتعلم أيها القيصر الورع المبارك ان الممالك المسيحية جميعا قد ذابت فى مملكتك وحدها .. وأن روما الأولى والثانية قد انهارتا ، أما روما الثالثة فباقية ، ولن تكون ثمة روما رابعة ..ولن تكون مملكتك المسيحية من نصيب قيصر آخر » .

وقد صارت العقيدة القائلة بأن موسكو هى روما الثالثة — الفكرة الأساسية التى قامت عليها الدولة المسكوفية . وتبلورت الملكة وتشكلت متخـذة رمزا لها من فكرة أن لها رسالة . وكان البحث عن الملكية الحقة المثالية سمة من سمات الشعب الروسى خـلال تاريخه كله . كما كانت ممارسة العقيدة الأرثوذكسية الحقة هى الاختبار الذى يقاس به الانتماء الى المملكة الروسية . وبنفس هـذه الطريقة تماما سوف يكون اعتناق العقيدة الشيوعية الحقة هو معيار الانتماء الى روسيا السوفيتية اى الى الدولة الشيوعية الروسية . وفى ظل تلك الفكـرة التى تذهب الى أن لموسكو رسالتها بوصفها « روما الثالثة » جرى تأميم دقيق للكنيسة . وترعرع الدين والقومية فى المملكة المسكوفية معا ، كما ترعرعا من قبل فى وعى الشعب العبرى القديم . وبنفس الطريقة التى كان بها الوعى بالرسالة صفة من صفات اليهودية ، وأصبح صفة للأرثوذكسية ايضا . غير أن الفكرةالدينية عن المملكةتبلورت فى تكوين دولة قوية لعبت فيهاالكنيسة دورا ثانويا.كانت مملكة موسكو الأرثوذكسية دولة ديكتاتورية ، وكان يوسف فولوتسكى Joseph Volotsky هو مؤسس أرثوذكسية الدولة . وكان ايفان الرهيب — وهو من أصحاب النظـريات البارزين فى تأييد الملكيـة المطلقة — يدعو الى أن القيصر لا ينبغى أن يحكم الدولة فحسب ، بل وأن يخلص الأرواح أيضا . ومن الطريف أن نذكر أن العصر المسكوفى هو الذى أخرج اقل عدد من القديسين فى التاريخ الروسى .

ولقد كان افضل عصر فى تاريخ الكنيسة الروسية عصر الاحتـلال التترى ، ففيه نعمت بأكبر قدر من استقلالها الروحى ، واظهرت فيـه

احساسا اجتماعيا قويا .(١) وكان الوعى المسكونى Œcumenicol consciousness قد ضعف فى الكنيسة الروسية الى حد أن كف الروس عن النظر الى الكنيسة اليونانية التى تلقى منها الشعب الروسى عقيدته الأرثوذكسية ، على انها كنيسة أرثوذكسية حقيقية ، وانما بدأوا ينظرون اليها بوصفها تعبيرا مشوها عن العقيدة الحقة . ونظر الفكر الدينى الشعبى الى المؤثرات اليونانية على انها ألوان من الفساد تغلغلت فى المملكة الأرثوذكسية الوحيدة فى العالم . وكانت العقيدة الأرثوذكسية هى العقيدة الروسية ، وكل ما عدا الأخيرة لم يكن بعقيدة أرثوذكسية . وحين أجرى فى عهد البطريرك « نيخون » اصلاح الأخطاء فى الكتب وفقا للنماذج الاغريقية وتمت تعديلات غير ذات شأن فى الرسوم والطقوس ، أثار ذلك احتجاجا عنيفا من جانب الدين الشعبى . وفى القرن السابع عشر وقع حدث من أهم الأحداث فى التاريخ الدينى الروسى ، ذلك هو الشقاق القديم بشأن الطقوس .

من الخطأ الظن بأن هذا الانشقاق الدينى كان نتيجة لمعتقدات الشعب الروسى عن الشعائر ، وأن الصراع قد نشب حول مسألة رسم علامة الصليب بأصبعين أو بثلاثة أصابع وحول بعض التفصيلات الخاصة بتنظيم العبادة الالهية ، اذ كان الخلاف ينطوى على ما هو أعمق من ذلك . كان السؤال موضوعا على النحو التالى : هل المملكة الروسية مملكة أرثوذكسية حقة بمعنى هل يضطلع الشعب الروسى برسالته ؟ وليس من شك أن ظلمات الجهل والأمية والخرافة والمستوى الثقافى المنحط الذى كان عليه رجال الدين قد لعبت دورا كبيرا فى هذا الصراع ، غير أن حادثا له مثل هذه النتائج البعيدة المدى كحادث الانقسام لا يمكن أن يفسر بهذه الأمور وحدها . فقد ثار الشك فى نفوس الناس بأن المملكة الأرثوذكسية ، أو روما الثالثة قد استشرى فيها الفساد ، وأن ثمة خيانة للعقيدة الحقيقية

---

(١) راجع كتاب ج. فيدوتوف : « قديسو روسيا القديمة »
Saints of Ancient Russia

يتم تدبيرها ، وسيطر المسيح الدجال على الكنيسة والدولة معا . ومن ثم انشقت الأرثوذكسية عليهما جميعا . وتسللت الأرثوذكسية الحقة لتعمل فى الخفاء . ومن هنا نشأت أسطورة مدينة كيتيج Kitezh التى كانت مختفية تحت احدى البحيرات . وظهر الى الوجود وعى بالرؤية فى الجناح اليسارى من الانقسام ، وهو الجناح المعروف باسم الجناح « اللاكهنوتى » وأصبح الانقسام ظاهرة مميزة للحياة الروسية . وعلى هذا النحو نفسه تحول المثقفون الثوريون الروس فى القرن التاسع عشر الى جماعة طائفية راحت تعتقد أن قوى الشر قد استولت على زمام الأمور .

سوف نجد بين الجماهير الروسية وبين الانتلجنسيا الروسية هذا البحث عن مملكة قائمة على العدل ، فى مقابل المملكة المرئية التى يسودها الظلم . وفى المملكة المسكوفية التى كانت فى وعى بذاتها بوصفها روما الثالثة — اختلطت مملكة المسيح أو مملكة العدل بأفكار عن دولة قوية تحكم بالظلم . وكان الانقسام كشفا لهذا التناقض ، ونتيجة لهذا الخلط . بيد أن العقل الشعبى لم يكن مستنيرا ، بل كان فى أغلب الأحيان سادرا فى الخرافة ، تختلط فيه المسيحية بالوثنية ، فوجه الانشقاق ضربته الأولى الى تلك الفكرة التى كانت ترى فى موسكو روما الثالثة ، وبين أن الأمور لا تسير على ما يرام بالنسبة الى ما ساور الروس من وعى بأن لهم رسالة سماوية .. أما الضربة الثانية فسددها الاصلاح الذى قام به بطرس .

(٢)

كان اصلاح بطرس حقيقة حاسمة بالنسبة الى التاريخ الروسى من بعده بحيث أصبحت تياراتنا الفكرية فى القرن التاسع عشر تتميز بما نضفيه على هذا الاصلاح من قيمة ، وان يكن من الواجب علينا الآن ان ننظر الى كل من وجهتى النظر السلافية والغربية بصدد العمل الذى قام به بطرس على أنها باطلة عفى عليها الزمان . فدعاة السلافية يرون فى اصلاح بطرس خيانة للأساس القومى الأصيل الذى تقوم عليه الحياة الروسية ، وانتهاكا ووقفا لنموها العضوى . أما أصحاب النزعة الغربية فلم يروا

شيئا أصيلا متميزا أيا كان فى التاريخ الروسى ، وكان نمط حضارة أوربا الغربية هو النمط الوحيد فى نظرهم ، ومن ثم ينبغى أن يكون عالميا . لقد بين بطرس للروسيا سبل التنوير الغربى والمدنية الغربية .

وأصحاب النزعة السلافية مخطئون ، لأن اصلاح بطرس كان حتميا تماما ، ذلك انه لم يعد فى وسع الروسيا ان تظل بلدا مغلقا على نفسه ، يعيش حياة متخلفة سواء من الناحية العسكرية أو البحرية أو الاقتصادية ، وبغير تعليم أو مدنية فنية . فى مثل هذه الظروف لم يكن الشعب عاجزا عن أداء رسالته العظيمة فحسب ، بل كان استقلاله نفسه معرضا للخطر . وكان أصحاب النزعة السلافية مخطئين لهذا السبب أيضا ، لقد ازدهرت الحضارة الروسية فى المرحلة البطرسية من تاريخها ، وفى هذه المرحلة ظهر بوشكين وبدأ عصر ازدهار الأدب الروسى ، واستيقظ الفكر من غفلته ، بل أصبح ظهور أصحاب النزعة السلافية أنفسهم أمرا ممكنا . كانت روسيا اذن مرغمة على الخروج من عزلتها والانضمام الى حياة العالم الصاخبة . وبهذه الطرق وحدها يستطيع الروس أن يسهموا فى حياة العالم .

وكان المستغربون مخطئين لأنهم أنكروا على الشعب الروسى والتاريخ الروسى أية طبيعة أصيلة متميزة ، ولأنهم تشبثوا بالآراء البسيطة الساذجة عن تقدم الاستنارة والمدنية ، ولأنهم لم يروا ان لروسيا رسالة أيا كانت اللهم الا ضرورة لحاقها بالغرب . ولم يروا — ما رآه أنصار النزعة السلافية فى هذا المجال — من اقدام بطرس على انتهاك لروح الشعب . كان الاصلاح الذى قام به بطرس أمرا لا محيد عنه ، غير أنه قد أنجزه على نحو من العنف الفظيع الذى أساء الى روح الشعب ومعتقداته .. ورد الشعب على هذا العنف بأن خلق أسطورة تجعل من بطرس عدوا للمسيح .

كان بطرس ثوريا تبدأ ثورته من القمة ، ومن ثم فان النظر اليه بوصفه بلشفى النمط أمر له ما يبرره ، فالمناهج التى اصطنعها كانت بلشفية تماما . لقد أراد أن يحطم روسيا المسكوفية القديمة ، وأن يجتث

تلك المشاعر القائمة فى أساس حياتها — من جذورها . وحين وضع هذه الغاية نصب عينيه لم يتورع عن اعدام ابنـــه الذى كان متمسكا بالطرق العتيقة . وتذكرنا المناهج التى اتبعها فى تعرضه للكنيسة وللدين القديم بمناهج البلاشفة تذكيرا قويا . لم يكن بطرس يميل الى التقوى المسكوفية القديمة ، وكان شديد القسوة بوجه خاص على أنصار الطقوس القديمة ، وعلى المؤمنين القدامى . واستهزأ بالمشاعر الدينية التى شاعت فى العصور القديمة ، وأنشأ مجلسا صوريا على رأسه بطريرك صورى . وهذا كله يذكرنا كثيرا بأوجه النشاط المعادية للدين فى الروسيا السوفيتية . وأسس بطرس نظـــاما سينوديا (خاص بالمجمع المقدس) هو صـــورة الى حد كبير من الشكل البروتستانتى الألمـــانى ، وانتهى به الأمر الى اخضـــاع الكنيسة للدولة اخضاعا نهائيا .

لكن ينبغى أن نقـــول — أن بطرس لم يكن ملوما على انحطـــاط الكنيسة الروسية خلال تلك المرحلة من التاريخ الروسى التى تولى فيها الحكم . اذ كانت الكنيسة فى العصر المسكوفى تابعة للدولة فعـــلا تبعية ذليلة . وكانت السلطة الأخلاقية للطغمة الكهنوتية قد سقطت فى أعين الشعب قبل عصر بطرس ، كما وجه الانقســـام الدينى ضربة عنيفة لهذه السلطة . وكان مستوى التعليم والثقافة منحطا أشد الانحطاط فى صفوف رجال الكنيسة ، وعلى هذا الأساس أيضا كان اصلاح بطرس للكنيسة ضرورة لازمة ، غير أن تنفيذه جاء عن طريق العنف ، وخاليا من كل رفق على مشاعر الشعب الدينية .

ومن الممكن أن نعقد المقارنة بين بطرس ولينين ، بين الثورة البطرسية والثورة البلشفية .. ان كلتا الثورتين استخدمت نفس الهمجية والعنف والتطبيق الاجبارى لبعض المبادىء المفروضة من أعلى الى أسفل ، ونفس التعطيل للنمو العضوى ، ونبذ التقاليد ، ونفس النزعة الى تمجيد الدولة étatism وتضخيم الحـــكومة ، ونفس التكوين لطبقة بيروقراطية محظوظة ، ونفس المركزية ، والرغبـــة الأساسية الحادة فى تغيير نمط الحضارة . بيد أن الثورة البلشفية قد انطلقت — عن طريق العنف الفظيع —

قوى كانت كامنة فى الجماهير ، وأهابت بهـا أن تتحمل نصيبها فى صنع التاريخ ، وهنا تكمن دلالتها . وبينا عملت ثورة بطرس على تقوية الدولة الروسية ، ودفعت روسيا فى طريق الاستنارة الغربية والعالمية ، وسعت فى الوقت نفسه الهوة القائمة بين الشعب والطبقات العليا ، أعنى الطبقة المثقفـة والحاكمـة . ولقـد أضفى بطرس طابعـا دنيويا على المملكة الأرثوذكسية وقاد الروسيا فى طريق الاستنارة .. هذه العمليـة أخذت مكانها فى المستويات العليا من المجتمع الروسى ، اى بين النبلاء والموظفين المدنيين ، فى الوقت الذى واصل فيه الشعب حياته متشبعا بالمعتقدات والمشاعر الدينية القديمة . والواقع أن سلطة القيصر الاستبدادية — وقد اتخذت شكل الحـكم المطلق الغربى المستنير ، احتفظت فى أعين الشعب بقداستها الدينية القديمة بوصفها سلطة حاكمة بالتفويض الآلهى .

وكان اضعاف النفوذ الروحى للكنيسة الرسمية نتيجة حتمية للاصلاح الذى قام به بطرس ، ولانتصار الاستنارة الغربية . بل لقد ظهرت النزعة العقلية rationalism فى نظام الكنيسة نفسـه ، فثيوفان بروكوبوفتش Theophan Prokopovitch مطران العاصمة الشهير فى عصر بطرس ، كان فى الواقع بروتستانتيا من الطراز العقلى . غير أن هذه النزعة قد لقيت تعويضهـا فى عصر بطـرس فى سلسلة من القديسين لم يعرفها العصر المسكوفى ، فى نظام « الستارتشستفو » (١) Starchestvo أى الحياة الروحية السرية أو المستورة .

وكان التعليم الغربى بين الطبقات العليا من المجتمـع الروسى فى القرن الثامن عشر غريبا على الجماهير الروسية ، وكانت الطبقة الحاكمة الروسية فى ذلك القرن متأثرة تأثرا سطحيا بتعاليم فولتير من ناحية ، وبحركة البنائين الأحرار الصوفية من ناحية أخرى .. أما الشعب فقد مضى فى

---

(١) نسبة الى الراهب « ستارتس » Starets الذى عرف بتقواه الشـديدة ، وبخبرته الطويلة فى الحيـاة الروحية وبموهبته خاصة فى هداية الأرواح .

حياته معتنقا المعتقدات الدينية القديمة ، ناظرا الى الأعيان بوصفهم جنسا أجنبيا . وجاءت كاترين الثانية — تلك التلميذة المستنيرة لفولتير ، والتى كانت تراسله هو وديدرو — فأقرت أخيرا تلك الأشكال من السخرة التى أثارت الاحتجاجات من جانب ضمير الانتلجنسيا الروسية المعذب فى القرن التاسع عشر .

وقــد صدم تأثير الغرب الجمــاهير أولا ، ودعم الطبــقات المتمتعة بالامتيازات . أما أمثال « راديشيف » فكانوا استثناء . ولم يتمخض تأثير الغرب على الانتلجنسيا الروسية عن حب الشعب وعن الحركات التحررية الا فى القرن التاسع عشر . ومع ذلك ظلت الطبقات المتعلمة والمثقفة تبدو أجنبية عن الشعب . ولم يكن ثمة وجود على ما يظهر ، لمثل هذه الهوة بين الطبقات العليا والدنيا ، كما كانت فى الروسيا الامبراطورية على عهد بطرس ، كما لم يكن هناك بلد واحد آخر يعيش فى مثل هذه القرون المختلفة ، من القرن الرابع عشر الى التاسع عشر بل وحتى القرن الحادى والعشرين الذى لم يصل اليه العالم بعد .

وكانت الروسيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر تعيش حياة لا عضــوية تماما ، وفى روح الشــعب الروسى نشب صراع بين الشرق والغرب ، وهو صراع مستمر فى الثورة الروسية ، فالشيوعية الروسية هى شيوعية الشرق ، ولم يستطع تأثير الغرب خــلال قرنين من الزمان أن ينجح فى اخضاع الشعب الروسى له . وسوف نرى أن الجماعة المثقفة الروسية كانت خالية من النمط الغربى تماما ، وذلك برغم ولعها بالنظريات الغربية .

وكانت الامبراطورية التى أسسها بطرس تنمو من ناحية مظهرها الخارجى ، حتى أصبحت أكبر امبراطورية فى العالم . كانت لها وحدة خارجية مفروضة عليها ، ولكنها لم تكن تتمتع بوحدة داخلية ، بل كانت ممزقة فى الداخل قطعا صغيرة . فالحكومة والشعب متباعدان ، والشعب والانتلجنسيا والقوميات التى اجتمعت معا داخل الامبراطورية الروسية منفصل أحدها

عن الآخر . وكانت الامبراطورية الآخذة بالنمط الغربى فى الحكم الامبراطورى المطلق اقل الجهات ادراكا لفكرة روما الثالثة . وكان مجرد استبدال لقب «قيصر » بلقب « الامبراطور » خيـــانة للفكرة الروسية فى نظر النزعة الصقلبية . وكان « نيقولا » الأول المستبد من نمط الضابط البروسى ، فقد كانت المؤثرات الألمـــانية قوية غاية القوة . فى البلاط وفى الفئات العليـــا من البيروقراطية .

وكان التعارض الجوهرى قائما بين فكرة الامبراطورية . أى الدولة القوية من النمط الحربى البوليسى ،-وبين الفكـــرة التى تجعل للقيصرية رسالة دينية ، وهى الفكرة التى نزلت لكى تكون ملكا للجماهير ، ووصلت بعد ذلك ــ فى صورة معدلة ــ الى الانتلجنسيا . وكان هذا الصراع بين فكرة الامبراطورية كما عبرت عنها الحكومة ، ووجهة نظر الانتلجنسيا ــ أمرا جوهريا بالنسبة الى القرن التاسع عشر ، اذ أخذت الحكومة تتباعد أكثر فأكثر عن الانتلجنسيا المنبثة بين طبقات المجتمع المثقفة حيث بدأ المزاج الثورى فى النمو . أما طبقة النبلاء التى كانت هى الطبقة القائدة والمثقفة بوجه خاص فى مطلع القرن التاسع عشر ، بل وفى منتصفه أيضا ، فقد انحط مستواها الثقافى فى النصف الثـــانى من القرن ، واصبحت طبقـــة رجعية ، وارغمت على التخلى عن مكانتها للانتلجنسيا الخارجة من طبقات كثيرة ، والتى جاءت معها بنمط آخر جديد من الثقافة . ويتضح انعـــدام الوحدة والثقافة المتكاملة من هذه الحقيقة وهى أن الانتلجنسيا والتيارات الروحية فى القرن التاسع عشر كانت منقسمة الى أجيال ، كل منها كان يأتى بأفكار واتجاهات جديدة ، ويعزف نغمة روحية جديدة من الحيـــاة . ولهذه الأسباب أنتج القرن التاسع عشر الروسى أدبا من أعظم الآداب فى العالم ، كما أنتج فكرا قويا أصيلا ، متحررا أشد التحرر .

أما الغالبية العظمى من الشعب الروسى ــ وأعنى بهم الفلاحين ــ فكانوا يرزحون تحت نير العبودية ، وكانوا يحيون فى داخل نفوسهم بالعقيدة الأرثوذكسية التى منحتهم القدرة على تحمل آلام الحيـــاة . وكان افراد

الشعب يعدون السخرة دائما شرا وجورا ، ولكنهم لم يلقوا اللوم فى هذا الظلم على القيصر ، بل على الطبقة الحاكمة ، طبقة النبلاء ، اذ كان المفهوم الدينى لسلطة القيصر قويا بين الناس الى درجة أنهم كانوا يعيشون على أمل أن يحميهم القيصر ، وأن يضع حدا للظلم حين يعلم بالحقيقة كلها .

وكان الفلاحون الروس يعتقدون دائما — وفقا لأفكارهم الخاصة عن الملكية — أنه من الخطأ أن يملك النبلاء مساحات واسعة من الأرض ، ذلك أن الأفكار الغربية عن الملكية كانت غريبة على الشعب الروسى ، بل لم تكن طبقة النبلاء نفسها تفهم هذه الأفكار اللهم الا فهما ضعيفا . الأرض ملك الله ، وكل من يكدح ويعمل فيها يمكن أن يتمتع باستخدامها ، وهكذا كانت الاشتراكية الزراعية الساذجة مبدءا معترفا به دائما بين الفلاحين الروس .

وظلت جماهير الشعب فى نظر الطبقات المثقفة — الانتلجنسيا — نوعا من السر الذى كان عليهم أن يكتشفوا أمره ، وكانت هذه الطبقات المثقفة تعتقد أن ثمة حقيقة عظيمة عن الحياة تستقر محتجبة فى هذا الشعب الصامت الهادىء الأبكم ، وسيأتى اليوم الذى يقول فيه الشعب كلمته . وهكذا عاشت الانتلجنسيا — المنفصلة عن الجماهير — تحت سحر هذا الشعب الصوفى المرتبط بالأرض ، تحت سحر هذا الذى ظل الكتاب الشعبيون (الناروديون) يطلقون عليه زهاء سبعين عاما اسم « سلطة الأرض » . ولم يحل القرن التاسع عشر حتى كانت الروسيا قد اتخذت صورة بلد زراعى شاسع لا حدود له ، بلد مستعبد أمى ، وان تكن له ثقافته الشعبية القائمة على الايمان ، تسيطر عليه طبقة نبيلة حاكمة ، طبقة خاملة لا تملك الا النزر اليسير من الثقافة ، وقد فقدت ايمانها الدينى ، واحساسها بالقومية ، وعلى رأسها قيصر ما زال الشعب يحتفظ له بمهابة دينية ، وتدير هذا البلد بيروقراطية قوية ، وليست فيه غير طبقة هزيلة هشة من الثقافة .

وكانت الطبقات الاجتماعية فى روسيا ضعيفة دائمـــا ، وخاضعة للدولة ، بل كانت سلطة الدولة هى التى تقـــوم بتكوينها . والعنصران القويان الوحيدان هما : الملكية التى اتخذت صورة الحكم المطلق الغربى ، والجماهير . وكانت الطبقة المثقفة تشعر أن هاتين القوتين تسحقانها ، كما كانت تقف فى القرن التاسع عشر على شفا هوة قد تنفتح تحت أقدمها وتبلعها فى أية لحظة . وكان الشطر المثقف من النبلاء الروس هو وحده الذى يشعر بشذوذ موقفه وغرابته ، ويدرك اللوم الذى يقع على عاتقه تجاه الجمـــاهير .

وما أن أهل القرن التاسع عشر ، حتى كانت الامبراطورية عليلة اشتدت بها العلة ، روحيا واقتصاديا . والجمع بين المبادىء التى هى نقائض وأطراف متعارضة سمة من السمات الروسية المميزة ، ولا يمكن تمييز الروسيا والشعب الروسى الا بالمتناقضات . وعلى هـــذه الأسس نفسها يمكن وصف الشعب الروسى بأنه امبراطورى — مستبد ، ومحب للحرية حبا يصل الى الفوضوية ، وبأنه شعب ميال الى القوميـــة والى الغرور القومى ، وذو روح عالية ، وأقدر من غيره على اعتنـــاق الآراء المسكونية œcumenic ، شعب قاس ، ولكنه ذو نزعة انســانية غير عادية ، ميال الى التعذيب ولكنه متعاطف تعاطفا لا حدود له . هـــذا التناقض يثبته التاريخ الروسى بأسره ، ويثبته الصراع الأبدى بين غريزة القوة الامبراطورية وغريزة حب الشعب للحرية والعدالة .

والشعب الروسى وهب حســـا سياسيا ، على الرغم من الرأى المعارض ، الذى يذهب اليه السلافوفيل . وهذا القول ينطبق على الدولة السوفيتية نفسها ، هذا الشعب هو فى الوقت نفسه الشعب الذى خرجت منه عصابات القوزاق النهابة السلابة ، وصدرت عنه ثورات « ستنكاريزين » Stenka Razin و « بوجاتشف » Pugachev والانتلجنسيا الثورية الفوضوية ، وهو الشعب الذى يبحث عن مملكة للعدل لا وجود لها فى هذا العالم . وهذه العدالة لم يكن من الممكن العثور عليها فى دولة امبراطورية أسست

على تضحيات فظيعة . وقد شعرت بهذا الجماهير وخير شطر من طبقة النبلاء ، والانتلجنسيا المتعلمة حديثا .

وكانت روسـيا القرن التاسع عشر عليـلة متناقضة مع نفسها ، يسودها الاضطهاد والظلم ، ولكنها لم تكن من الناحية النفسية والأخلاقية بلدا بورجوازيا ، ولهذا وقفت ضد دول الغرب البورجوازية . ففى هـذا البلد الفريد اتحد الاستبداد السياسى بالحرية العظيمة ، وباحساس برحابة الحياة ، وبالانطلاق فى طريقة العيش ، وبانعدام الحواجز ، والتقاليـد والقوانين المفروضة .

الفصل الأول

تكوين الانتلجنسيا الروسية وطابعها .

النزعة الصقلبية والاتجاه الى الغرب

لكى نفهم منابع الشيوعية الروسية ، ونتبين طبيعة الثورة الروسية يتعين علينا ان نفهم تلك الظاهرة الفريدة التى تسمى فى روسيا بـ « الانتلجنسيا » ويخطىء الغربيون اذا جعلوا من الانتلجنسيا الروسية واولئك الذين يعرفون فى الغرب بـ « المثقفين » intellectuals ـ اذا جعلوا من هؤلاء وأولئك شيئا واحدا .

فالمثقفون هم الأشخاص الذين يمارسون عملا ذهنيا ، ويطمحون الى الابداع ، وهم يتألفون ـ فى معظمهم ـ من العلماء والكتاب والفنانين ، وأساتذة الجامعات والمدرسين ... الخ . أما الانتلجنسيا الروسية فجماعة مختلفة تمام الاختلاف ، فقد ينتمى اليها اشخاص لا يشغلهم عمل ذهنى ، كما لا تمارس ـ بوجه عام ـ الأعمال الذهنية . فمن المؤكد أن عددا كبيرا من الكتاب والعلماء الروس لا يمكن أن ندرجهم ضمن الانتلجنسيا بمعناها الدقيق . الانتلجنسيا تذكر المرء بنظام للرهبنة أو بطائفة ما ، بقواعدها الأخلاقية المتعصبة الخاصة ، وبنظرتها الاجبارية الى الحياة ، وبسلوكها وعاداتها ، بل بمظهرها الجسدى الخاص ، الذى يمكن بواسطته دائما أن يتعرف المرء على عضو من أعضاء الانتلجنسيا وتمييزه عن غيره من الجماعات الاجتماعية .

والانتلجنسيا الروسية جماعات تألفت من شتى الطبقات الاجتماعية ، تربط بينها بعض الأفكار ، ولا يربط أفرادها اشتراكهم فى مهنة مشتركة أو وضع اقتصادى . وقد انحدروا فى البداية من الشطر الأكثر تثقيفا

من طبقة النبلاء ، ثم من أبناء رجال الدين ، وصغـــار موظفى الحكومة والطبقة المتوسطة الدنيا ، وانضم اليها الفلاحون بعد التحرر . هــذه كانت الانتلجنسيا ، أعضاؤها من مختلف الطبقات الاجتماعية ، تجمعهم الأفكار وحدها ، وان شئنا ايضاحا ، الأفكار المتصلة بعلم الاجتماع . وفى النصف الثانى من القرن التاسع‌عشر تطورت طبقة المجتمع المسماة بالمثقفة الى نمط جديد ، وأطلق عليه اسم « الانتلجنسيا » . ولهذا النمط ملامحه المميزة التى تنتسب الى ممثليه الحاليين جميعـــا .

وتتسم الانتلجنسيا بملامح روســـية صميمة ، والرأى الذى ينظر اليها على أنها لاقومية ، وعلى أنها منفصلة عن التربة الروسية ، رأى خاطىء تمـــاما . وعلى الرغم من أن « دوستويفسكى » لم يكن يميل الى الأفكار الثورية ، فقـــد فهم الشخصية الروسية للعضو الثورى الحقيقى المنتمى الى الانتلجنسيا فهما يدعو الى الاعجاب ، وأطلق عليه اسم « المتجول الأعظم فى الأرض الروسية » . والافتقار الى الجذور الضاربة فى التربة ، والانفصال عن الحياة الطبقية والتقاليد من سمات الانتلجنسيا ، ولكن حتى هذه الصفات كانت تتخذ فى أفرادها شكلا روســـيا .

وكانت الانتلجنسيا تندفع دائما وراء هذه الفكرة او تلك ، وفى معظم الأحيان كانت تندفع وراء الأفكار الاجتماعية ، وتكرس نفسها لهذه الأفكار أولا وقبل كل شىء . وقد اكتسبت القدرة على الحياة بهذه الأفكار وحدها . ونظرا للظروف السياسية الروسية ، وجدت الانتلجنسيا نفسها منفصلة عن النشاط الاجتمـــاعى العملى ، وأفضى ذلك فى يسر الى أحلام اليقظـــة ذات الطابع الاجتماعى .. وهكذا نمت فى روســـيا التى يسودها الطغيان والعبودية الأفكار الاجتماعية والفوضوية المتطرفة ، وأدت استحالة العمل السياسى الى انتقال الســـياسة الى مجال الفكر والأدب ، وكان نقـــاد الأدب هم قادة الفكر الاجتماعى والســـياسى ، واتخـــذت الانتلجنسيا تلك الصفة الطائفية التى تعد شيئا طبيعيا بالنسبة للروس جميعا . وعاشت منقسمة على بيئتها الفعليـــة التى نظرت اليهـــا على انها شريرة ، وأقامت فى داخلها نظاما أخلاقيا طائفيا متعصبا .

كان التعصب المميز لنمط الانتلجنسيا الروسية من قبيل حماية الذات ، فعلى هذا النحو وحده تستطيع أن تحافظ على نفسها فى عالم معـــاد ، وبفضل تعصبها تستطيع أن تتحمـــل الاضطهاد ، وأن تتمسك بسماتهـــا المـــيزة . وكانت الدجماطيقية المتطرفة — وهى شىء يصلح له الروس أساسا — سمة مميزة للانتلجنسيا الروسية التى تتسلط عليهـــا الدوافع الاجتماعية ، وتسيطر عليها طريقة ثورية فى التفكير شجعت على ظهور نمط الانسان الذى جعل من الثورة تخصصه الوحيد . والروس يملكون موهبـــة خاصة فى هضم الأفكار والمذاهب الغربية واضفاء شكل أصيل عليها . غير أن التمثل للأفكـــار والمذاهب الغربيـــة الذى قامت به الانتلجنسيا الروسية قد جعل فى شطره الأكبر مسألة عقيدة . فما كان نظرية عمليـــة فى الغرب ، أو افتراض أو مجرد حقيقة نسبية جزئية لا تدعى أنها كلية ، تحول عند الانتلجنسيا الروسية الى عقيدة أو الى نوع من الوحى الدينى .

والروس يميلون دائمـــا الى فهم الأشياء بمعنى شمولى totalitarian أما النقد المتشكك الذى ظهر بين الشعوب الغربيـــة ، فشىء دخيل عليهم. وهذا ضعف يؤدى الى الخلط فى التفكير ، والى احلال شىء محل شىء آخر ، ولكنه ميزة أيضـــا ويشير الى التكامل الدينى للروح الروسية . واننا لنجد بين صفوف الانتلجنسيا الروسية المتطرفة موقف عبادة للعلم نفســـه . فاذا أصبح عضـــو من أعضاء الانتلجنسيا الروســـية من أنصار داروين ، فالداروينية بالنسبة اليه ليست نظرية بيولوجية قابلة للمناقشة ، ولكنها عقيـــدة ، وكل من لا يقبل هـــذه العقيدة (أى اذا كان من اتباع لامارك مثـــلا) يثير فى نفسه موقفا من الريبـــة الأخلاقية . وقد قال سولوفيف — أعظم فيلسوف روسى فى القرن التاسع عشر — ان الانتلجنسيا الروسية تعتنق عقيدة قائمـــة على قياس غريب : الانسان ينحـــدر من القرد ، اذن ينبغى أن يحب احدنا الآخـــر . وعلى هـــذا النحو الشمولى الدجماطيقى قبلت الانتلجنسيا الروســـية وعاشت بالمـــذاهب الســـيمونية (نسبة الى سان سيمون) والفوريية (نسبة الى فورييه) والهيجلية والمـــادية والمـــاركسية .. والأخيرة بوجه خاص .

والروس لا يكادون يفهمون — بوجـــه عام — معنى النسبى ، وان التقدم التاريخى يسير على مراحل ، كمـــا لا يكادون يفهمون تباين مجالات الثقافة المتعددة . والمكسيمالية (الاستبدادية) maximalism الروسية ترجع الى هـــذا ... فالروح الروسية تصبو الى النزعة الكلية ، ولا تستطيع أن تصالح نفسها مع تصنيف الأشـــياء جميعا وفقا لمقولات . انهـــا تحن الى المطلق ، وتريد أن تخضع له كل شىء ، وهـــذه سمة دينية فيهـــا ، ولكنها تؤدى فى يسر الى الخلط ، وتأخذ النسبى على انه المطلق ، والجزئى على أنه الكلى ، ثم لا تلبث أن تهوى الى عبادة الأصنام . وانهـــا لخصلة من خصال الروح الروسية خاصة ان تحول تيـــار الطاقة الدينية الى أشياء غير دينيـــة ، والى المجـــال النسبى والجزئى من العلم أو من الحيـــاة الاجتماعية .. وهذا يفسر لنـــا قدرا كبيرا من الموضوع .

وقد بدأ نمط الانتلجنسيا الروسية فى الظهور ابتداء من القرن الثامن عشر . ويعد راديشتشيف Radishchev مؤلف « رحـــلة من بطرسبرج الى موسكو » أول من ظهر من هذا النمط ، وعبارته التى تقول : « لقـــد جرحت روحى آلام الانسانية » أقرت نمط الانتلجنسيا الروسية ، وكان « راديشتشف » قد تربى على الفلسفة الفرنسية فى القرن الثامن عشر : على فولتير وديدور وروسو ، ولكنه لم يتجه اتجاها معاديا للدين كما اتجه كثير من أتباع فولتير فى ذلك العصر . فالأفكار الفرنسية كانت تدخل الروح الروسية لتتحول الى تعاطف وحب للانسانية . ولم يستطع « راديشتشف » احتمال السخرة وامتهان الجماهير وعذابهم . وفى الوقت الذى ظهر فيـــه كتاب « راديشتشف » كانت « كاترين » الثانية فى نوبة من نوبات الرجعية ، فاعتقل «راديشتشف » وحكم عليه بالاعدام بسبب هـــذا الكتاب ، ثم خفف الحكم الى السجن . وبالطريقة ذاتها القى القبض على نوفيكوف Novikov وهو من المجاهدين البارزين من أجل الاستنارة الروسية فى القرن الثامن عشر ، ومن أصحاب النزعات الصوفيـــة ، ومسيحى ذو أفكار سياســـية معتدلة غاية الاعتدال — وسجن فى قلعة بطرس وبولس . وهكذا احتفلت السلطة الروسية بتكوين الانتلجنسيا الروسية ، وكانت الخطوات الأولى

للانتلجنسيا الروسية فى سبيل الاستنارة ــ لا الثورة ــ مصحوبة بالتضحية والآلام والسجن ، والأشغال الشاقة .

وكان « راديشتشف » يعتنق آراء تعـد فى عصره جريئـة متطرفة نوعا ما ، كمـا كان طليعـة من طلائع الانتلجنسيا الثورية والاشتراكية الروسية . بيـد أن الفكر الروسى لم يكن فى القرن الثامن عشر قد اتسم بالأصالة بعد ، وكان القرن التاسع عشر هو قرن الفكر الأصيل والوعى الذاتى ، كما كان أيضا قرن الثورة الباطنية . فالوعى الذاتى معناه بالنسبة لنـا التمرد على الحقائق الراهنة التى تحيط بنـا ، التمرد ضـد روسيا الامبراطورية . وحطمت الاستنارة الاعتقاد القديم فى المملكة الأرثوذكسية ، واتخذ البحث عن هذه المملكة اتجاها آخر ، وفهمت الرسالة الروسـية على نحو مغاير . وكانت عزلة الأشخاص المثقفين المحبين للحرية فى النصف الأول من القرن التسـع عشر عزلة غير عادية .(١) فقـد كان هنـاك أشخاص مثقفون ،ولكن لم تكن هنـاك بيئة مثقفة . وكان النـاس فى ذلك العصر يجأرون بالشكوى من أنهم محاطون بظلمات الجهل ، وأن ما من أحد يفهمهم أو يتعاطف معهم . وكانت الغالبية العظمى من النبلاء الروس وطبقة الموظفين غير مثقفة وأمية ، تفتقر الى أى من الاهتمامات الراقية بالحياة . وعن هـذه « الغوغاء » تحدث بوشكين . وتصف صورة « تشاتسكى » Chatsky فى كتاب « شقاء الحكيم » عزلة أخيار الناس وخاصة العلماء والمثقفين فى ذلك العصر .

وفى مستهل القرن التاسع عشر ، فى عصر الاسكندر الأول عاشت روسـيا حقبة فى نهضة ثقافيـة ، وكان ذلك هو العصر الذهبى للشعر الروسى ، وعصر الاتجاهات الصوفية ، وحركة ديسمـبر Decembrist movement . وكان الاسكندر الأول نفسه قيصرا مستنيرا ، وباحثـا عن الحقيقة طيلة حياته ، كمـا كان فى شبابه عدوا للاستبداد والعبودية ،

---

(١) راجع كتاب هرشنزون Hershenzon : « روسـيا الفتية » Young Russia

ولكنه كان رجلا منقسم الذهن ، لا يتمتع بشكيمة قوية . ولم تؤثر نهضة تلك الأيام الا على شطر هزيل من طبقة النبلاء ، وكان على الأشخاص المثقفين والباحثين عن الحقيقة أن يحيوا فى جماعات وجمعيات صغيرة . وكانت الماسونية الممتزجة بالتصوف منتشرة انتشارا واسعا فى عصر الاسكندر ، كما كانت ذات تأثير تربوى هام ، اذ كانت هذه الماسونية الشكل الأول الذى اتخذه مجتمع يريد أن ينظم ذاته . وفى هذا القالب انصبت الحياة الروحية العارمة فى ذلك العصر .

وكانت بداية القرن التاسع عشر مرحلة تحطمت فيها القشرة التى تغلف الروح الروسية ، وبذلك أصبحت هذه الروح مهيأة لشتى ضروب الأفكار ، وللحركات الروحية والاجتماعية . وكان ذلك عصر النزعة العالمية وعصر الهيئات التى اتحدت فيها أكثر من طائفة مسيحية . ولم تلبث نزعة المشاركة الروسية(١) fsyechelovechnost أن بدأت فى التشكل بحيث أصبحت فيما بعد سمة مميزة للقرن التاسع عشر . واحتكت روسيا عن طريق الحروب النابوليونية احتكاكا مباشرا بالغرب ، وأخذ الضباط الروس يزورون أوربا ويعودون بنظرة عقلية أرحب أفقا . وكان الاسكندر الأول نفسه من أتباع « نزعة المشاركة » وقد التقى بأوين وتحدث اليه عن بناء جديد للمجتمع ، وكان يشارك الكويكرز فى عبادتهم . غير أن هذا كله لم يمنع نهاية حكمه من أن تتسم برجعية كئيبة . وكانت الروح الروسية تعد نفسها للقرن التاسع عشر . بيد أنه لم يكن ثمة تكامل أو وحدة فى الحياة الروسية ، بل كانت هناك هوة بين المستوى الثقافى الأعلى لطبقة النبلاء الذين كانوا يخدمون حينذاك فى الحرس القيصرى — وبين الغالبية العظمى لهذه الطبقة . وفى ذلك المستوى الأعلى كانت تقوم حركات روحية وأدبية ، فمنه نشأت حركة ديسمبر التى كانت تهدف الى التحرر من الاستبداد والعبودية . ولكنها لم تنتشر الابين قسم صغير منعزل بحيث لم تستطع أن تغير الحياة الروسية تغييرا حقيقيا . وهكذا كان

---

(١) وهى القدرة على المشاركة فى آراء الأمم أو الأنماط أو الأفراد المختلفين .

مآل ثورة ديسمبر التى تشهد بعدم اكتراث الصفوة من النبــلاء — كان مآلهـــا الفشل ، وسحقت فى قسوة . واعـــدم ممثلو الحركة الرئيسيون أو نفاهم نيقولا الأول الى سيبيريا .

وكان عدد كبير من الديسمبريين يعتنقون آراء معتدلة ، بل منــاصرة للملكية . غير أن بستل Pestel الذى يمثل الجناح اليسارى المتطرف ومؤلف كتاب « العدالة الروسية » يمكن أن يسمى أول اشتراكى روسى قبل ظهور الاشتراكيين ، على حد تعبير « هرتزن » Hertzen وفيـــه يمكن أن نلمح فعـــلا ارادة القوة والعنف التى ظهرت فى القرن العشرين عند الشيوعيين . بيـــد أن اشتراكية « بستل » كانت زراعية طبعا . وكان « بستل » جمهوريا ، ومن انصار ســـيادة الشعب ، ولكنه كان فى الوقت نفسه من دعاة المركزية . ولم يكن تحرريا (ليبراليـــا) ، وانمـــا — يميل الاستبداد . غير أن جمهور النبـــالة الروسية الواسع — كان فى عصر الحركة الديسمبرية سادرا فى الجهل والكسل ، غارقا فى حيـــاة معتمة . ولمـــا كان منتميا الى الفئة المتوسطة من طبقة النبـــلاء الروســـية ، بدأ بالخدمة فى الحرس ، ولكنه ما لبث ان تقاعد ، واستقر فى الريف بلا عمل ، وجعل من نفسه شخصا مشهورا بكل الوان الشذوذ والطغيـــان التافه .

كان هذا هو أعظم اخفاق منيت به المرحلة البطرسية . وقد أخرج هـــذا العصر نمط « التافهين » سواء أكانوا من أمثـــال رودين Rudin او أوبلوموف Oblomov . وكان أفضل هؤلاء « التافهين » أولئك الذين تعرفوا فى أسى على تفاهتهم ، كبعض أبطال تورجنييف . أما عند بوشكين وحده ، وهوروسى فريد من عصر النهضة — فستتألق امكانية اتخاذ موقف آخر من الحيـــاة . وكان بوشكين يجمع فى نفسه بين وعى الانتلجنسيا ووعى الامبراطورية .. فقـــد نظم أشعارا ثورية ، ولكنه كان فى الوقت نفسه شاعرا الامبراطورية الروسية . وكان كل شىء يميل — عقب القضاء على ثورة ديسمبر ، واعتلاء نيقولا الأول عرش الروسيا — الى استفحال الشقاق والثورة . وكانت الانتلجنسيا الروسية قد تشكلت بالتجديد وفقـــا

للنمط الانشقاقى schismatic وسوف تتحدث دائما عن نفسها قائلة « نحن » ، وعن الدولة والسلطة بقولها : « هم » .

وكانت الطبقة المثقفة الروسية معلقة فوق هوة تسحقها قوتان أساسيتان : الملكية المستبدة فوقها ، وجماهير الفلاحين غير المستنيرة تحتها . وكان الفكر الروسى المتردد الذى لا أساس له حرا جسورا من الداخل فى القرن التاسع عشر ، ولم يكن مقيدا الى ماض بشع ، أو مرتبطا بالتقاليد ، ولكنه كان فى مظهره الخارجى معقدا بل ومضطهدا .

وادت استحالة العمل الاجتماعي المباشر فى تلك الظروف السياسية الى تسرب النشاط كله الى الأدب والفكر حيث وضع كل سؤال ، وحل حلا متطرفا . وكانت النتيجة أحلام يقظة اجتماعية لا حدود لها ، ولا ارتباط بينها وبين الواقع الفعلى . ولقد كان الروس تلاميذ سان سيمون وفوربيه وبرودون فى الوقت الذى كانت السخرة والاستبداد ما برحا موجودين فى روسيا . وكانوا من أشد تلاميذ هيجل وشلنج تطرفا وشمولية ، فى الوقت الذى لم تكن فيه أية ثقافة فلسفية فى روسيا ، وكان الفكر الفلسفى موضع الشبهات . وكان المثقفون الروس يعشقون المناقشات التى لا تنتهى والتى تستغرق ليال بأكملها ، والمجادلات حول مشاكل العالم تدور بين جماعات صغيرة فى صالونات الثلاثينات والأربعينات .

وجاءت أول يقظة للفكر المستقل والوعى الذاتى — فى القرن التاسع عشر ، على يد تشادايف Chaadaev وهو رجل يملك مواهب فذة ، ولكنه لم يكتب شيئا تقريبا .. فقد كان كسولا شأنه فى ذلك شأن معظم الأعيان الروس . وقد عرض فكره القوى الثاقب بصورة فذة فى رسالة واحدة هى « الرسالة الفلسفية » ، وتتضمن فلسفة كاملة فى التاريخ.. وقد كان هذا الموضوع من الموضوعات الجوهرية للفكر الروسى فى القرن الثامن عشر ، وكان أول سؤال يحوم حوله الفكر الروسى المستقل هو السؤال الذى تكمن فيه مشكلة الروسيا وغرابة الاتجاه الذى يسير فيه تقدمها : أهى من الشرق أم من الغرب ؟

وكان هذا الفيلسوف الروسى الأول للتاريخ ــ تشادايف ــ ضابطا متقاعدا فى حرس الهوسار ، كما كان أول لاهوتى روسى ممتاز ــ واعنى به خومياكوف Khomyakov ضابطا فى حرس الخيالة . وكانت فلسفة تشادايف فى التاريخ ثورة ضد التاريخ الروسى ، وضد الماضى الروسى ، والحاضر الروسى . وقد ايقظت أعمال بطرس الفكر الروسى ، والطاقة الروسية الخلاقة . وقال هرتزن ان اجابة الشعب الروسى على اصلاحات بطرس كانت بظهور بوشكين . والى هذا يجب أن نضيف أنهم قد أجابوا أيضا بظهور الفكر المناصر للغرب وللنزعة السلافية (السلافوفيل) على السواء . فقد كان الفكر الروسى فى القرن التاسع عشر ــ ذلك الفكر الذى كان مشغولا بالمسائل العامة العالمية ــ اما كان مستغربا أو سلافيا ، اى أنه كان يجيب على هذا السؤال : « اينبغى أن تنتمى روسيا الى الشرق أم الى الغرب ؟ » هل تسلك طريق بطرس ، أم تعود ادراجها الى العصر الذى سبقه ، عصر روسيا المسكوفية ؟ أما « تشادايف » فجاهر بأنه من أنصار الغرب ، وكانت نزعته الغربية صيحة ألم وطنية ، فقد كان ممثلا صميما للروسى المنتمى الى الطبقة العليا المثقفة فى القرن التاسع عشر ، وكان انكاره للروسيا ، وللتاريخ الروسى ، انكارا روسيا صميما ، كانت نزعته الغربية ذات طابع دينى ، نزعة متميزة عن اشكال الاستغراب اللاحقة ، وكان شديد العطف على الكاثوليكية الرومانية ، اذ يرى فيها قوة التاريخ الفعالة الموحدة المنظمة ، وفيها كان يرى خلاص الروسيا .

وكان التاريخ الروسى يتبدى له خاليا من المعنى ، دون أية حلقات واصلة ، فلا هو ينتمى الى الشرق ، ولا هو ينتمى الى الغرب . لقد كان عصر بطرس يعكس ذلك الافتقار الى الأسلوب الحضارى . ولهذا كان تشادايف يعد روسيا درسا وتحذيرا للشعوب الأخرى ، أما الحكومة فكانت ترى فى « تشادايف » شخصا ثوريا . ولكنه كان فى الواقع قريبا بأفكاره من دى ميستر De Maistre وبونالد Bonalde وشلنج ، وكان يراسل الأخير ويقدره أعظم التقدير . ولم يستطع تشادايف المثقف ثقافة رفيعة أن يصالح نفسه مع تلك الحقيقة وهى أنه محكوم عليه

بأن يعيش فى مجتمع لاثقافة له ، وفى دولة مستبدة تسيطر على شعب جاهل غارق فى رذيلته دون أن تفعل شيئاً فى سبيل تنويره . وقد عبر « تشادايف » عن فكر لا يجـد المرء محيصا عن اعتباره أساسا للوعى الذاتى الروسى ، اذ تحـدث عن القوى الكامنـة فى الشعب الروسى ، وهى قوى لم تكن قد كشفت عن نفسها بعد . قد يبدو ذلك ادانة للشعب الروسى بقدر ما ينطبق الأمر على المـاضى ، ذلك أن هذا الشعب لم يخلق شيئا عظيما فى التاريخ ، ولم يؤد أية رسالة عظيمة ولكنه قد يبدو بالنسبة الى المستقبل أملا عظيما ، وايمانا بمستقبل الشعب الروسى بوصفه مكلفا بتحقيق رسالة عظيمة .

وعلى هـذه القوة الكامنـة بالذات ، وعلى تخلف الشعب الروسى سيؤسس القرن التاسع عشر كله الأمل فى أن ينهض الروس بحل مشكلات يتعسر على الغرب حلها نتيجة للعبء الذى يحمله من ما ضيه ، ومن هـذه المشكلات مثلا : المسـألة الاجتماعية .. وكان هـذا هو ما تعنيه فى نظر « تشادايف » . وردت الحكومة الروسية على اليقظة الأولى للفكر الروسى بأن أعلنت أن « تشادايف » رجل معتوه ، وأجرى عليـه الفحص الطبى ، وبهـذه الطريقة تم تحطيمه واسكاته . ولكنـه كتب فيما بعـد « اعتذار مجنون » وفى هذا الكتاب عبر عن أفكاره الخاصة بالرسالة الروسـية ، وكانت أفكارا روسية صميمة . لقـد كان الحكم على المـاضى شيئا ، والأمل فى المستقبل شيئا آخر . وعلى أساس تلك العرامة فى قوة الشعب الكامنة الراقدة فى قدراته التى لم تمس بعـد ، كان على الشعب الروسى أن يقول كلمته الأصيلة الخاصة للعالم ، وأن يحقق رسالته العظيمة . وفى تشادايف يمكن أن نجد فعلا الكثير من الفكر الروسى الأساسى .

لقـد حاول الروس المثقفون بانفصالهم عن الحيـاة المعـاصرة ، وباحتجاجهم على ما تنطوى عليـه الحياة الروسية من الظلم ، الالتجـاء الى الكاثوليكية الرومانية ، والبحث فيها عن الخلاص . ومن هذه الناحية كان « بتشرين » Pecherin شخصية بارزة فقد سافر الى الخارج ، وأصبح راهبـا كاثوليكيا رومانيا .. وجمع بين الكاثوليكية الرومانية والاشتراكية

الطوباوية فى تلك الفترة تبذل محاولات من أجل اقامة الاشتراكية على أساس مسيحى ، وهى محاولات تأثرت بلامينيه Lammenais اذ ما برحت الانتلجنسيا تدور فى اطار دينى . ولقد كتب بتشرين فى احدى قصائده يقول : « ما أعذب أن يبغض الانسان وطنه وأن ينتظر فى لهفة زواله من الوجود ! » وهى كلمات روسية صميمة ، كلمات تعبر عن اليأس تخفى فى طياتها حب روسيا . ففى الغرب كان « بتشرين » الذى انقلب فعلا الى راهب كاثوليكى — يحن الى روسيا ويعتقد أنها سوف تستهل دورة جديدة فى تاريخ العالم .

(٢)

كان التأثير الغربى الأساسى الذى تشكلت بمقتضاه الثقافة والفكر الروسى فى القرن التاسع عشر الى حد بعيد يسترعى النظر ، هو تأثير الرومانتيكية والمثالية الألمانية فى مطلع ذلك القرن ، وخاصة تأثير شلنج وهيجل اللذين أصبحا مفكرين روسيين تقريبا . ولم يكن هذا التأثير يعنى محاكاة ذليلة ، كما كان يعنيه تأثير فولتير فى القرن الثامن عشر ، بل لقد أخذ الفكر الألمانى بصورة ايجابية وصيغ منه نمط للفكر الروسى . ومن الضرورى بوجه خاص أن نقول هذا عن دعاة النزعة الصقلبية الذين أخصب بينهم تأثير شلنج وهيجل الفكر اللاهوتى ، تماما كما أخصب تأثير أفلاطون والأفلاطونية الجديدة الفكر اللاهوتى عند فقهاء الكنيسة الشرقيين . وقد أسس « خومياكوف » لاهوتا أرثوذكسيا أصيلا تدخل فيه عناصر متطورة من المثالية الألمانية .

وكان الفكر الروسى — شأنه فى ذلك شأن الرومانتيكيين الألمان — يسعى جاهدا وراء « الكل المتكامل » ولكنه فعل ذلك فى استمرار وتطرف أشد منهما عند الرومانتيكيين الذين فقدوا هم أنفسهم هذه الكلية — « والكل المتكامل » للشرق المسيحى قد وضع معارضا لنزعة الغرب العقلية

القائمة على التجزئة . وكان ى. كيريفسكى I. Kireevsky أول من أشار الى هذه الكلية فأصبحت منـذ ذلك الحين موضوعا روسـيا أساسـيا يضرب بجذوره فى أعماق الشخصية الروسية . فالشيوعيون الروس الملحدون يؤكدون الكلية والشمولية ، على نحو لا يقل عنه عنـد أصحاب الاتجاه الصقلبى الأرثوذكسى . والأرثوذكسية الروسية نزعة كلية شموليـة من الناحية النفسية . كمـا تأثر المستغربون الروس ممن كان نمط السلافوفيل الدينى غريبـا عنهم — بالهيجلية التى كانت بالنسـبة اليهم مجرد مذهب شمولى للفكر والحيـاة يحتضن كل شىء على الاطـلاق . وحين اعتنق بلنسكى Belinsky وباكونين Bakunin الهيجلية كانا هيجليين من هذا الطراز.
وكان الشاب الروسى الذى ينتمى الى جيل الثلاثينات والأربعينات المثالى ، يعتنق الشلنجية (نسـبة الى شلنج) الشموليـة أو الهيجلية الشموليـة فى نظرتهما الى الحيـاة كلهـا ، ولا يقتصر فى ذلك على حيـاة الفكـر والحياة الاجتماعية وحدها ، بل يشمل الحياة الشخصية ايضـا ، من حيث اتصالها بالحب أو العاطفة الطبيعية . وقد انقلب بلنسكى — وهو ثورى بطبيعته ومزاجه ، وهو الذى أقام أساسا للنظرة الثورية والاشتراكية الروسية — انقلب فى فترة من حيـاته محافظات تحت تأثير فلسفة هيجل . وشعر بنفسه ملزما بقبول معقولية الواقع ، وادرك فكرة هيجل القـائلة بأن كل ما هو حقيقى ، فهو عقلى .

وقد أظهر السـلافوفيل اصالة خلاقة فى الفكـر الدينى والفلسفى ، وارسوا رسالة روسـيا بوصفها متميزة عن رسالة الشعوب الغربية ، وتكمن أصالة السلافوفيل فى أنهم حاولوا فهم ما يتميز به النمط الأرثوذكسى الشرقى من المسيحية والذى يمكن فى أساس التاريخ الروسى . وبرغم أنهم كانوا يبحثون عن الأسس العضوية للتاريخ وعن الطرق التى يسلكها التطور ، روسـيا الامبراطورية التى حكمها بطرس ، ولم يشعروا أنهم بين ظهرانيهم فى الظروف الفعليـة السائدة فى عصر نيقولا الأول ، وكانت السلطـات تنظر اليهم فى ريبة وعداء ، على الرغم من أرثوذكسيتهم ومبادئهم الملكية .

لم يكن ثمة شيء مشترك بين النظرية الرسمية عن الروح القومية الروسية التى وضعت فى عصر نيقولا الأول بوصفها وجهة النظر المقبولة لدى الحكومة ، وبين السلافوفيل للقومية . كان المذهب الروسى قائما على مبادىء ثلاثة : الأرثونكسية والاستبداد والقومية ، وكان المذهب السلافوفيلى يعترف بهذه المبادىء الثلاثة نفسها ، غير أن الروح لم تكن واحدة ، وكان من الواضح وضوحا مطلقا أن مبدأ الأوتوقراطية (الاستبداد) يأتى فى مركز الصدارة ، أما الأرثونكسية والقومية فيأتيان فى المحل الثانى ، وكان من الواضح أيضا أن القومية بالمعنى الروسى كانت ذات طابع مشبوه ، وأنها خاضعة لتأثير أسوأ الجوانب فى الحكم المطلق السياسى بالغرب . كان نيقولا الأول من نمط الضابط البروسى ، ولم تكن الأرثونكسية أيضا روحية وباطنية ، بل كانت سياسية ، وأصبحت وسيلة لغاية .

كان لهذه المبادىء معنى مختلف تمام الاختلاف لدى دعاة السلافية اذ كانوا يعترفون أولا وقبل كل شيء بالأولوية المطلقة للمبدأ الدينى ، ويسعون الى أرثونكسية متطهرة ، لم تشوهها أو تنحرف بها المؤثرات التاريخية ، كذلك كانوا يجاهدون لتحقيق روح قومية حقيقية . وارتسمت فى مخيلتهم صورة للشعب الروسى وقد تحرر من التشويه الذى أرجعوه الى النزعة العقلية الغربية والاستبداد السياسى . وكان موقفهم من الدولة مختلفا كل الاختلاف عن أى شيء يمكن أن يوجد فى مذهب القومية الرسمية . كانوا معارضين للدولة ، بل وكان فيهم عنصر قوى من الفوضوية فكانوا يعدون الدولة شرا والحكم خطيئة . ولقد دافعوا عن الملكية على أساس أنه من الخير أن يتلوث رجل واحد بسبب تملكه للسلطة — وهى خطيئة واثم دائما — بدلا من أن يتلوث شعب بأكمله . (١) ليس للقيصر حق فى السلطة ، كما ليس لأحد سواه مثل هذا الحق ، بيد أنه مجبر على تحمل السلطة التى ألقاها الشعب على عاتقه .

(١) العنصر الفوضوى قوى على وجه الخصوص فى ك. اكساكوف .

كان السلافوفيل يعتقدون أن الشعب الروسى لا يمتلك أى موهبة تؤهله لممارسة السياسة ، اذ له رسالة دينية وروحية ، ويريد أن يتحرر من الشئون السياسية حتى يتسنى له تحقيق رسالته . ولا ريب فى أن هذه النظرية تناقض الحقيقة ، فقد أسس الشعب الروسى اضخم دولة فى العالم ، وخرج على التقاليد لا فى عصر بطرس وحده ، بل وفى عصر أمراء موسكو العظام أيضا . غير أن السلافوفيل كانوا يعبرون بذلك عن قطب من أقطاب الوعى الروسى ، اى سمة مميزة للطبقة المثقفة فى القرن التاسع عشر ، وللأدب الروسى كله . وهكذا كانوا مؤسسى تلك القومية التى ميزت الفكر الروسى فى القرن التاسع عشر ، ثم اتخذت فيما بعد أشكالا رجعية . كان السلافوفيل يؤمنون بالشعب ، وبالعدالة التى تنتمى الى الشعب ، وهذا الشعب هو عندهم ، أولا وقبل كل شيء ، الموجيك Muzhik (الفلاحون)الذين حافظوا على العقيدة الأرثوذكسية وعلى الطابع القومى للحياة وكانوا يدافعون بحرارة عن «الكوميون» Commune الذى اعتبروه بناء عضويا ، وانه البنيان الروسى الأصيل للحياة الاقتصادية بين الفلاحين ، كما كان يعتقد كافة الشعبيين Narodniks ولكنهم كانوا معارضين عنيدين للأفكار التى تضمنها القانون الرومانى عن الملكية ، فهم لم ينظروا الى الملكية بوصفها شيئا مقدسا مطلقا ، وانما نظروا الى أصحابها على أنهم أوصياء عليها فحسب ، وأنكروا الحضارة الغربية البوجوازية الرأسمالية. واذا كانوا قد اعتقدوا أن الغرب آخذ فى الانحلال ، فذلك لأنه قد سار فى طريق تلك المدنية البورجوازية ، ولأن وحدة الحياة فيه قد تصدعت . وقد سبق السلافوفيل فى التفرقة بين الحضارة والمدنية وهى التفرقة التى شاعت فى الغرب نتيجة لكتابات اشبنجلر Spengler .

وبرغم ما فى نظرة دعاة الصقلبية من عنصر محافظ ، الا أنهم كانوا يدافعون فى حماس عن حرية الشخص ، والضمير ، والفكر والقول ، وكانوا ديمقراطيين على نحو أصيل ، ويعترفون بمبدأ سيادة الشعب . وقد كشف خومياكوف — فى أشعاره — عن الآثام التاريخية التى اقترفتها الروسيا ، ولم يقتصر على الروسيا فى عصر بطرس ، بل وضم اليها

الروسيا فى العصر الذى سبقه ، وكان أشــد حدة فى حكمه من المستغربين. وقد كان السلافوفيل والمستغربون أصدقاء وأعداء فى الوقت نفسه ، وفى هذا يقول هرتزن : « اننا اشــبه بيانوس Janus ذى الوجهين ، فنحن نحب روسيا ، ولكننا لا نكن لهــا نفس الحب .. فروســيا بالنسبة الى البعض أم أولا وقبــل كل شىء وهى للبعض الآخــر ، طفــلة » . وكان السلافوفيل والمستغربون الذين عاشوا فى الثلاثينات والأربعينات ينتمون الى حلقة واحدة ، فهم يتناقشون فى نفس الصالونات التى شهدت مناظرات هرتزن وخومياكوف ، ولم ينفصــل بعضهم عن بعض انفصالا نهائيــا الا فيما بعد . وكان بلنسكى المتعصب قــد رفض فعلا أن يلتقى بصديقه ك. اكساكوف K. Aksakov .

وكان أفضل الأشخاص المثقفين وأعمقهم تفكيرا فى القرن التــاسع عشر لا يعيشون فى الحاضر ، الذى كان شيئــا منفرا بالنســبة اليهم ، بل كانوا يعيشون فى المستقبل ، أو فى المــاضى . وكان بعضهم — وهم السلافوفيل — يحلمون بروسيا مثالية كانت موجودة قبل عصر بطرس ، أما بعضهم الآخر — وهم المستغربون فكانوا يحلمون بغرب مثــالى . غير أن تناول السلافوفيل المحافظ للمــاضى البعيد كان عبارة عن يوتوبيا (جمهورية مثالية) Utopia تتبع نظاما كاملا ، وحياة كاملة ، كما كان المستغربون يتمثلون الغرب الذى لم يعرفه أحدهم معرفة وثيقة ، وقد كان المستغربون فى أغلب الأحيان دعاة الاستنارة والمدنيــة ، وهذا هو أقل الانمــاط أهمية ، أما النمط الأهم من المستغربين فذلك الذى أضفى الطابع الروسى على الأفكار الغربية ، وخاصة على التعاليم الاجتماعية الفرنسية. واذا كانوا فى الروسيا قد فهموا هيجل وشلنج فهمــا بطريقــة شموليــة مكسيمالية تماما ، فكذلك كان الشأن بالنسبة الى سان سيمون وفورييه . وقد كان تأثير الاشتراكية الفرنسية والأدب الفرنسى قويا فى معسكر الجناح المتطرف للمستغربــين ، وخاصــة جورج صــاند التى كان لهــا تأثير شديد فى تشكيل الحيــاة العاطفية للأوساط المثقفة الروســية ، وفى تكوين الموقف الروسى من الحرية والاخلاص فى العاطفة ، فى الاحتجاج الروسى

على العنف والخضوع للتقاليد ، والتزييف فى المشــاعر . وقد وضعت الخطة الخاصة بتحقيق العدالة الاجتماعية على نهج سان سيمون وفورييه ، ومن الطبيعى أن الفرنسيين أنفسهم لم يكونوا على مثل هــذا الحماس لتلك الأفكار .

وفى نهاية الأربعينات ، كانت هناك جماعة تلتقى فى منزل أحد ملاك الأرض الروس ويــدعى بتراشفسكى Petrashevsky وكانت هــــذه الجماعة تحكم على المشــكلات الاجتماعية وتخطط للانسانية تنظيما جديدا أفضــل ، وكان معظم أفرادها يتبعون فورييه وســان سيمون . وكانت أفكارهم عن اعادة تنظيم الانسانية جذرية ، غير أن طبيعــة المحادثات التى كانت تدور بينهم كانت أدنى الى الطابع السلمى وأبعد عن الايذاء (١) . ولم يكونوا يهتمرن بممارسة النشاط الثورى أيا كان . وفى هــذا العهد ، لم يكن ثمة نشاط ثورى فى روســيا ، بل لم يكن من الممكن أن يوجد مثل هــذا النشاط ، فكل شىء يحــدث فى عالم الفكر . كان أهم ما يصبون اليــه بالطبع هو تحرير الفلاحين ، وكانت الاشــتراكية الطوباوية التى تعتنقهــا هذه الجماعة اشتراكيــة ساذجة ، والواقع أن تطور الأفكار الاشتراكية فى روســيا قد مر بأطوار ثلاثة : طور الاشتراكية الطوباوية ، والاشتراكية النارودية (أو الشعبية) ، والاشتراكية العلمية أو الماركسية .

وكان « بتراشفسكى » روسيا صميما من أصحاب الأراضى ، يشتعل حماسا بأفكار الاشتراكية الطوباوية ، وكان يقول : « حين عجزت أن أجد فى النســاء أو الرجال شيئا جــديرا بمناصرتى ، كرست نفسى لخدمة الانسانية » وفى هذه العبارة تعبير عن المزاج المميز للانتلجنسيا الثورية الروسية — وأعنى به حب الانسان البعيد ، لا حب الجار . والى هــذا الانسان البعيد كان يطمح بتراشفسكى — والى سعادة الانسانية ، فقــد كان يؤمن بهــذه السعادة . وقد تم التعبــير عن طوباوية بتراشفسكى

---

(١) راجع كتاب ب. ساكولين P. Sakulin : الادب الروسى والاشتراكية سنة ١٩٢٢ .

السـاذجة فى تلك الحقيقة وهى أنه قد أقام فى ضيعته «فالانستيرا» Phalanster (اى دارا مشتركة) للفلاحين على غرار النموذج الذى دعا اليـــه فورييه. غير أن الفلاحين احرقوا هذا « الفالانستير » . وهذه الواقعة رمزية . فعلى هذا النحو رفض الفلاحون فى السبعينات قبول الانتلجنسيا الاشتراكية الذين ذهبوا اليهم ليعرضوا عليهم الخدمات فى انكار لذواتهم . وحين سئل « بتراشفسكى » أكد أن « الفالانستير » ممكن تمـــاما فى روســـيا التى تسودهـــا السخرة والطغيـــان ، وهذا الرأى مميز للعهــد الطوباوى للاشتراكية .

ويمثل «ن. سبشنف» N. Speshnev أشد الاتجاهات تطرفا فى الثورية بين جماعة « بتراشفسكى » وهو الاتجـــاه الذى يبدو أن دوستويفسكى اتخذ منه نموذجا حين أراد تصوير ستافروجين فى روايته «المسوسين ». فقد كان « سبشنف » ملحدا وشيوعيا ، وقريبا أشد الاقتراب من الماركسية. وقد شارك دوستويفسكى فى جمـــاعة بتراشفسكى ، مع أنه كان يرتاب فى امكانية تحقيق اشتراكية فورييه الطوباوية ، وانتهت اجتماعات جماعة بتراشفسكى المسالة نهاية حزينة ، كما ينتهى كل شىء نهاية حزينـــة فى روسيا فى تلك الآونة . فقـــد اعتقل أفراد الجماعة جميعا ، وحكم بالاعدام على واحد وعشرين منهم ، ثم خفف فى اللحظة الأخيرة الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان بين هؤلاء دوستويفسكى الذى عاش لحظة انتظار الاعدام رميـــا بالرصاص . ولم يكن من شأن قضية بتراشفسكى الا أن تلهب المزاج الثورى للانتلجنسيا الروسية ، فلم تعـــد الاشتراكية الروســـية مجرد اشتراكية طوباوية بعـــد هذا الحادث ، اذ ظهرت شخصيات كشخصية نتشايف Nechaev وتكاتشف Tkachev ومن المهم جدا أن نلاحظ أن أول المـــاركسيين فى العالم كانوا من الروس . ولم تقم المـــاركسية بوصفهـــا حركة — الا فى النصف الثانى من الثمانينات ، ولكن المـــاركسيين الروس ظهروا كأفراد فى نهاية الأربعينات فى باريس — وهكذا كان ن.أ. سازونوف N. I. Sazonov مالك الأراضـــى فى الاستبس — أول ماركسى روسى فى

باريس ، بل ربمـــا كان أول تلميذ من تلاميذ ماركس بوجه عام (١) .

وقد كتب ماركس مبديا دهشته وهو باريسى — وقد كان لا يحب روســيا والروس بوجه عام — كتب قائلا أن بعض اتبهــاعه قد ظهروا من أصحاب الأملاك فى الاستبس الروسى ، وكان يشعر بشىء من الارتياب فى أولئك الماركسيين الأوائل ، وقــد عانى ماركس كثيرا من المضــايقات فى علاقته بباكونين ودخل معه فى نزاع حول الدولية الأولى ، وان بدا منذ البداية أن باكونين قد اثر على المفهوم الماركسى لرسالة البروليتاريا (٢) . وعلى أى حال ، فان القدرة الروسية على الحماس الشديد للأفكار الاجتماعية هى الشىء الذى يهمنا فى هذا الموضوع ، فقد كان الروس يميلون خلال القرن التاسع عشر ميلا لا سبيل الى مقاومته الى الاشتراكية ، وكان كل شىء يمهد بينهم لمناصرة الشيوعية . ولعل المصير الذى لقيه هرتزن من الموضوعات الهامة فى تاريخ الوعى — الذاتى الروسى ، وتاريخ الفكرة القومية الروسية والفكرة الاجتماعيــة الروســية .

(٣)

كان « هرتزن » من انصــار الاتجاه الى الغــرب ، الذين جادلوا السلافوفيل فى صالونات الأربعينات . ومع أنه قد مر عبر الهيجيلية أيضا ، الا أنه سرعان ما تحول الى فويرباخ Feuerback ولم يكن التأثير الأساسى الذى أثر فيه المــانيا ، وانما كان تأثير الأدب الاشتراكى الفرنسى . اذ كون هرتزن نظرته الاشتراكية تحت تأثير الاشتراكيين الفرنسيين . وهــكذا كانت الاشتراكية الألمــانية التى برزت الى المقدمة — وأعنى بها الماركسية — أجنبية عليه ، فقد كان « هرتزن » ينتمى الى أولئــك المستغربين الروس

---

(١) راجع كتاب ب. ساكولين المذكور .

(٢) راجع الكتاب الشائق الذى ألفه كورنو Cornu بعنوان : كارل ماركس : « الرجل ومؤلفاته » سنة ١٩٣٤

الذين يحلمون فى شغف بالغرب ويتخذون منه مثلا أعلى . وقد عاش هرتزن فى الخارج ، اذ كان من أوائل المهاجرين الروس ، وحين وصل الى الغرب كان يسوده جو ثورة سنة ١٨٤٨ ، وقد اجتذبه هذا الجو فى البداية ، وعلق عليه آمالا كبارا ؟ ولكن ، كان مقدرا عليه أن يعيش فترة انقشاع الأوهام المريرة التى أعقبت ثورة سنة ١٨٤٨ ، فى الغرب وبين الغربيين بوجه عام . وكان ولعه بالغرب ذا طابع روسى صميم ، كما كان كذلك تبدد وهمه عن الغرب . وقد عاش كثير من الروس بعده وقد تبددت أوهامهم مثله . والواقع أن هرتزن قد دهش لتفاهة الغرب وأصاب ذلك نفسه بالجراح . بل لقد لاحظ هذه الروح البورجوازية التافهة بين الاشتراكيين أنفسهم ، وكان أول من لمح امكانية قيام اشتراكية بوجوازية . وبعد أن كان « الفارس » هو المثل الأعلى ، تخلى هذا المثل الأعلى عن مكانه للتاجر الصغير . وهذه الادانة لروح الغرب البورجوازية من الموضوعات الروسية الصميمة ، وقد عبر عنها السلافوفيل بمصطلح آخر ، وسيتمرد ك. ليونتف K. Leontev الرجعى على تفاهة الغرب ، كما فعل هرتزن الثورى .

ولم يعتنق هرتزن ، متميزا فى ذلك عن الممثلين الآخرين للجناح اليسارى — نظرية متفائلة عن التقدم ، بل على العكس ، دافع عن فلسفة متشائمة للتاريخ . ولم يكن يؤمن بالمعقولية وبخيرية العملية التاريخية التى تسير صوب تحقيق الخير الأسمى . وهذا هو الشىء الأصيل الطريف فى « هرتزن » ، فقد أدرك القيمة العليا للشخصية الانسانية على الرغم من انسحاقها بتقدم التاريخ ، ووضع أساس الاشتراكية الفردية الروسية الأصيلة التى سوف يمثلها فى السبعينات ن. ميخايلوفسكى N. Mikhailovsky والاشتراكية الفردية تعارض الفردية البورجوازية . ولم يستطع هرتزن أن يلمح فى أوروبا الغربية القوى التى يمكن أن تقف ضد امبراطورية التفاهة . فالعامل الأوروبى الغربى يتسم بهذه التفاهة فى العقلية ، ومن ثم فانه لا يستطيع انقاذ الغرب منها . ولما كان هرتزن المهاجر قد حرم حتى وفاته من امكان العودة بجسمه الى أرض وطنه ، فقد عاد اليها بروحه . وأيا كانت بشاعة حكم نيقولا الأول الاستبدادى — وعبوديته ، وأميته ،

فانه فى الروسيا بالذات ، وفى الشعب الروسى تستقر محتجبة قوة كامنة لتشكيل حياة جديدة أفضل ، حياة ليست تافهة وليست بورجوازية . وقد رأى هرتزن هذه الإمكانيات فى الفلاح الروسى ، فى سترة الفلاح الرمادية المصنوعة من جلد الغنم ، وفى « كوميون» الفلاحين . وفى عالم الفــلاح الروسى تختفى امكانية الجمع بين مبدأ الشخصية ومبدأ الجماعية والحياة الاجتماعية . وكان هرتزن شكاكا انسانيا ، وكانت العقائد الدينية غريبة عنه ، والايمان بالشعب الروسى ، وبالحقيقة الكامنة فى « الموجيك » (الفلاح الروسى) ، هما المرساة الأخيرة للخلاص. وهكذا أصبح هرتزن أحد مؤسسى النزعة الشعبية الروسية Narodnichestro وهى ظاهرة روسية خاصة ، وفى شخصه اقتربت النزعة الغربية الروسية من النزعة السلافية فى بعض جوانبها .

وقد حدث فى معسكر المستغربين انقسام الى الاشتراكيين الشعبيين والتحرريين . وكان هرتزن والاشتراكيون الشعبيون يؤمنون بطريق خاص لتقدم روسيا فى رسالتها لتحقيق العدالة الاجتماعية قبل الغرب وبطريقة افضــل ، وكانوا يؤمنــون بأنه من الممكن أن تفلت روسيا من فظــائع الراسمالية . أما التحرريون من انصار الغرب فكانوا يعتقدون انه ينبغى على الروسيا أن تجتاز نفس الطريق الذى سلكته أوروبا الغربية . ولمـــا كان الشعبيون يستنكرون السياسة ، فقد اعتقدوا أن السياسة سوف تدفع بروسيا الى طريق التقدم الوعر الذى سار فيه الغرب ، وكانوا يدركون أولوية ما هو اجتماعى على ما هو سياسى . وهذا ايضا موضوع روسى مميز . والواقع أن هرتزن وباكونين ، بل بعض الثوريين المتطرفين من أمثال تكاتشف Tkachev ونتشايف Nechaev كانوا — بمعنى ما — اقرب الى الفكرة الروسية من المستغربين والتحرريين المستنيرين . وكان كل ما تلا ذلك من الحاد الاشتراكية الثــورية الروسية ، والاتجاهات الفوضوية ، هو الروح الدينية الروسية وقد انعكست وانقلبت من الداخل الى الخارج ، ولكنها ما زالت محتفظة بروحها التنبئية Apocalyptic ومن اهم الأمور أن نذكر أن التقليد الليبرالى كان ضعيفا دائما فى روسيا ، وانه لم تكن لدينا

مطلقا نزعة ليبرالية تمتلك سلطة اخــلاقية او توحى بأى نوع من انواع الالهام . ولا شك أن دعاة الاصلاحات الليبرالية فى الستينات كان لهم شىء من دلالة ، غير أن نزعتهم الليبرالية كانت عملية صرفة ونفعية محضة ، ولم يضعوا نظرية أيا كانت ، وهذا الشىء تحتاج اليه الانتلجنسيا الروسية دائما وابدا .

الفصل الثاني

الاشتراكية والعدمية الروسيتان

على الرغم من أن « بلنسكى » عاش فى الأربعينات ، وكان ينتمى الى جيل السلافوفيل والمستغربين ، فربما كان أول من عبر عن نمط الانتلجنسيا الثورية ، وفى أواخر حياته صاغ المبادىء الأساسية لنظرتها العامة وهى المبادىء التى تطورت فيما بعد فى الستينات والسبعينات . ولم يكن بلنسكى فى المقام الأول من الأعيان الروس كبقية السلافوفيل والمستغربين جميعا ، مثل هرتزن وباكونين ، بل كان ينتسب الى طبقة اجتماعية مختلفة هى طبقة اللامنتمين raznochinets (وهو الشخص الذى لا ينتمى الى أية مهنة Guild أو الى طبقة التجار كما أنه لا ينتمى الى النبلاء ايضا) . وقد كانت فى تكوينه الروحى سمات مميزة للانتلجنسيا ، وهى التكريس المتحمس للأفكار ، فهو مشغول دائما بتطوير رأى من الآراء ، لا بوصفه رأيا تتطلبه المعرفة الخالصة ، ولكن بوصفه أساسا لتطلعاته نحو نظام اجتماعى افضل واعدل . وكان « بلنسكى » شخصا ذا مواهب ممتازة وقدرة ملحوظة على تقبل الأفكار ، غير أن مستوى تعليمه لم يكن عاليا . فهو لا يحيط تقريبا بأية لغة من اللغات الأجنبية ، ومعرفته بالأفكار التى كرس لها حياته لم تصل اليه مباشرة ، وقد عرف هرتزن أساسا من خلال ما اخبره به باكونين عنه .

وقد اجتاز بلنسكى مراحل الحماس للأفكار المألوفة فى الأوساط الروسية المثقفة فى ذلك العصر ، فكان على التوالى تلميذا لفشته وشلنج وهيجل ، ولكنه تحول فيما بعد الى فويرباخ ، واحس بتأثير الأدب الفرنسى والفكر الاشتراكى الفرنسى ، وكان فوق هذا كله ناقدا ادبيا ممتازا ،

وهو أول من قدر بوشكين وجوجول ، حق قدرهما ، وكذلك الأعمال الخلاقة المبكرة للقصاصين الروس العظام . وكان هو نفسه يمتلك حساسية فنية ، وقدرة على اصدار الأحكام الجمالية ، وبهذا أصبح سلفا لنمط الناقد الأدبى الذى قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى تاريخ الانتلجنسيا الفكرى . وفى بلنسكى نجد ذلك البحث الروسى المميز عن نظرة متكاملة تجيب على مشكلات الحياة جميعا ، وتوحد بين العقلين النظرى والعملى ، وتضع أساسا فلسفيا للمثل الاجتماعى الأعلى . والحقيقة المتكاملة — كما عبر عنها ن. ميخايلوفسكى N. Mikhailovsky فيما بعد ، وكان هو أيضا ينحدر من بلنسكى — هى فى وقت واحد الحقيقة المجردة ، والحقيقة التى تجد فى العدالة تعبيرا عنها . وهذه الفكرة الكلية نفسها نجدها عند ن. فيديروف N. Federov فى اطار دينى ، كما نجدها فى اللينينية الماركسية . وسوف يروج الدعاة النقاد الروس دائما لنظرة متكاملة ، وسوف يجمعون دائما بين الحقيقة والعدالة . وسيكونون دائما معلمى حياة . وقد كان بلنسكى أول ممثل موهوب بوجه خاص لهذا النمط . اذ أكد فعلا الجانب الاجتماعى لعمل الناقد الأدبى . وكان الفكر الاجتماعى الروسى محتجبا تحت شكل النقد الأدبى ، لأنه لم يكن ليجد تعبيرا عن نفسه بطريقة أخرى فى مثل ظروف الرقابة السائدة حينذاك . وفى تطور الأفكار وثورتها ، ذلك التطور وتلك الثورة التى عاش « بلنسكى » خلالها ، كانت الأزمة التى وصلت اليها النزعة الهيجلية فى ذهنه ذات طرافة وأهمية خاصة .(١) وقد اجتاز الفكر الروسى أزمتين من هذه الأزمات بالنسبة للنزعة الهيجلية : احداهما فى خومباكوف وهى أزمة دينية والأخرى فى بلنسكى وكانت أزمة اجتماعية (٢) .

(١) راجع كتاب « اشتراكية بلنسكى » ويحتوى على مقالاته ورسائله ، جمعها وعلق عليها ساكولين سنة ١٩٢٥ . والرسالة الهامة التى بعث بها بلنسكى الى بوبتكين موجودة فى هذا الكتاب .

(٢) راجع الكتاب الشائق « هيجل عند السلافيين Hegel bei den Slaven وفيه ٣٥٠ صفحة عن هيجل فى روسيا ، وقد كتب هذا الجزء د. تشيزفسكى D. chizhevsky وهو حجة فى تاريخ الفكر الفلسفى الروسى ، ومع ذلك فانه لم يلتفت التفاتا كافيا الى ازمة الهيجلية المزدوجة فى روسيا .

المشكلة الجوهــرية التى عنى بها الروس الذين اجتذبهم هيجل فى الأربعينات هى مشكلة علاقتهم بالفعلية actuality ومذهب هيجــل فى معقولية الواقعة الفعلية وهو المذهب الذى كان بالنسبة لهيجل مسألة منطق والذى يعنى الاعتراف بتلك الحقيقة وهى أن العقلى هو وحــده الحقيقى الصادق ، كان هذا المذهب فى روسيا عبارة عن خبرة أشد ما تكون توترا وايلاما ، كما أنها فسرت تفسيرا زائفا . ومن المعروف جيدا أن هيجل يمكن أن يفهم بمعنى محــافظ أو بمعنى ثورى ، فقد نبع منه تياران من الفكر أحدهما يمينى والآخر يسارى ، وكان هيجل فيلسوف الدولة البروسية ، وفى هذه الدولة كان يرى تجسيد الروح المطلقة ، ولكنــه ادخل فى الوقت نفســه عن طريق لديالكتيك نزعة حركيــة (ديناميكية) ثورية فى لفكر ، ومهد لظهور ماركس . وفى بداية الأمر فهم الهيجيليون الروس فى الأربعينات هيجل بطريقة محافظة ، وفسروا فكرته عن الطابع العقلى للفعلية actuality بأنها تعنى أنه ينبغى على المرء أن يصالح نفسه مع بيئتــه الفعلية — وهى عصر نيقولا — وأن يتعرف على المعقولية فيها . وقد اجتاز بلنسكى وباكونين ، وهما من أصحاب النظرات الثورية للحياة — مثل هذا الطور من الهيجلية المحافظة . وكان المثاليون الرومانتيكيون من الروس يهربون فى الأربعينات من الظروف الاجتماعية الفعلية الى عالم الفكر والخيال والأدب ، الى عالم الأفكار المتأملة ، اذ كانوا يعانون من بيئتهم وما فيهــا من قبح وضيم ، ولكنهم كانوا عاجزين عن تغييرها . وهذا التنافر بينهم وبين بيئتهم الفعلية جعلهم خاملين ، وانتج نمط الأشخاص التافهين الذين لا جدوى منهم . أما الهيجلية فتتضمن امكانية قيــام علاقة مع الواقع الفعلى الذى قد يكون له معنى مزدوج ، ذلك أن الهوية بين الحياة والفكر لا تتألف من ادخال الحياة فى الفكر فحسب ، بل من ادخال الفكر فى الحياة ايضا .

وفى نهاية الأربعينات ، فى الفترة الأخيرة من حياة بلنسكى ، قامت علاقة عاصفة عنيفة مع الظروف الاجتماعية الفعلية ، ولكنها لم تؤد الى المصالحة بل الى الصراع . والصراع يفترض مقدما علاقة مع الحقيقة الفعلية ، مع الواقع ، أما علاقة الحلم مع الحياة فتجعل الصراع مستحيلا . بيد أن هذه

العلاقة اتخذت فى بلنسكى شكل الأزمة فى نزعته الهيجلية . فقـد انشق الفكر الثورى اليسارى الروسى كله عن الهيجلية حتى مجىء المـاركسية التى اتجهت صوب هيجل من جديد ، ولكنها فسرت الآن ديالكتيكه بمعنى ثورى . وفى آخر مراحل بلنسكى تحول الى الاشتراكية الثورية والى النزعة الالحادية المحاربة . وقد عبر عن ذلك فى رسائله العجيبة الى بوتكين Botkin التى لم يكن من الممكن نشرها فى روسيا القديمة . والتمرد على هيجل تمرد لحساب الشخصية الانسانية الحيـة ، والصراع من أجـل الشخصية الانسانية قد تحول الى صراع فى سبيل بناء اشتراكى للمجتمـع . وهكذا تكون الطراز الروسى المميز للاشتراكية الفردية .

وبلنسكى — بتهوره المعهود — يتمرد قبل كل شىء على المثالية المجردة المتبعدة عن الحياة الملموسة ، تلك المثالية التى تضحى بالفردى فى سبيل العام ، والشخص الانسانى الحى لروح العالم . ولهذا كتب قائلا : « ان مصير الذات والفرد ، والشخص ، أهم من مصير العـالم بأسره أو من رفاهية الامبراطور الصينى » . وقال أيضا مخاطبا هيجل : « اننى أبجل طيلسانك كفيلسـوف ، ولكن مع احترامى لحذلقتك الفلسفية ، فان لى الشرف بأن أخبرك أننى لو منحت فرصة الصعود الى أعلى درجة فى سلم التطور فسوف أطلب هناك حسابا عن ضحايا ظروف الحياة والتاريخ ، وضحايا المصادفة والخرافة ومحاكم التفتيش ، وفيليب الثانى الخ ... والا فسوف ألقى بنفسى من تلك الدرجة العليا . فأنا لا أريد السـعادة كمنحة اللهم الا اذا اطمأن بالى عن اخـوانى فى الدم والعظم واللحم . ويقولون أن النشاز شرط من شروط الانسجام . وربما كان ذلك مما يجلب المتعة والعزاء لعشاق الموسيقى ، ولكنه لا يجلب بكل تأكيد شيئا من ذلك لأولئك الذين فرض عليهم المصير دور التعبير عن النشاز فى تجربتهم » . وهذه العبارات على جانب كبير من الأهمية للمشـكلة الروسية التالية ، ففيها وضعت مشكلة الشر ، ومشكلة تبرير الألم ، وهى المشكلة الروسية الجوهرية ، ومصدر الالحاد الروسى ، انها مشكلة ثمن التقدم التى سوف تلعب دورا كبيرا فى الفكر الاجتماعى فى السبعينات .

وكان بلنسكى ارهاصا لدوستويفسكى ، فقد عاش فعلا مشكلة ايفان كارامازوف الخاصة بدموع الطفـــل ، وفيه نجد النقاش الذى تصـــوره دوستويفسكى فى روائته « أسطورة المفتش العـــام » ويبـــدو أحيـــانا أن دوستويفسكى كان يفكر من خلال أفكار ايفان كارامازوف فى « بلنسكى » الذى عرفه شخصيا معرفة وثيقة وجادلة جدالا طويلا . وقد كابد بلنسكى فترة من اليأس والمرارة بعد أن تبددت أوهامه فى المثالية ، فأصبح ثوريا وملحدا واشتراكيا . ومن الحقائق الهامة أن اشتراكية بلنسكى الثـــورية الروسية قد ارتبطت عاطفيا بالالحاد . ومنبع هذا الالحاد هو التعاطف مع بنى البشر ، واستحالة التصالح بين الانسان وبين فكرة الله بالنظر الى الشر المفرط والألم اللذين تزخر بهما الحياة . ومثل هذا الالحاد ينشأ عن الشعور الأخـــلاقى ، وعن حب ما هو خير وعادل . وسوف يكشف دوستويفسكى عن هذه السيكلوجية الدينية . وعن طريق التعـــاطف مع البشرية والتمرد على ما هو عام (الفكرة ، العقل ، الروح ، الله) ذلك العام الذى أخمد أنفاس الانسان الفردى الحى : صار بلنسكى اشتراكيا . وهو شاهد ممتاز على المنابع الأخلاقية النفسية للاشتراكية الروسية . والتمرد على ما هو عام من أجل الفرد يتحول فيه الى كفاح من أجل العام بمعنى جديد ، بمعنى الانسانية ، وتنظيمها الاجتماعى . واخفق بلنسكى فى أن يلاحظ ــ انه بعد أن رفض كل ما هو عام ، ذلك العام الذي اضطهد الانسانية من قبل ــ بعد أن فعل ذلك لم يلبث أن أخضع الفرد لـ « عام » جديد . وبدا له أن هذا « العـــام » الجديد الذى يبجله ، ما دام الرجل الروسى لا يستطيع الا أن يبجل هذا الشىء أو ذاك ــ قد أكـــده من أجل الشخصية الفردية . وقد حدث هذا الشىء نفسه فى التسعينات . وكان بلنسكى يهتف قائلا : « الروح الاجتماعية ــ أو الموت ــ » « وماذا يعنينى أن يعيش « العام » بينما ما هو فردى يتألم . الرفض هو ربى » .

وفى روســـيا فى أواخر الأربعينـــات كانت توجـــد نفس العمليـــة الفكرية التى تكونت فى المـــانيا فى الجناح اليسارى للهيجلية ، فى فويرباخ وماركس . فهناك خروج على المثالية المجردة وانتقال الى الواقع العينى

الراهن . وبلنسكى يقـــول عن نفسه أنه مشـــبع بحب « مارا» Marat للانسانية ، ويكتب قائلا : « اننى أصبح فظيعا حين تدور فى رأسى فكرة صوفية لا معقولة أو غيرها » . والروسى دائما على هذه الحال بوجه عام ، فثمة فكرة صوفية لا معقولة تدور فى رأسه ، وهذه العبارة التى قالها بلنسكى هامة جدا ، فهو متأهب نتيجة لتعاطفه مع البشرية أن يدعو الى الطغيان والوحشية . ان اراقة الدماء شىء لا مفر منه . ولكى تجلب السعادة الى الشطر الأكبر من البشرية قد لا تجد مناصا من قطع رؤوس مئات الآلاف من البشر — لقد كان بلنسكى رائدا للأخلاقيات البلشفية ، وكان يقول أن الناس من الغبـــاء بحيث لا بد لك من أن تشدهم قسرا الى السعادة . ويعترف بأنـــه لو كان قيصرا لكان طاغية من أجل العـــدالة . فهو مهيأ للدكتاتورية ، ويقـــول أنه سيأتى الوقت الذى لن يكون فيه غنى أو فقير . وهكذا كان بلنسكى أول من بدأ بتقرير أن الروس شعب ملحـــد ، ولكنه ما زال يحتفظ فى قرارة نفسه بحب مسيح الفقراء والتعساء . وقد كتب بلنسكى خطابا الى جوجول حافـــلا بالاستنكار بمناسبة ظهور كتـــابه : « مراسلات مع الأصدقاء » . ولم يكن من الممكن بالطبع نشر هذا الخطاب ، فكان ينتقل من يد الى أخرى . وفيـــه دمغ جوجول بأنه خائن وداعيـــة للعبودية ، وهو من وجهة النظر الدينية مخطىء ولكنه من وجهة النظـــر الاجتماعية مصيب .

ان بلنســـكى شخصية رئيسية فى تاريخ الفكر السياسى الروسى والوعى الذاتى الروسى فى القرن التاسع عشر ، وينبغى أن ننظر اليـــه بوصفه — اكثر من اى شخص آخر — السلف العقلى للشيوعية الروسية ، وواحد من جدودها ، وهو بعد ذلك بكل تأكيد أكثر من هرتزن أو غيره فى الأربعينات بل فى الستينات أيضـــا . وهو يقترب من الشيوعية لا بفكره الأخلاقى فحسب ولكن بآرائه الاجتماعية أيضـــا ، وهو ليس نارودنيك (شعبيا) نموذجيا ، فهو يرى للتطور الصناعى أهمية ايجابية ، بل انه على استعداد للاعتراف بأهمية البورجوازية التى لا يستطيع احتمالها ، تماما مثلما فعل المـــاركسيون الروس فيما بعد .

من الممكن دراسة الدوافع الداخلية التى ولدت النظرة العامة للحياة لدى الانتلجنسيا الثورية الروسية ، فى بلنسكى ، وهى الدوافع التى ظلت سائدة فترة طويلة ، ثم أنتجت أخيرا الشيوعية الروسية ، وان يكن ذلك فى اطار تاريخى مختلف . وينبغى أن ترى هذه الدوافع أولا وقبل كل شىء ، فى الاحتجاج الساخط المتحمس على الشر والعنف وآلام الحيـــاة ، وفى التعاطف مع التعساء والمحرومين والمسحوقين . بيد أن الروس قد أصبحوا نتيجة لهذه الشفقة والتعاطف واستحالة تحمل العذاب .. أصبحوا ملاحدة . وهم قد صاروا ملاحـــدة لأنهم لا يستطيعون الاعتراف بخالق خلق عالمـــا شريرا ناقصا مليئا بالألم . وقد كانوا هم أنفسهم يودون أن يصنعوا عالمـــا أفضل يختفى منه هذا الشر وذلك العذاب . ونحن نجد فى الالحاد الروسى أفكارا تمت بصلة القربى الى ماركيون Marcion غير أن « ماركيون » كان يعتقد أن خالق العالم الـــه شرير ، بينما كان الروس ، فى عصر عقلى مختلف — يعتقدون أنه لا وجود لاله على الاطلاق ، وأنه اذا وجد فلا يمكن أن يكون الها شريرا . كل هذا نجده فى بلنسكى . أما « باكونين » فيعطينا الانطباع بأنه محارب يحارب الله مدفوعا بدوافع قريبة من « الماركيونية » Marcionism وفى لينين يصل هـــذا الموقف الى ذروته . وانه ليكمن فى الأصول المبكرة للالحاد الروسى شعور انسانى متســـام يصل الى ضرب من التمجيد ، ولكن النتيجة النهائية ، حين وصل الالحـــاد المحارب الى السلطان — أحلت الشيوعية الروسية الشعور الانسانى بضده . وهذا كله قد تنبأ به دوستويفسكى .

ويمكن أن نتعرف على اتجاهين فى التفكير لدى بلنسكى ، فهو يوجه انتباهه أولا الى الفرد الانسانى الحى ، الى الألم الذى يقاسيه ، ويريد أن يقرر قبل كل شىء أنه جدير بأن يحيا حياة مليئة . بل ان له الحق فى أن يحيا مثل هذه الحياة ، فهو يتمرد على « العام » وعلى روح العـــالم ، وعلى المثالية لحساب الشخص الانسانى الحى . غير أن اتجاه انتباهه لا يلبث أن يتحول بسرعة ، ويبتلع الشخص الكل الاجتماعى . والمجتمع .. المجتمع الجديد الذى لا يمكن تأسيسه الا عن طريق الثـــورة — هو الذى

يستطيع ان ينقذ الشخص الفردى الانسانى من العذاب والاستبداد اللذين لا سبيل الى احتمالهم . والشطر الأكبر من المجتمع الذى يتألف منه الناس — هو الذى يعانى هذا العذاب والاستبداد الجائرين . بيد أن تركيز انتباهه على المجتمع ، وعلى ضرورة التغيير يؤدى به الى نسيان هذا الشخص الفردى الانسانى نفسه ، وحياته المكتملة وحقه فى المضمون الروحى للحياة . وتحل مشكلة المجتمع أخيرا مكان مشكلة الانسان ، وتقذف الثورة بذلك « العام » الذى اضطهد الشخص الفردى الانسانى ، ولكن تجعله خاضعا لـ «عام جديد » ولمجتمع يطلب لنفسه خضوع الانسان التام . هذا هو التطور المحتوم للفكر الاشتراكى الدينى ، والالحادى . والالحاد الروسى الذى ارتبط بالاشتراكية ، ظاهرة دينية ، وفى أساسه يكمن حب العدالة . وكان « بلنسكى » قد تشبع فعلا بالروح الطائفية التى تميز الانتلجنسيا الثورية الروسية .

ولا يستطيع المرء أن يسمى « بلنسكى » ناروديا narodnic (أى من أصحاب النزعة الشعبية) بالمعنى الضيق لهذه الكلمة . فهو لا يشارك أصحاب هذه النزعة ايمانهم المميز بالشعب ، ولكننا نجد فيه مبدأين تكونا فعلا ، مبدأين يكمنان فى أساس الاشتراكية الشعبية : مبدأ أولوية الشخصية الانسانية ، ومبدأ الاشتراكية الجماعية فى تنظيم المجتمع الانسانى . الشخصية والشعب ، هاتان هما الفكرتان الأساسيتان للاشتراكية « الشعبية »الروسية . وقد كان « هرتزن » أكثر تمثيلا للاشتراكية الشعبية ، وكان الغرب يعرفه أكثر مما يعرف بلنسكى اذ كان يعيش فى الخارج ، ويحرر صحيفة « الناقوس » فى لندن ، كما كان متصلا بالحركة الاشتراكية الغربية ، وترجمت كتبه الى اللغات الأجنبية . وهو أكثر فردية وانسانية من «بلنسكى» ، ولكن أوهامه عن الغرب قد تبددت ، كما سبق أن ذكرنا آنفا — وأخذ يبحث عن الخلاص فى الفلاح الروسى ، ذلك الفلاح الذى لم يتخذ منه بلنسكى مثلا أعلى بكل تأكيد . وفى بلنسكى كان النمط الماركسى يوجد بالقوة . والشىء العجيب هو أن « هرتزن » قد رأى فى الفلاحين الروس لذين يعيشون فى ظروف السخرة ويفتقرون الى أشد درجات

التنوير أولية — رأى هرتزن فى هؤلاء تعبيرا عن مبدأ الشخصية أعظم مما رآه فى الأوروبى الذى صار بورجوازيا . وفى الشعب الروسى كان مبـــدأ الشخصية ممتزجا بمبدأ الجماعية : وقد أصبح هرتزن الذى عاش فى بلد اجنبى ، مؤسسا للاشتراكية « الشعبية » التى وصلت الى أعلى درجات تطورها فى السبعينات . وكان هرتزن يعتقد أن الاشتراكية يمكن أن توجد فى روسيا بصورة أيسر وافضل من ايجادها فى الغرب ، وانها فى هـــذه الحالة لن تكون بورجوازية ، وهو مثل الكثيرين غيره من « الشعبيين » كان يعارض قيام ثورة سياسية ، يمكن أن تدفع روسيا الى طريق التطور البورجوازى .

ومعنى أن يكون المرء اشتراكيــا فى ذلك العصر ، هو أن يطـــالب بالاصلاحات الاقتصادية ، وان يحتقر النزعة الليبرالية ، وأن ينظر الى تطور الصناعة الراسمالية على انه الشر الرئيسى ، لأنه يحطم تصـــور النظام الزراعى للحياة بوصفه أعلى انماط المجتمع . وكان هذا يعنى فى كثير من الأحيان تعاطفا مع الديكتاتورية ، بل مع الملكية . وكان الاشتراكيون « الشعبيون » على استعداد لتأييد النظام الملكى فى روسيا اذا وقف مدافعا عن الشعب ضد طبقة النبلاء والبورجوازية النامية . وقد ساق هرتزن — اثناء حياته فى الخارج — التهنئة للاسكندر الثانى بمناسبة اعماله الخاصة بتحرير الفلاحين ، على صفحات مجلته « الناقوس » . غير أن « هرتزن » — على الرغم من افكاره الاشتراكية الثـــورية جميعا ، وعلى الرغم من موقفه بوصفه مهاجرا — كان يبدو اجنبيــا بالنسبة لجيل الستينات . فهو من رجال الأربعينات ، وهو أرستقراطى روسى مثقف ، وانسانى شكاك ، ولكنه لم يكن عدميا Nihilist ولم يكن طرازا مميزا للانتلجنسيا الثورية ، بل هو فى هذا المجال اقل كثيرا من بلنسكى . ويتحدث عنه تشرنشفسكى Chernishevsky الذى عمل على تطوير أفكار عن الاشتراكية « الشعبية » شبيهة بأفكار هرتزن — يتحـــدث عنه فى ازدراء ، بوصفه أرستقراطيا borin من الأربعينات ، يمضى فى اعتقاده بأنه يناقش خومياكوف فى أحد صالونات موسكو . وفى الستينات برزت الى مقدمة صفوف الانتلجنسيا

جماعات جديدة ، وبالأخص تلك الجماعات المؤلفة من القساوسة والرهبان Seminarist (طلاب المعاهد الدينية) ولم بعد لطبقة النبلاء أية سيطرة ، وظهر نمط روحى جديد ، أشد صرامة وزهدا ، وأكثر واقعية ونشاطا . أما أولئك المثاليون الذين كانوا ينتمون حقا الى الأربعينات ، ولكنهم ظهروا فى الستينات بوصفهم أشخاصا لا جدوى منهم « فقد بدوا الآن رجـال عصر بائد .. وظهر العدميون على مسرح الأحداث » .

(٢)

والنزعة العدمية ظاهرة روسية مميزة ، وهى فى صورتها الروسية غير معروفة فى أوربا الغربية . والعدمية بمعناها الضيق هى حركة التحرر العقلى التى ظهرت فى الستينات ، ويعرف بيسـارف Pisarev بأنه داعيتها الرئيسى . وقد صور ترجنيف شخصية العدمى الروسى فى « بازاروف » أحد أبطال رواياته . بيد أن العدمية فى الواقع شىء أوسع كثيرا مما يمثله بيسارف ، فهى موجودة فى أعماق التربة الكامنة تحت الحركات الاجتماعية الروسـية ، على الرغم من أن النزعة العـدمية ليست فى ذاتها حركة اجتماعية . وهناك أساس عدمى فى لينين ، مع أنه يعيش فى عصر آخر . ويقول دوستويفسكى : « كلنا عدميون » . والعدمية الروسية تنكر الله والنفس والروح والأفكار ، والمعايير والقيم العليا . ومع كل هذا ينبغى أن نتعرف على العدمية بوصفها ظاهرة دينية . فلقد نمت على التربة الروحية للأرثوذكسية ، كما لا يمكن أن تظهر الا فى روح صبت فى قالب أرثوذكسى . فهى الزهد الأرثوذكسى مقلوبا ، وهى زهد بدون الفضل الآلهى . وهنـاك عند أساس العدمية الروسية ، اذا أدركناها فى صفائها وعمقها — يكمن الانكار الأرثوذكسى للعـالم ، والاحساس الأرثوذكسى بهذه الحقيقة وهى « أن العالم كله غارق فى الشر »(١) ، والاقرار بأن ضروب الثراء والترف وألوان الاغراق فى الفن والفكر خطيئة واثم . والعدمية شأنها فى ذلك شأن

(١) انجيل يوحنـا ٥ ــ ١٩

الزهد الأرثوذكسى ، عبارة عن حركة فردية ، ولكنها موجهة أيضا ضـــد امتلاء الحياة وثرائهـــا ، وهى لا تعتبر الترف والفن والميتافيزيقا والقيم الروحية اثمـــا وحدها ، بل الدين أيضا . وينبغى أن تكرس كل قوتها لتحرير الانسان على الأرض ، لتحرير الكـــادحين من عذابهم المفرط ، ولتهيئة الحيـــاة السعيدة ، ولتحطيم الخرافة والتحـــيز ، والمعـــايير التقليدية ، والأفكار المترفعة التى تستعبد الانسان وتعوق سعادته . وهذا هو الشىء الوحيد الذى نحتاج اليه ، أما ما عدا ذلك فرجس من عمل الشيطان . وفى المجـــال العقلى ينبغى على المرء أن يجد الرضى المتقشف فى العـــلوم الطبيعية التى تحطم المعتقدات القديمة ، وتضرب عرض الحائط بالتحيزات ، وفى الاقتصاد السياسى الذى يساعد على وضع نظام اجتماعى اكثر عدلا .

والعـــدمية هى النزعة التنبؤية الروسية السلبية ، انها تمرد على مظالم التاريخ ، وعلى المدنية الزائفة ، وهى تطالب بأن ينتهى التاريخ ، لتبدأ حياة جديدة — خارج التاريخ أو فوقه . العدمية تطـــالب بالتجرد ، وبأن ينتزع المرء نفسه من كل زخارف الحضـارة ، وبابادة التقاليد التاريخية جميعا ، وبتحرير الانسان الطبيعى الذى لن يرسف فى الأغلال أيا كانت بعد ذلك أبدا . وقد وجد الزهد العقلى للعدمية تعبيرا عنه فى المـــادية ، أما أى فلسفة اشد من ذلك ارهافا فقد أعلن أنها خطيئة .

والعدميون الروس فى الستينات — وليس فى ذهنى بيسارف وحده ، بل تشرنشفسكى ودوبروليوبوف Dobrolyubov وغيرهما أيضا — كانوا رسل الاستنارة الروسيين ، فقد أعلنوا الحرب على التقاليـــد التاريخية جميعا ، وعارضوا « بالعقل » الذى لم يكونوا ليعترفوا بوجوده اذا كانوا ماديين — معتقدات المـــاضى كلها وتحيزاته . بيد أن رســـل الاستنارة الروس تمشيا مع الطابع المكسيمالى Maximalist الذى يتسم به الشعب الروسى ، أصبحوا عدميين . ففولتير وديدرو لم يكونا عدميين . أما فى روسيا فقد اتخذت المـــادية طابعا مختلفا كل الاختلاف عن الشكل الغربى لها ، فتحولت الى ضرب عجيب من اللاهوت القطعى (الدجماطيقى) ، وهذه حقيقة تصدم الفكـــر عن مادية الشيوعيين ، غير أن المـــادية كانت قد

اصطبغت فعلا بهذه الصبغة اللاهوتية فى الستينات ، فقد أصبحت عقيدة عن الالتزام الخلقى ، ووراءها كان يحتجب زهد عدمى متميز . وعلى هذا النحو تكون نوع من العقيدة Catechism المادية ، اعتنقتها الدوائر المتعصبة من الانتلجنسيا اليسارية الروسية ، ومن لم يكن ماديا كان موضع الارتياب الخلقى ، واذا لم تكن ماديا ، فأنت اذن تؤيد استعباد الانسان عقليا وسياسيا . وكان موقف العدميين الروس من العلم موقفا وثنيا . وأصبح العلم الذى يؤخذ على انه العلوم الطبيعية أساسا ، وهى العلوم التى كانت تعرض حينذاك فى الوان مادية — أصبح العلم موضوعا للايمان ، وتحول الى صنم من الأصنام . وكان فى روسيا وقتئذ علماء أفذاذ ، يؤلفون فى ذاتهم ظاهرة خاصة . غير أن رسل الاستنارة العدميين لم يكونوا من رجال العلم ، بل كانوا من رجال الايمان ، والايمان القطعى (الدجماطيقى) . وكان شك ديكارت المنهجى يلائم هؤلاء العدميين ، بل يلائم الطبيعة الروسية بوجه عام ، وان يكن ذلك الى حد قليل . والروسى الصميم لا يستطيع أن يمضى فى الشك طويلا ، بل انه يميل الى العثور على عقيدة لنفسه بسرعة ، وأن يسلم نفسه لهذه العقيدة قلبا وقالبا . ونمط الشكاك الروسى يعد فى روسيا نمطا غريبا . وليس فى المادية الروسية شىء يمت بصلة الى نزعة الشك ، فقد كانت ايمانا .

وما برحت هناك سمة أخرى للنمط الأرثوذكسى الروسى منعكسة فى العدمية بصورة مشوهة ، واعنى بها الافتقار الى حل لمشكلة الثقافة ، وهو افتقار يرجع الى الخلقية الأرثوذكسية للعقلية الروسية . فقد كانت الأرثوذكسية الزاهدة متشككة فى ضرورة الثقافة ، اذ تميل الى اعتبار روح الثقافة الخلاقة اثما وخطيئة ، ووجد ذلك تعبيرا عنه فى الشك المؤلم الذى كان يساور كبار الكتاب الروس فى تبرير ما يقومون به من عمل أدبى . والشك الدينى والخلقى والاجتماعى فى تبرير الثقافة موضوع روسى صميم . وقد أثير الشك بيننا باستمرار عما اذا كان الابداع الفلسفى والفنى شيئا له ما يبرره . وسوف تسود مشكلة الثمن الذى تشترى به الثقافة فى الفكر الاجتماعى فى السبعينات . وكانت العدمية الروسية

انسحابا من العالم الراقد فى الشر ، وانفصالا عن الأسرة وعن كل حيـاة مستقرة ثابتة الدعائم . وتقبل الروس هـذه القطيعة بصورة أيسر مما تقبلتها الشعوب الغربيـة ، وكانوا يعدون الدولة والقانون ، والأخلاق التقليدية اثما ، لأن هذه الأشياء قد استخدمت لتبرير استعباد الانسان .

ولعـل هذه الحقيقة أبرز من أى شىء آخر ، الا وهى أن الروس حين قامت العدمية بتشكيلهم ، قد ضحوا بأنفسهم طواعيـة واختيارا ، وذهبوا بأرجلهم الى الأشغال الشاقة المؤبدة ، والى المشـانق . كانوا يجاهدون فى سـبيل المستقبل ، ولكنهم لم يكونوا يأملون فى شىء لهم أيا كان ، سواء فى هذه الحياة الدنيا او فى الحياة الأبدية التى انكروها . وهم لم يفهموا سر الصليب ، ولكنهم كانوا قادرين — قدرة تبلغ أعلى الدرجات — على التضحية وانكار الذات ، ومن هذه الناحية يمكن عقد موازنة لصالحهم ، بينهم وبين المسيحيين الذين عاصروهم ، والذين لم يظهروا استعدادا يذكر للتضحية ، وبهـذا عملوا على تنفير النـاس من المسيحية . وقـد قال تشرنيشفسكى Cherniskevsky وكان زاهدا حقيقيا فى الحياة ، أنه يدعو الى الحرية ، ولكنه لا يريد لنفسه اى نوع من الحرية أيا كان ، حتى لا يقال انه يدافع عن الحرية لغرض أنانى (١). وهذه القدرة الرائعة على التضحية فى أناس يعتنقون نظرة مادية للحيـاة شاهد على هـذه الحقيقة وهى أن العدمية ظاهرة دينية متميزة .

ولم يكن من قبيـل المصـادفة ان يلعب طـلاب المعاهد الدينيـة Seminarists وهم ابنـاء القساوسة ، وأولئك الذين اجتازوا مرحلة المدرسة الأرثوذكسية ، دورا كبيرا فى العدمية الروسية . فكان كل من دوبروليوبوف وتشرنشفسكى أبوه من كبار رجال الدين ، وتلقيا العلم فى أحد المعاهد الدينية . وكانت صفوف الانتلجنسيا « اليسارية » بيننا مليئة

---

(١) راجع الكتاب الطريف — اذا أردت ان تجمع معلومات عن تشرنشفسكى : « حب الشعب فى الستينات » The love of the people of the sixties
اكاديميا ١٩٢٩

الى حد كبير بأفراد من طبقة رجال الدين . ولهذه الحقيقة مغزى مزدوج ، فالطالب فى المدرسة اللاهوتية كان يكتسب طابعا روحيا معينا يلعب فيه الابكار الزاهد للدنيا دورا كبيرا . وفى الوقت نفسه ساد بين رجـــال هذه المدارس الدينية فى النصف الثانى من الخمسينات وبداية الستينات احتجاج عنيف ضد أرثونكسية القرن التاسع عشر المنحلة — وضد حيـــاة رجال الدين الشائنة، وضد الجـــو الرجعى الذى يحيـــط بالمدارس الاكليريكية . وبدأ رجال هذه المدارس اللاهوتية بتلك الأفكـــار عن التعليم والتى تدعو الى التحرر ، ولكنه تشبع تم على الطـــريقة الروسية ، أى بصـــورة عدمية متطرفة . ولم يكن الدور الذى قام به « بغض » الرهبان لثقافة النبلاء ، بالدور الصغير . وفى الوقت نفسه أخذ يستيقظ بين صفوف الشباب تعطش للعدالة الاجتماعية ، وكانت تعنى بالنسبة اليهم مولد المسيحية فى صـــورة جديدة . وجاء اللاهوتيون واللامنتمون الرهبان Raznochinsti معهم ببناء جديدة للشخصية ، بناء أخلاقى أقسى وأدق تطرفا ، شيدته مدرسة للحياة أقسى وأشد ايلاما من تلك المدرسة التى ترعرع فيها أعضاء النبالة المثقفون. هذا الجيل الجديد من الشباب غير نمط الثقافة الروسية . وقد كان نمط الثقـــافة فى رجال الستينات من أمثـــال دوبروليوبوف وتشرنشفســـكى والعدميين ، والانتلجنسيا الثورية الآخذة فى النمو ، منحطا نوعا ما بالقياس الى نمط الثقافة للنبلاء المثقفين فى الثلاثينات والأربعينات .. ثقافة تشادايف وايفان كيرفيسكى Ivan Kireevsky وخومياكوف وجرانوفسكى Granovsky وهرتزن . والثقافة تنمو دائما وتصل الى أشكال اكثر اتقانا فى الأوساط الأرستقراطية . وحين تصبح ديموقراطية ، وتشيع بين طبقات المجتمع الأخرى ، يهبط مستواها ، ولا تستطيع أن تعود الى الارتفاع الا فيما بعد حين يستهلك مضمونها الانسانى . وهذه العملية نفسها استمرت فى روسيا على نطاق ضيق بين الانتلجنسيا فى الستينات ، وحدثت على نطاق قومى واسع فى الثورة الروسية . وتم التعبير عن هذا التغير فى النمط الثقافى بادىء الأمر فى الموضوعات المختلفة التى يتوجه اليهـــا ، وهذا ما استبقه بلنسكى فعـــلا فى آخر مرحلة من مراحـــل تطوره ، وكان المثاليـــون فى الأربعينات معنيين بصفة رئيسية بالعلوم الانســـانية والفلسفة والفـــن

والأدب ، أما العدميون فى الستينات فانصب اهتمامهم الرئيسى على العلوم الطبيعية والاقتصاد السياسى ، وهكذا أصبحت هذه هى اهتمامات الجيل للشيوعى من الثورة الروسية ايضا .

وتعد شخصية « دوبروليوبوف » ذات اهمية عظيمة فى فهم نشأة العدمية الروسية بمعناها الواسع ، وفى فهم الروح الثورية الروسية فى الستينات ، ففيه نرى نوع الروح الذى ولدت فيه الأفكار العدمية والثورية ، وهو نوع الروح الذى يصنع منه القديسون ، وهذا القول يمكن أن يقال عن دوبروليوبوف وتشرنشفسكى على السواء . وقد خلف « دوبروليوبوف » وراءه « يوميات » يصف فيها طفولته وصباه ، وكانت نشأته دينية أرثوذكسية خالصة . وكان شديد التدين فى طفولته وأوائل صباه . ونفسه من تلك النفوس الميالة الى الزهد ، وفيه احساس قوى بالخطيئة ، يميل الى الاعتراف فى كثير من الأحيان وكانت أتفه الخطايا تؤلمه ، فلم يكن يستطيع أن يغفر لنفسه انه أكل كثيرا من المربى ، او نام فترة طويلة ، وما الى ذلك . وكان شديد الاخلاص ، يحب والديه حبا مفعما بالحنان ، وخاصة أمه ، التى لم يصدق وفاتها قط . وكان دوبروليوبوف رجلا طاهرا ، صارما ، وجادا لا تشوبه أية شائبة من الخفة التى كانت تضفى سحرا خاصا على النبلاء المثقفين . ولم تلبث هذه الروح المخلصة الزاهدة الجادة الى درجة الفظاظة ، أن فقدت ايمانها ، نفورا من الشر والظلم وآلام الحياة ، اذ لم يستطع أن يتقبل حقيقة وجود خالق خير قادر لهذا العالم الشرير الملىء بالظلم والعذاب . هنا تتضح نغمة ماركيون Marcion الهدامة ، والواقع أن « دوبروليوبوف » قد خرج عن صوابه بوفاة أمه الحبيبة .

ولم يستطع ان يتقبل ايضا انحطاط مستوى الحياة التى يحياها رجال الدين الروس ، وافتقارها الى الروحانية ، وغموضها ، وانعدام أى تطبيق فيها للمسيحية على الحياة . واحس بنفسه محوطا « بمملكة الظلام » وعنوان مقالته الرئيسية التى كتبها عن أوستروفسكى هو : «شعاع من النور فى ملكوت الظلام » .. وعلى الانسان نفسه أن يحمل النور

الى ملكوت الظلام ، وما نحتــاج اليه هو الاستنارة ، والتغير الثورى فى نظام الحياة بأسره . وكان دوبروليوبوف ناقدا ، يكتب عن الأدب ، ولم يصل الى تلك الحدود المتطرفة التى وصل اليها بيسارف فى رفضه للجماليات ، ومع ذلك كانت الجماليات بالنسبة اليه ترفا ، وعلى أساس الزهد ، رفض ذلك الترف السطحى للجماليات . وكان يصبو الى تحقيق السعادة فى هذه الدنيا للانسان ، وبعد أن فقد ايمانه ، لم يعرف للحياة غرضا سواه بيــد أنه لم يذق هو نفسه طعما للسعادة ، وكانت حياته خالية من البهجة ، ومات بداء السل ولمــا يزل شابا ، كما لا يستطيع المرء أن يتخيل العدمية الروسية الا بوصفها حركة الشباب ، فهى عند الشيوخ ذات طابع منفر .

أما « تشرنشفسكى » فلم يسيطر على فكر الانتلجنسيا المتطرفة فى الستينات فحسب ، بل وسيطر أيضا على فكر الأجيال التالية . واسهمت الهالة التى أحاطت باسمه عقب الحكم عليــه بالأشغال الشاقة اسهاما كبيرا فى شعبيته ، فقــد اتهم بنشر بيانات تحض الفــلاحين على الثورة وسيقت الأسانيد المزيفة والشهادات الزور لتأييد الاتهــام ، فحكم عليه بالأشغال الشاقة سبع سنوات ، وقضى عقب ذلك اثنتى عشرة سنة فى سيبريا الشرقية فى ظروف بالغة القسوة ، وتحمل سيبريا والأشغال الشاقة كما يتحملها زاهد أصيل . كان تشرنشفسكى شخصا وديعا كل الوداعة ، يتصف بروح مسيحية ، ويتميز بأمارات من القداسة فى شخصيته .(١) ، وكان هذا الاضطهاد الذى عاناه من أسوأ الأعمال التى اقترفتها الحكومة الروسية فى ظل العهد القديم وأدعاها الى الخجل . وكان تشرنشفسكى — شأنه فى ذلك شأن دوبروليوبوف — ابنا لأحد كبار رجال الدين ، ومن ثم كان تعليمه المبكر لاهوتيا ، ونشأ فى دير للرهبان ، وكان واسع الاطلاع ، موسوعى المعرفة ، يحيط باللاهوت والفلسفة بل وبفلسفة هيجل ، وعلى معرفة بالتاريخ والعلوم الطبيعية ، بيد أنه كان عالمــا بالاقتصاد فى المقام الأول ، وقد أحله ماركس — بوصفه اقتصاديا — فى مرتبة رفيعة . وكان على مواهب يمكن أن تجعله متخصصا ، واذا لم تكن هذه المواهب قد جعلته متخصصا بالفعل ، فذلك لأنه كان مهتمــا بالصراع الدائر فى مجال الأفكار

---

(١) المرجع السابق ص ٦١ (حب الشعب فى الستينات) .

الاجتماعية. ومع ذلك كان من العاكفين على الكتب ، ولا يبدو عليه انه ذو طبيعة متحمسة ، وكان يؤلف الروايات ذات الهدف الأخلاقى ، ولكنه لم يكن يملك موهبة خاصة فى الأدب . وعلى الرغم من غزارة علم تشرنشفسكى لم يكن من رجال الثقافة الرفيعة ، بل ان مستواه الثقافى كان منخفضا نوعا ما اذا قيس بالمستوى الثقافى فى الأربعينات ، اذ كانت ثقافته تفتقر الى الذوق ، نظرا لتأثير الرهبان واللامنتمين .

وكان تشرنشفسكى من أصحاب النزعة العقلية Rationalist وتلميذا لفويرباخ ، وفى الوقت نفسه كان مثله الأعلى يتعلق بالحياة فى هذه الدنيا ، مثله فى ذلك مثل دوبروليوبوف وأفضل ممثلى الانتلجنسيا الثورية والعدمية . وكان جانب الزهد فيه قويا أيضا ، ونتيجة لزهده اعتنق المادية المتطرفة التى كانت — من الوجهة الفلسفية ، ساذجة تبعث على الرثاء ، ونتيجة لاحساسه الأخلاقى وحبه للخير ، اكد الأخلاق النفعية التى تدعو اليها الأنانية العقلانية . وقد كان الدافع الأخلاقى قويا دائما بين العدميين ، وان رفضوا من الوجهة النظرية الأخلاقيات جميعا . وكانت المثالية ، والميتافيزيقا الروحية والدين ترتبط فى أذهانهم بالمادية العملية وبالظلم الاجتماعى ، وزودتهم المسيحية بالأسس الكافية التى يقيمون عليها هذه النظرة . أما أولئك الذين كانوا يعلنون أنهم يعتنقون نظرة مثالية وروحية ، فغالبا ما كانوا يخفون وراء التعبير عن الأفكار السامية احط انواع المصلحة الذاتية . ومن ثم راحوا لحساب مثالية حيوية ومن أجل تحقيق العدل الاجتماعى يؤكدون مادية وعقيدة نفعية ساذجتين وينبذون جميع الأفكار السامية والبلاغة الخطابية .

وقد كتب تشرنشفسكى رواية طوباوية سماها : « ماذا ينبغى عمله ؟ » أصبحت نوعا من كتب العبادة لدى العدمية الروسية ، ومرجعا للانتلجنسيا الثورية الروسية . وهذه الرواية ضعيفة لا طعم لها من وجهة النظر الفنية ، ولكن لها أهميتها الكبرى من وجهة نظر تاريخ الانتلجنسيا

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦١ (حب الشعب فى الستينات) .

الروسية . وكانت الهجمات التى سددت اليها على أسس أخلاقيـــة من الجناح اليمينى ، جائرة وزائفة بصورة تصل الى حد التشهير الشنيع . وكان بوخاريف Bukharev اللاهوتى الروسى الشهير ، على حق فى ادراكه لطابعها المسيحى . « ماذا ينبغى عمله ؟ » كتاب فى الزهد ومرجع يهتدى به العدميون الروس فى حياتهم . وفى هذه الرواية ينام البطل رخميتوف رخميتوف Rakhmetov على المسامير لكى يقوى من شخصيته ، ويدرب نفسه على تحمل العـــذاب . ولا تعنى الدعوة الى حرية الحب دعوة الى الانحلال ، وهى شىء انتشر فى صفوف الطبقات الحاكمة المحافظة بالذات من قبيل ضباط الحرس ومن على شاكلتهم ، ولكنه لم ينتشر بين العدميين ، ممن كانوا من رجال الفكر . هذه الدعوة كانت تعنى طلب الاخلاص فى العاطفة ، والتحرر من جميع التقاليـــد ، ومن الأكاذيب والكتب . وما من شك أن أخلاق « تشرنشفسكى » تسمو كثيرا على « أخلاق العبيـــد » التى كان يدعو اليهـــا الـ « دوموستروى » Domostroi ويصـــور لنـــا حلم « فيرابافلوفنا » فى هذه الرواية جمهورية طوباوية اشتراكية ، يتم فيها تنظيم المصانع تنظيما تعاونيا ، كانت اشتراكية تشرنشفسكى — أكثر من أى اشتراكية أخرى غيرها ، ما تزال تجمع بين الطابع الشعبى والطابع الطوباوى — ولكنها كانت فعلا من أسلاف شيوعية الستينات . ويعترف بليخانوف Plekhanov مؤسس المـــاركسية الروسية بهذا فى كتابه عن تشرنشفسكى .(١) وهذا هو السبب الذى من أجله درس ماركس اللغة الروسية حتى يتسنى له قراءة مؤلفات تشرنشفسكى .

كان تشرنشفسكى — بوصفه اقتصاديا — اشد اصالة ، ولم يكن — مثل كثير غيره من الشعبيين — خصما للتطور الصناعى ، ولكنه يعرض المشكلة التقليدية التى واجهت الفكر الروسى فى القرن التاسع عشر : هل تستطيع روسيا أن تنجو من التطور الرأسمالى ؟ ويجيب على ذلك بقوله أن روسيا تستطيع أن تختصر المرحلة الرأسمالية الى لا شىء ، وأن تنتقل

---

(١) ج. بليخانوف « ن. ج. تشرنشفسكى » .

راسا من الأشكال الاقتصادية الدنيا الى الاقتصاد الاشتراكى ، وهـذا ما يحـاول الشيوعيون أن يفعلوه تمـاما ، برغم ماركسيتهم . ويقيـم تشرنشفسكى تعارضا بين الثروة القومية والرفاهية الشعبية وهو الأمر الذى كان يميز الاشتراكية الشعبية ، اذ فى البلاد الراسمالية تزيد الثروة القومية وتتناقص الرفاهية الشعبية ، ويدافع تشرنشفسكى عن « كوميون » الفلاحين ، ويقرر أن المرحلة الاشتراكية الثالثة والعليا من التطور سوف تشابه المرحلة الأولى السفلى . والواقع أن تشرنشفسكى — وهو فى هذا يشبه هرتزن وميخايلوفسكى فيما بعد — يجعل مصالح الشعب متماثلة مع مصالح الشخصية الانسانية بوجه عام . ومن بين اولئك الذين كانوا يؤلفون الكتب ويسمح لهم القـانون بنشرها ، كان تشرنشفسكى أوضح الاشتراكيين تعبيرا ، وهو ما يشهد بأهميتـه بالنسبة الى الانتلجنسيا الروسية التى كانت — من حيث وعيها الأخلاقى — اشتراكية قلبا وقالبا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . أما العدمية من طراز بيسارف فكانت اضعافا للنغمة الاشتراكية ، ولكنها كانت ظاهـرة مؤقتة . وكان موقف تشرنشفسكى الفلسفى ضعيفا بوجه خاص ، على الرغم من أنه قد استمده من مفكر جدير بالاعجاب كفويرباخ ، ومع ذلك كانت ماديته مبتذلة ، ومصطبغة بصبغة كتب العلم الطبيعى الشـعبية المنتشرة فى عصره ، بل انها لأشد ابتذالا من مادية المـاركسيين الجدلية .

وكتب « تشرنشفسكى » عن المسائل الجمالية أيضـا ، وكان ممثـلا نموذجيا للنقد الصحفى الروسى . وقد دافع عن القضية القـائلة بأن الواقع أعلى من الفن ، وأراد ان يشيد علم جمال واقعيـا ، وفى هـذا العداء للنزعة الجمالية كان تشرنشفسكى مدفوعا بدافع قوى من الزهد ، اذ كان يبحث فعلا عن ذلك النمط الثقافى الذى انتصر فى الشيوعية — وان يكن ذلك بصورة هزلية (كاريكاتورية) فى معظم الأحيان — كمـا كان يسعى الى سيطرة العلوم الطبيعية والاقتصادية ، والى رفض الدين والميتافيزيقا ، والى تبعية الأدب والفن للأهداف الاجتماعية ، والى اقامة أخلاق للنفعيـة الاجتماعية ، والى اخضاع حياة الفرد الداخلية لمتطلبات

المجتمع . وكان فى زهد تشر نشفسكى وفى الفضائل المسيحية العملية لهذا « المـــادى » منحة كبيرة من رأس المـــال الأخلاقى يعيش عليها الشهوعيون، على الرغم من أنهم لا يملكون هم أنفسهم هـــذه الفضائل .

وعلى نقيض تشرنشفسكى ودوبروليوبوف ، كان بيسارف الداعيـــة الأساسى للعدمية بمعناها الصحيح ارستقراطيا من النبلاء ، وكان شـــابا أنيقا وسيما مهذبا فى تصرفاته التى كانت أبعـــد ما تكون عن العدمية . وهذا « المحطم للجمـــال » كان ذا ذوق جمـــالى ، أما من حيث هو كاتب فكانت موهبتـــه أعظم من تشرنشفسكى ودوبروليوبوف . وكان مصـــيره مصيرا روسيا صميما ، فقـــد ألقى القبض عليـــه لأسباب تافهة ، وقضى أربع سنوات فى السجن فى زنزانة منفردة ، وفيها كتب معظم مقـــالاته . ومات عقب اطلاق سراحه بقليل ، وهو فى عنفوان شبابه ، اذ غرق نتيجة لحادث تعس ، ولمـــا كان « بيسارف » ينحدر من جيل أنبياء الاستنارة فى الستينات ، فقـــد كان فردى النزعة الى حد بعيد ، وكان اهتمامه بالمشكلات الاجتماعية أضعف منه عند تشرنشفسكى ، ولكن اهتمامه الرئيسى انصب على خلاص الشخص بصفته الفردية وتحريره من الخرافة والتحيز ، ومن أواصر الأسرة ، ومن الأخلاق التقليدية والقواعد المرعية فى الحياة . وتحتل الحرية العقلية مركزا رئيسيا بالنسبة اليه ، وكان يأمل فى الوصول اليها عن طريق انتشار العلم الطبيعى بين طبقات الشعب . وكان يبشر بالمـــادية التى اقتنع فى سذاجة انهـــا تحرر الشخصية ، وذلك برغم انكارها للشخصية فى الوقت نفسه . فاذا كانت الشخصية من انتـــاج البيئة تماما ، فانهـــا فى هذه الحالة لا يمكن أن تمتلك حرية واستقلالا من أى نوع .

أراد بيسارف أن ينشىء نمطا جديدا للكائن الانســـانى ، وبهذا كان معنيـــا غناية تفوق اهتمامه بتنظيم المجتمع ، وهذا النمط الانسانى الجديد أطلق عليه اسم « الواقعى المفكر » ، ذلك أن الجيل الواقعى من « الأبناء » خرج « التافهون » . أما نمط «الواقعى المفكر» الذى كان يبشر به «بيسارف» يقف موقف المعارضة الشديدة من الجيل المثالى من «الآباء» : ونمطه هذا عن « الواقعى المفكر » سبق بيسارف النمط الذى انشأته الشيوعية الروسية ،

الى حد بعيد . وقد رسم تورجنيف عددا من هـــذه الملامح التى يتصف بهـــا « الواقعى المفكر » فى شخصية « بوزاروف » (فى رواية الآباء والأبناء) ، وان لم يظفر فى ذلك بأى نجاح خاص . وكان النمط الانســـانى المعروف « بالنمط المثالى فى الأربعينات » وهو النمط السائد بين صفوف الانتلجنسيا الروسية قبل ظهور النزعة العدمية . وكان هذا النمط استمرارا للنمط الذى ينتسب لنهـــاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، كمـــا كان مرتبطا بحركة الماسونية الصوفية Mystical masonry وكانت نتيجة لتأثر الفكر الروسى بالرومانسية والمثالية الألمـــانيتين . وهـــذا النمط من الانسان وهو نمط محترم جدا ، كان شغوفا بالتطلعات السامية وبتذوق الجمال والفن الرفيع ولكنه لم يلبث — كمـــا كان يطيب لدوستويفسكى أن يلاحظ فى شىء من السخرية — لم يلبث أن استسلم فيما بعد لأحلام اليقظة ، وضعفت قدرته على الفعل واخراج افكاره الى حيز الواقع ، وانتقلت اليه عدوى الكسل الروسى الذى عرفت به طبقة الأعيـــان . ومن هـــذا النمط خرج « التافهون ».أما نمط « الواقعى المفكر » الذى كان يبشر به «بيسارف» فيتسم بملامح اخرى مختلفة تمـــام الاختلاف ، ملامح تولدت فى معظـــم الأحيان كرد فعل ضـــد النمط المثالى ، « فالواقعى المفكر » غريب عن أحلام اليقظة والرومانتيكية جميعـــا ، وعدو للأفكار السامية التى لا تمت بصلة الى الفعل والتى لا تخرج الى حيز التنفيذ ، ويميل الى أن يكون شرسا حين يتعلق الأمر باماطة اللثـــام عن الأوهام سواء أكانت دينية ، ميتافيزيقية أم جمالية . وعقيدته عقيدة عمل وكدح ، وهو لايعترف الا بالعلوم الطبيعية ، ويزدرى الانسانيات ، ويبشر بأخـــلاق الأنانية العاقلة ، لا لأنه كان أشد أنانية من النمط المثالى (بل العكس هو الصحيح) ولكن لأنه يريد فضح الأفكار السامية الخادعة التى تخفى وراءها أحط المصالح ، فضحا لا رحمة فيـــه .

غير أن مستوى الثقافة الفلسفية عند « الواقعيين المفكرين » كان منحطا ، أحط من مستوى « مثاليى الأربعينات » فقد أخذ بوخنر Buchner وموليشوت Moleshottوكانا عارضين لأشد المذاهب المـــادية ابتذالا ،

وهى المذاهب المؤسسة على تبسيط العلم الطبيعى فى عصرهما ــ على انهما فيلسوفان ممتازان ، وأصبحا من المعلمين . وهذا سقوط شنيع بعد فويرباخ ، ولا أقول هيجل . لقد شرع « الواقعيون المفكرون » يبحثون عن حل لسر الحياة والوجــود فى تشريح ضفدعة ! ومن هؤلاء « الواقعيين المفكــرين » الذين ظهروا فى الستينات ، صدر هــذا الاستدلال البــاطل الذى انتشر بين الانتلجنسيا الروسية المتطرفة ، والذى يقول أن تشريح جثة لا يكشف عن وجود روح فى الانسان . ولقد فاتت النتيجة العكسية لهــذا الاستدلال على ملاحظتهم ، فلو أنهم أخرجوا الروح الى النور بتشريح جثة ما ، فسوف يكون هــذا دليلا فى صالح المــادية . والحــق أن ثمــة تناقض كبير بين الأزمة الانسانية ودلالتها عند « الواقعيين المفكرين » وبين تفاهة فلسفتهم ، وماديتهم ونفعيتهم الساذجتين المبتذلتين .

وكان « الواقعى المفكــر » ــ بطبيعة الحال ــ عدوا للجماليــات ، وينكر أهمية الفن المستقلة . وفى هذا المجال كان يتطلب نزعة جماليــة صــارمة ، أما بيسارف فقــد أغتال « الجماليــات » اغتيــالا مدبرا ، فأنكــر انجــازات بوشــكين الرائعــة ، واقترح أن يكتب الروائيــون الروس مقالات شعبية عن العلم الطبيعى . وربمــا كان البرنامج الثقافى الذى وضعه الشيوعيون ، أشد تعقلا فى هذا المجال ، اذ يقترح دراسة بوشكين ، ويخلع شيئا من المعنى على الفن . والمــادية الجدلية أقل ابتذالا من مادية بوخنر وموليشوت . بيد أن المعرفة التكنيكية تلعب بين الشيوعيين الدور نفسه الذى لعبه العلم الطبيعى ــ وخاصة العلوم البيولوجية فى الستينات . وتعلن عدمية « بيسارف » أن « الأحذية فوق شكسبير » وفكرة تبعية الفن والأدب للأهداف الاجتماعية قد قررها مذهب بيسارف بصورة أشد تطرفا منها فى الشيوعية . ولو أن برنامج العدمية الروســية تحقق بأكمله فعلا فى الشيوعية الروســية ، اذن لكانت النتائج بالنسبة للثقافة أشد تخريبا عمــا نراه فعلا فى الثقافة السوفينية . وكان ظهور «الواقعى المفكر » معناه ظهور نمط أشد غلظة من « مثالى أربعينات » وأن يكن فى الوقت نفسه نمطا أكثر نشاطا . بيد أننا نلمس فى عدمية بيسارف رد فعل

صحيا ضد أحلام اليقظة الرومانتيكية التى لاغناء فيها وضد الاستغراق العامل الأنانى فى الذات ، فهى دعوة سليمة الى العمــل والمعرفة ، وان تكن معرفة مقصورة على جانب واحد . لقــد كان فى العدمية قوة تعمل على التحرر ، بسيطة نشطة ، ولهذه الحركة أهمية ايجابية واسعة المــدى فى تحرير المرأة ، وقد حدثت عملية مماثلة بيننــا نحن الروس فى التحول من نمط الشخص الذى خلق النهضة الثقافية فى مطلع القرن العشرين — واعنى بهــا الحركة « المثالية » فى ذلك العصر — الى الشيوعى الروسى .

لم يلحظ دعاة العدمية التناقض الأساسى الذى يكمن فى جذور تطلعاتهم. فقد كانوا يسعون الى تحرير الشخصية ، ومن أجل هــذا التحرر اعلنوا التمرد على المعتقدات كافة ، وعلى الأفكار المجردة جميعا ، وفى سبيل تحرير الشخصية جردوا هــذه الشخصية من مضمونهــا الكيفى وخربوا حياتهــا الباطنية ، وانكروا عليها حقها فى الابداع ، والاثراء الروحى . ومبــدأ النفعيــة لا يتناسب مطلقا مع مبــدأ الشخصية ، فهو يخضع الشخصية للمنفعة التى تتسلط مستبدة بالشخصية . وقد أظهرت العدمية فى فكرها ونشاطها الخلاق زهدا عنيفا يقحم من الخارج . وكانت المــادية هى هذا الزهد المتطفل ، والفقر فى التفكير . اذ لا يستطيع مبدأ الشخصية أن يصمد وينمو فى تربة المــادية . والشخصية — كما تصورها العدميون — قد وجد انهــا محرومة من حق الاكتمال المبدع للحياة ، ولو أن « بيسارف » الموهوب طال به العمر حتى ينضج تفكيره لربمــا لاحظ هــذا التناقض الجوهرى ، وربما فهم أن المرء لا يستطيع أن يحارب فى سبيل الشخصية على أساس اعتقاده « فى الضفدعة » . والواقع أن اتجاهات السبعينات قد هذبت من حواشى النزعة العدمية التى ظهرت فى الستينات . ولم يكن التــأثير الرئيسى على تفكير الانتلجنسيا المتطرفة فى السبعينات هو تأثير بوخنروموليشوت ، بل كان تأثير كونت Comte وهربرت سبنسر Herbert Spencer وتحول الاتجاه من المــادية الى الوضعية ، وهذا التحول رد فعل ضد سيطرة العلم الطبيعى . واسترد علم الجمــال حقوقه الى حد ما ، ولم يعــد ثمة انكار للفن . بيــد أن فكرة اخضاع الفن للأهداف الاجتماعية ظلت مسيطرة على عقول الانتلجنسيا .

الفصل الثالث

الشعبية والفوضية الروسيتان

الشعبية Narodnichestvo ظاهرة روسية مميزة ، شأنها شأ
العدمية أو الفوضوية . كان السلافوفيل وهرتزن ، ودوستويفسكى وباكونين
وليوتولستوى ، وثوريو السبعينات ، جميعا شعبيين ، وان اختلفت
تلك طرائقهم . والشعبية هى فوق كل شىء ايمان بالشعب الروسى
وينبغى أن نفهم بالشعب الشعب البسيط الكادح ، وخاصة الفلاحين
وليس الشعب هو الأمة . وقد كان الشعبيون على اختلاف مشارب
يعتقدون أن سر الحياة الحية مستقر فى الشعب ، وهو سر محتج
عن الطبقات الحاكمة المثقفة ، والوعى بالهوة القائمة بين الانتلجنس
والشعب جوهرى فى نظر الشعبيين . ولم تكن فئة الشعبيين من الانتلجنس
تشعر بأنها جزء عضوى من الشعب ، والشعب يوجد خارج هذه الفئ
كما لم تكن الانتلجنسيا وظيفة من وظائف حياة الشعب ، بل انه
انفصلت عن هذه الحياة ، ولهذا تشعر بالذنب فى علاقتها بهذا الشعب

هذا الشعور بالذنب لعب دورا هاما فى نفسية الشعبيين
فالانتلجنسيا مدينة للشعب دائما ، وعليها أن ترد هذا الدين ، وكا
الثقافة التى قبلتها الانتلجنسيا قائمة على حساب الشعب ، وعلى حس
كدح الشعب ، وقد القى هذا مسئولية ثقيلة على هؤلاء الذين شاركوا
هذه الثقافة. وكان « الشعبيون » الدينيون ، (السلافوفيل ودوستويفس
وتولستوى) يعتقدون أن الحقيقة الدينية كامنة فى الشعب ، وهؤلاء الذ
لم يكونوا دينيين ، بل ضد الدين فى أغلب الأحيان (هرتزن وباكونين
والاشتراكيون « الشعبيون » فى السبعينات) كانوا يعتقدون أن الحق
الاجتماعية كامنة فى الشعب . والانسان الحقيقى ، الانسان الذى لم يسد
الاحساس بالذنب ، وبخطيئة استغلال اخوته من البشر ، هو الانسان الكاد

الانسان الذى ينتمى الى الشعب . والثقافة من أجل الثقافة ليست مبررا للحياة ، ولكنها تشترى بثمن فادح هو استعباد الشعب ، ولم تكن النزعة الشعبية معادية للثقافة فى كثير من الأحيان ، ولكنها على اية حال تمردت على تبجيلها . أما الشعبيون من نمط السلافوفيل الدينى فقد رأوا أن الذنب الرئيسى للطبقة المثقفة العليا هو انفصالها عن معتقدات الشعب الدينية ، وعن حياة الشعب ، وكانت للحركة الشعبية من النمط الاشتراكى اهمية اعظم بكثير ، لانها رأت خطيئة الطبقات المثقفة فى أن حياتها وثقافتها تقومان على استغلال عمل الشعب .

لم يكن للطبقة المثقفة المفكرة فى روسيا سوى احساس ضعيف بقيمتها ، ورسالتها الثقافية الخاصة . وكانت العبقرية الروسية فى ذروة طريقها الخلاق على بينة تماما بعزلتها وانفصالها عن الأرض ، وخطيئتها ، ولهذا كانت تحط من نفسها حتى تتوغل فى الاتصال بالأرض وبالشعب . وعلى هذه الصورة كان تولستوى ودوستويفسكى . ويا له من فرق فى هذا المجال بين تولستوى ونيتشه ! وللنظرة العامة للحياة عند الشعبيين طعم التربة — وهى ترتكز على الأرض . ويقول جلب اوسبنسكى Gleb Uspensky ذلك الشعبى الممتاز : ان الشعب يحيا تحت سطوة الأرض. أما الشعبيون من الانتلجنسيا فقد انفصلوا — من ناحية أخرى — عن الأرض ، ولكنهم يرغبون فى العودة اليها . والنظرة « الشعبية » الى الأشياء لا تصلح الا فى بلد زراعى فلاحى ، والنظرة العامة للشعب جماعية Collective وليست فردية ، والشعب كل جماعى ، وبهذا الكل تريد الانتلجنسيا أن تتحد ، وان تدخل فى حياته .

والنزعة « الشعبية » الروسية وليدة التصدع الذى حدث فى عصر بطرس ، وهى نتيجة لوعى الانتلجنسيا بأن حياتهم لا يمكن تبريرها ، وبأنها عبث ، ونتاج للطبيعة اللا عضوية لتنظيم الحياة الروسية بوصفها كلا . وما من شعب واحد فى الغرب قد عانى مثل هذا الشعور بالندم كما شعر به الروس ممثلين فى طبقاتهم المتمتعة بالامتيازات .

وهكذا ظهر النمط الفريد « للنبيل النادم » الى الوجود ، وهذا النمط فى وعى بخطيئته الاجتماعية لا الفردية — خطيئة مركزه الاجتماعى ، التى يندم عليها . وقد ميز «ن. ميخايلوفسكى» N. Mikhailovsky عالم الاجتماع الشعبى الذى عاش فى السبعينات ، بين عمل الضمير ، وعمل الشرف . عمل الضمير موجود بين الطبقات المميزة كطبقة النبلاء ، أما عمل الشرف ، وطلب الاعتراف بالقيمة الانسانية فموجود بين صفوف الشعب بين الطبقات السفلى المضطهدة . والشعبيون من الطبقة العليا كانت تحركهم خاصة دوافع الضمير ، أما الشعبيون من الطبقة الأدنى فتحركهم دوافع الشرف . وكان النفور من البورجوازية والخوف من نمو الرأسمالية سمتين مميزتين للشعب الروسى ، ويعتقد الشعبيون فى طريق خاص لتطور روسيا ، وفى امكان الافلات من الرأسمالية الغربية ، كما يؤمنون بأن الشعب الروسى قد خلق لحل المشكلة الاجتماعية حلا أفضل وأسرع من الغرب . ويتفق الشعبيون الثوريون مع السلافوفيل فى هذه النقطة ، وهذا الاعتقاد مستمد من هرتزن . ومن الحجج الرئيسية المؤيدة للاشتراكية الشعبية هذه الحقيقة وهى أن التصور الرومانى للملكية كان غريبا دائما عن الشعب الروسى ، وكانت الطبيعة المطلقة للملكية الخاصة موضع انكاره دائما . والمهم فى نظر العقل الروسى ليس هو موقف المرء من مبدأ الملكية ، بل موقفه من الانسان الحى ، وهذا — بلا ريب — هو الموقف المسيحى .

ومن المهم أيضا أن نذكر أن الانتلجنسيا الروسية كانت تتميز عن « المثقفين » الغربيين — لا من الوجهة الروحية فحسب ، بل ومن حيث المركز الاجتماعى أيضا . والمثقفون الغربيون — من الناحية الاجتماعية — بورجوازيون ، وينتمون من الناحية الموضوعية — الى الطبقة المتميزة الموسرة. وهذا راجع الى ظروف التعليم العالى فى الغرب. أما الانتلجنسيا الروسية فهى فى معظمها بروليتارية ، وليست بورجوازية بالمعنى الاجتماعى للكلمة . وبعد الستينات ، وحتى حين ظلت الانتلجنسيا طبقة عليا ، كانت فى الغالبية العظمى من الحالات طبقة فقيرة عاملة عليا .

وكانت أنتلجنسيا الطبقة الأدنى لاتملك وسيلة للعيش ، الا باعطاء الدروس الرخيصة ، أو بالكتابة ، فهى مرغمة على أن تعيش على الكفاف .واقتصار التعليم الجامعى فى روسيا على الأغنياء كان اقل كثيرا عنه فى الغرب . وهـــذا يفسر الى حد ما تعاطف الانتلجنسيا الروسية مع الاشتراكية ، ومع الطـــابع غير البورجوازى فى ايديولوجيتها . غير أن اشـــتراكية الانتلجنسيا فى القرن التاسع عشر كانت ذات طابع تسود فيـــه الرؤية. ولم يوجد فى أى مكان فى الغرب مثل ذلك الشكل الفريد لمشكلة «الانتلجنسيا والشعب » وهى المشـــكلة التى كرس لها الفكـــر الروسى كله فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، اذ لم يوجد فى الغرب انتلجنسيا أو شعب بالمعنى الروسى . وقد كان الشعبيون جميعا يمجدون طريقة الفلاحين فى الحيـــاة ، وكان « الكوميون » الفلاحى يبدو لهم نتاجا أصيـــلا للتاريخ الروسى ، بل هو النمط المثالى أو — على حد تعبير ن. ميخائلوفسكى — النمط الأعلى فى مستوى منخفض من التطور ، بيـــد أنه لا ينبغى أن نعلق أهمية عظمى على النظرية (الشعبية) عن الكوميون ، اذ لم تكن سوى انعكاس لظروف الحيـــاة الروسية . ان المغزى الكبير يتعلق بالجانب الاخلاقى والروحى من النزعة الشعبية ، فالشيوعية الروسية وان اعتنقت مذهبا يناقض النزعة الشعبية ، امتزجت بها عناصر قوية من « الشعبية » الثورية الروســـية.

وكان مطلع الستينات هو عصر الاصلاحات التحررية ، عصر تحرير الفلاحين ، وتأسيس الجمعيات الانتخابية الاقليمية « الزمستفو » Zemstvo وأعقبت هـــذه الفترة عدة اعوام من الانسجام العظيم ، اذ تصـــالحت الانتلجنسيا اليسارية مع الحكومة ، وبدأت استعدادها للاشـــتراك فى تحقيق الاصلاحات التى نبعت من أعلى ، فكتب هرتزن ، بل وتشرنشفسكى أيضا مقالات تفيض بالثناء على الاصلاحات الزراعية التى قام بها الاسكندر الثـــانى ، وكانا على استعداد لتأييد الحكومة فى هذه المسألة . فها هو ذا حلم الانتلجنسيا عن حرية الفلاحين يصبح حقيقة واقعية .. بيـــد أن هـــذا الاتجاه المشرق لم يلبث غير فترة قصـــيرة ، وبدا يظهر من أعلى

اتجاه رجعي ، ومن أسفل اتجاه ثوري ، وأخذ الجـو يتوتر شيئا فشيئا ففي البلاط وبين النبلاء الذين عانوا من تحـرير الفلاحين ، ظهر اتجاه رجعي معاد للاصلاحات ، ولم يلبث أن انتصر الاتجاه المـألوف القـائم على اضطهاد الانتلجنسيا . وبدأ يسيطر على الطبقات الحاكمة شعور من الفزع وهو الشعور الذي يتسلط دائمـا على السلطـات الروسـية نتيجـة تصدع الحياة الروسية ، وللطابع اللا عضوي للدولة الروسية . وبدأت حركة ثورية وجدت متنفسا عنهـا في الأعمال الارهابية ضـد الاسكندر الثاني . وتنبه الاتجاه الرجعي للطبقات الحـاكمة ، بمصالحها وعواطفها على السواء ، ووجد هـذا كله متنفسا في أعمـال القمع التي تسببت بدورها في اثارة المزاج والنشاط الثوريين ، وهـكذا أخذت الأمور تدور في حلقة مفرغة .

لم تكن الأعمال الثورية لتستطيع تغيير نظام المجتمع ، اذ ما زالت الغالبية العظمى من الشعب تؤمن بالطابع المقدس للأوتوقراطية (الحكم المطلق) . ولم تكن الانتلجنسيا تدرك ادراكا واضحا أن من المحـال على الملكية الروسية الاحتفاظ بمركزها بالعنف وحده ، وأنهـا تستنـد على معتقـدات الشعب الدينيـة . لقد تحـرر الفلاحون ، ووزعت عليهم الأراضي . أما الذين طالبوا بتحـرير الفلاحين دون تزويدهم بالأرض ، أي تحويلهم الى بروليتاريا ، فقد انهزموا هزيمة واضحة . ولكن الفلاحين برغم تملكهم الشطر الاكبر من الأرض ، ظلوا بلا تنظيم ، ودون احساس بالرضى . وكان مستوى المهارة الزراعية منحطا وفي مراحلة بدائيـة ، ولم يكن للفلاحين من الأرض ما يكفي لمعيشتهم ، وما برح النظام الطبقي قائما ، وما زال الفلاح — بوصفه انسانا — في حالة من الذل والهوان ، وما فتئت روسيا دولة أرستقراطية ، ولم يتم الغاء الاقطاع الغاء تاما الا بثورة ١٩١٧ . وكان كبار الملاك الذين يملكون الضياع الشاسعـة باقين ، وآداب السلوك والأخلاق اقطاعية ، وبرغم ما انطوى عليـه الاصلاح من مغزى هائل كان الجميع ساخطين . وبعد تحرير الفلاحين اتجهت « الشعبية » الثورية ، وأعني بها الاشتراكية الزراعية ، الى أهداف

أخرى . وبدأت الصناعة الرأسمالية تتطور فى الروسيا على نطاق ضيق ، وبدات البورجوازية فى النمـو ، وتحول الفلاحـون الموسرون فى القرى الى طبقة بورجوازية . وزادت حدة المشـكلة المتعلقة بمـا اذا كان فى امكان الروسـيا ان تتحاشى المرحلة الرأسمالية .

ولعـل شخصية « نيتشايف » Nechaev الروسية الصميمة ، بصرامتها وجهامتها من الشخصيات ذات الاهمية الخاصة ، فى ارتباطها بالاتجاهات المكسيمالية Maximalist المتطرفة التى سـادت فى اواخر الستينات . كان نيتشايف مؤسس الجمعية الثورية المسماة « المحور أو عدالة الشعب » ووضع كتاب « التعاليم الثورية » Revolutionary Catechism وهو وثيقة ذات أهميةغير عادية ، وفريدة فى نوعها . فى هـذه الوثيقـة يمكن أن تجد التعبير المتطرف عن مبـادىء الزهد الثورى الالحادى ، وهى القواعد التى يجب أن يهتدى بها الثورى الحق ، ودستور حياته الروحية. ويذكرنا كتاب نيتشايف بالزهد الأرثوذكسى وقد انعكس وامتزج بالجزويتية، وان يكن ذلك بصورة أشد تجهما ، وهو فى الاشتراكية الثورية أشبه باسحق السورى واجناتيوس لويولا Ignatius Loyola فهو الشكل المتطرف للانكار الثورى الزاهد للعالم . كان نيتشايف — بالطبع — مخلصـا تمام الاخلاص ، وكان تعصبه من أشـد الأنواع تطرفا ، فهو على استعداد لاحراق جاره ، ولكنه على استعداد لاحراق نفسه فى اية لحظـة .. وقد أزعج « نيتشايف » النـاس جميعا ، وأنكره الثوريون والاشتراكيون من مختلف الاتجاهات ، ووجدوا أنه يعرض عمل الثورة والاشتراكية للظنون . بل ان باكونين نفسه قد أنكر نيتشايف .

وقـد أوحى نيتشايف وكتابه الى دوستويفسكى بتأليف روايتـه « الممسوسين » The possessed واثارت خيال دوستويفسكى مسألة مقتل الطـالب ايفانوف بأيدى أتبـاع نيتشايف لاشتباههم فى أنه جاسوس ، ووصف هذه الواقعة فى مقتل شاتوف Shatov . وليس من شـك أن « بيتر فرخوفنسكى Peter Verkhovensky لا يشبه نيتشايف الا قليـلا ، وهو يعطى الانطبـاع بأنه صورة كاريكاتورية ، بيـد أن دوستويفسكى

قد كشف من الناحية النفسية عن قدر كبير من الحقيقة . فثمة شيء صوفى فى دستور نيتشايف الثورى ، ومن الأمور الهـامة بوجه خاص أن نيتشايف قد سبق الى حد كبير نمطـا للتنظيم الحزبى الذى يأتى فيه كل شيء من فوق ، واعنى به التنظيم المركزى المتطرف المستبد . وقد أراد نيتشايف ان يغطى روسيا كلهـا بهذه الخلايا الثورية الصغيرة التى يتحكم فيهـا نظام حديدى بحيث يسمح فيه بكل شيء من أجل تحقيق الهـدف الثورى. وكان يحتقر الجمـاهير ويريد أن يسوقهـا قسرا الى الثورة ، ويرفض الديمقراطية . ولكن كيف يميز نيتشايف الرجل الثورى ؟ الرجل الثورى انسـان كتب عليـه الهلاك ، فلا مصـالح شخصية له ، ولا عمل ، ولا عواطف ، ولا ارتباطات ، ولا أملاك ، بل لا اسم له أيضا . كل مافيه فى قبضة مصلحة واحدة ، فكرة واحدة ، عاطفة واحدة ، هى الثورة (١) . والثورى قد خرج على النظام المدنى ، وعلى العـالم المتحضر ، وعلى اخلاقيات هذا العـالم . انه يعيش فى هذا العـالم من أجل تحطيمه . بل ولا ينبغى عليه أن يحب علوم هـذا العالم ، لأنه لا يعرف سوى علم واحد ، هو علم الهدم ، وكل ما يخدم الثورة فهو أخلاقى فى نظر الرجل الثورى ، وهـذه الكلمـات رددهـا لينـين فيمـا بعـد . والثورى يحطـم كل ما يعـترض طريق الوصـول الى مآربـه ، وليس ثوريـا من يتمسك بشيء فى هذا العالم ويعده عزيزا على نفسه ، وعلى الثوريين أن يتغلغلوا فى صفوف البوليس السرى ، وأن تكون لهـم جواسيسهم فى كل مكان . ومن الضرورى العمل على زيادة الآلام والعنف حتى يمكن تحريض الجماهير على الثورة . ولا بد للثورى من الاختلاط بالخارجين على القـانون ، لأنهم هم الثوريون الحقيقيون ، وينبغى عليـه أن يركز هـذا العـالم فى قوة واحدة هدامة لا تقهر .

Michoel Bakunin : Social Politischer Briefwechsel mit Alexander Herzen und Ogarèv, 1895

(١) مراسلات اجتماعية وسياسية مع الكسندر هرتزن وأوجاروف . وفى هذا الكتاب نشرت « عبادات ثورى » من تأليف نيتشايف .

وتقتضى سيكلوجية الثورى — فى رأى نيتشايف — نبذ العالم والحياة الشخصية ، كما تتطلب كفاءة استثنائية وتركيزا استثنائيا على الشىء الوحيد المطلوب ، والاستعداد لمواجهة الألم والعذاب اللذين يجب أن يتوقعهما . وهذه السيكلوجية غامضة فى هذا المجال ، اذ لا تتضمن اعتقادا بمعونة الفضل الالهى ، أو الحياة الأبدية ، كما هى الحال فى المسيحية . وتطلب من الثورى فضائل مسيحية كثيرة تدور حول انكار الذات ، وان كان القصد منها تحقيق غرض مختلف . والتفرقة الكبرى بين هذا المذهب وبين المسيحية تكمن فى أن المسيحية لاتطلب التزييف لتحقيق غايتها العليا ، كما أنها لا تسمح باستخدام اية وسائل اجرامية . وقد انتقل شىء من زهد نيتشايف الى زرزنسكى Dzerzhnsky مؤسس البوليس السياسى السرى « التشيكا » والمشرف عليها . وكان زرزنسكى — بالطبع — مؤمنا متعصبا يبارك اية وسيلة لتحقيق الاشتراكية ، وكان سببا فى تعذيب الآخرين تعذيبا مريعا ، وضميره ملطخ بالدم ، ولكنه كان على استعداد هو نفسه لاحتمال التضحية والعذاب ، وقضى فى الأشغال الشاقة المؤبدة خمسة عشر عاما . وكان فى صباه وشبابه كاثوليكيا مؤمنا ، وأعد نفسه لكى يكون قسيسا ، ولكنه حول طاقاته كما فعل كثير من الثوريين . ومع أن الشيوعيين قد هذبوا كثيرا من دستور نيتشايف ، الا أن قدرا كبيرا منه قد دخل فى الشيوعية الروسية ، وخاصة فى مرحلتها الأولى .

والشيوعيون يشكلون دولة فى الوقت الحاضر ، وهم عاكفون على البناء ، لا على الهدم ، وعلى هذا فقد تغيروا كثيرا ، ولم يعودوا ثوريين نموذجيين ، ولا وجود للجار القريب بالنسبة اليهم ، وانما يتطلعون الى الانسان البعيد ، والعالم — فى نظرهم — منقسم الى معسكرين وكل شىء مسموح به ضد معسكر الأعداء .

وقضى « نيتشايف » نفسه عشرة أعوام فى سجن الكسيفسكى فافلين Alexeevsky Vavelin فى ظروف بشعة ، وهناك مضى دعايته ، فحول حراس السجن جميعا الى أعوان له ، وعن طريقهم كان يراسل « الحزب

الشعبى » Narodnaya Volya ويســدى له النصح .. لقد كان رجــلا يتمتع بقوة خارقة ، بيد أن انتصار مثل هذا الرجل لا يحمل فى طيــاته شيئا من الخــير .

(٢)

والفوضوية وليد مميز للروح الروسية ، كالعدمية والشعبية سواء بسواء . وهى قطب من الأقطــاب فى التكوين الروسى للشعب الروسى . والروس شعب تسيطر الدولة على عقله ، ويستسلم فى خضـــوع لكى يكون المــادة التى تؤسس منهــا امبراطورية عظيمة ، ومع ذلك فانــه يميل فى الوقت نفسه ، الى التمــرد والشغب والفوضوية . والعنصر الديونيزوسى الروسى ذو طــابع فوضوى . ولقــد كان « ستنكا ريزين » Stenka Razin وبوجاتشف Pugachev شخصيتين روسيتين صميمتين ، وما برحت ذكراهما عالقــة بأذهان الشعب . فالعنصر الفوضوى قوى غاية القوة فى الفكر الروسى فى القرن التاسع عشر . وما من أحــد من الانتلجسيا الروسية كان يحب الدولة ، أو يعتقد أنهــا دولته . فالدولة هى « هم » وهى الآخرون . أما « نحن » فنعيش على مستوى آخر ، غرباء عن أية دولة . واذا كانت فكرة تقديس السلطة مميزة للروس ، فكذلك كانت تميزهم فكرة أن كل سلطة هى شريرة آثمة . ولقــد رأينا أن الأساس الذى وضعه السلافوفيل للملكية المطلقة ينطوى على عنصر فوضوى قوى . فكان قسطنطين اكســاكوف Constantine Aksakov فوضويا حقيقيا ، وفى كتاباته فقرات تذكرنا « بباكونين » ، وكذلك تلقى عنصرا فوضويا فى دوستويفسكى أيضــا . ولم يدرك « الشعبيون » الروس مغزى وجود الدولة ، كمــا لم يتنــاولوا مشكلة الحصـــول على السلطة فى الدولة ، ولهذا السبب يوجــه اليهم « ياروسلافسكى » اللوم فى كتابه : « تاريخ الحزب الشيوعى » [1] والمستقبل المثالى يتمثل دائما بلا دولة ، فالدولة هى الحاضر البغيض .

---

(1) E. Yaroslavsky. Aus der Geschichte der Partei der Sowjetunion. Erst Teil.

واعجب الأشياء جميعا هو أن أيديولوجية الفوضوية هى فى شطرها الأكبر من خلق الفئة العليا من طبقة الأعيـــان الروس من ذوى الأملاك ، وهذه الفوضوية الروسية اكتسبت أهمية أوروبية عامة ، فقد كان باكونين والأمير كروبوتكين Kropotkin والكونت تولستوى ، وكلهم من كبـــار الأعيـــان ، هم مؤسسو الفوضـــوية الروســـية والعالميـــة . والشخصية الرئيسية هى باكونين ، الذى كان الابن المدلل لطبقة الأعيـــان الروس ، والواقع انه كان طفلا كبيرا ، مشتعل الحماس دائما بأشد الأفكار الثورية تطرفا ، وهو من أصحاب الرؤى الروس ، وعاجز عن التفكير المنهجى المنظم ، فهو أشـــبه بـ « ستنكا ريزين » طبقة الأعيـــان . وكان ما يزال من رجال الأربعينات ، وصديقا لبلنسكى وهرتزن والسلافوفيل ، فى الوقت الذى كان فيه مثاليا وهيجيليا ، ولكنه اكتسب فى الستينات ، وفى السبعينات خاصة ، أهمية ، وأهمية أوروبية بالذات . وقد تشاجر مع ماركس بشأن « الدولية الأولى » التى أراد أن يدخل فيها مبادىء فوضوية ، كاللامركزية والفدرالية . كان باكونين فى بداية الأمر على وفاق مع ماركس ، بل كان له عليـــه بعض التأثير فى تعاليمه الخاصة بالرسالة الميسياوية للبروليتاريا(١) . ولكنه أصبح فيما بعد عدو ماركس اللدود ، ينظر اليه على أنه رسول الدولة ، والقومية الألمـــانية . ولم يكن باكونين يحب الألمـــان ، ويؤثر عليهم الشعوب اللاتينية ، وكتابه الرئيسى عنوانه « قطة الامبراطورية الألمـــانية ذات الذيول التسعة والثورة الاجتماعية » .

وكان فى باكونين عنصر « سلافوفيلى » قوى ، ونزعته الميسياوية الثورية ذات طابع روسى صقلبى ، وكان يعتقد أن الثـــورة التى تشمل العـــالم كله سوف يشعلها الشعب الروسى والعنصر الصقلبى ، وهو فى هـــذه النزعة الميسياوية الثـــورية الروسية يعد رائدا للشيوعية . والعبـــارة القائلة ان « عاطفة الهدم ، عاطفة خلاقة » هى من العبارات التى أطلقها باكونين . وفوضوية باكونين هى الثورة ، فهو يريد أن يثيرها ثورة عالمية شاملة ،

---

(١) راجع كورنو فى المرجع المذكور آنفا « فى حاشية رقم ٧ » .

وأن يحطم العالم القديم ، وكان يعتقد أنه على أطلال العالم القـديم ، ومن الرماد المتخلف عنه ، سينهض تلقائيـا عالم جديد ، وكان يود أن يدفع جماهير البروليتاريا فى العالم كله الى التمرد ، ولهذا اتجه الى الدهمـاء وأحط الطبقات ، معتقدا أن الغوغاء الثائرة ، بعد أن تطرح عنها كل أغلال التاريخ والمدنية ، ستقيم حياة حرة أفضل . انه يريد أن يطلق الغوغاء من عقالها . وكان باكونين « شعبيا » بمعنى أنه كان يؤمن بأن الحقيقة كامنة فى الشعب الكـادح ، فى الجماهير غير المستنيرة ، وخاصـة فى الشعب الروسى ، الذى كان يراه شعبا متمـردا بالفطرة . والشر كله مستقر فى الدولة ، التى أسستها الطبقات الحاكمة ، فأصبحت أداة للاضطهاد .

أما ماركس فكان صاحب نزعة عقلية يعلق أهمية عظمى على النظرية والفلسفة والعلم ، ولا يؤمن بنمط السياسة القائم على العواطف ، ولهـذا أضفى أهمية هائلة على تطور الفكر والتنظيم ، بينما كان باكونين عاطفيا بصورة استثنائية ، ومعاديا للنظريات العقليـة كافة ، ويبغض المدرسيين والمدرسية ، وكانت « سلطة » العلمـاء هى ما يبغضه فى المقام الأول . ومعنى الاشتراكيـة العلمية فى نظـره هو أن العلمـاء قد استولوا على السلطان . وينبغى علينا الا نسمح للعلم بالتحكم فى الحياة ، كما لا ينبغى أن نمنح السلطـة لكائن من كان . ولهـذا فهو يمجـد عنصر « ريزين — بوجاتشف » الخارج على القانون فى الشعب الروسى ، وقد استغل البلاشفة فى مستهل الثـورة هذا العنصر استغلالا عظيما على الرغم من نظرياتهم المـاركسية . وكان « لافروف » Lavrov أحد دعاة الحـركة الثورية الاشتراكية فى السبعينات — يريد أن يعلم الشعب ويتوقع أن تتابع الثورة هذا التعليم ، أما باكونين فكان يريد تحريض الشعب على الثورة دون أن يعلمهم شيئا ، ذلك لأنه كان يؤمن بعدالة غير المنظمين وقوتهم ، ويعتقد أن النـور سيتوهج من الشرق ليبـدد ظلمـات الغرب .. ظلمـات العالم البورجوازى ، وسيصل الشيوعيون الروس الى هذه النظرة نفسها على الرغم من ماركسيتهم الغربية .

الانسان يصبح انسانا فى نظر بوكانين — بالثـورة ، وهناك ثلاثة

مبادى للتطور الانسانى : (١) الانسان الحيوان ، (٢) الفكر ، (٣) الثورة . ويضع بوكانين الثورة فى مرتبـة أعلى من التنظيـم ، ويرى فى ماركس يعقوبيا ، وما كان ليحتمل روبسبير أو اليعاقبـة . كان باكونين شيوعيا ، لكن شيوعيته فوضوية معادية للدولة . وكان يؤمن باتحاد الهيئات المنتجة ، ويقتنع بأن السلافيين لو تركوا وشأنهم لـما أقاموا دولة ، وعلى هذا الرأى أسس اعتقاده فى رسالة الصقلبية . والدولة تمثل فى نظره وقبل كل شىء النفوذ الألمـانى ، وتنبـأ بأن المـاركسية حين توجد فى اية دولة ، ستكون طغيانا رهيبا . وتبدو الآن تنبؤات باكونين أشبه بأقوال الأنبياء .

غير أن الحاد باكونين كان أشد شراسة وخشونة وعنفا من الحـاد ماركس ، اذ يرجع الى مزاجه المكسيمالى الروسى المتحمس . أما ماركس فكان رجلا من رجال الفكر ، والصراع مع الدين هو قبل كل شىء مسـألة تغيير للفكر . هذا بينما نجد باكونين رجلا عاطفيا ، والحـاده يوحى بأنه ليس مجرد انكار لفكرة الله بوصفها باطلة ضارة ، بل يوحى بأنه قتال ضد الله . وثمة شىء من أفكار « ماركيون » فى الحاده . ومن مؤلفاته الرئيسية كتاب : « الله والدولة » . والدولة فى نظر باكونين — هى منبع الشرور جميعا فى تاريخ العالم ، ومقصدها هو استعباد الانسان واذلاله ، غير أن الايمان بالله هو السند الرئيسى للدولة ، وكل سلطة نابعة من الله ، وهذا يعنى بالنسبة له أن كل سلطة صادرة عن الشيطان ، فاللـه فى نظره هو الشيطان ، وهو مصدر سلطة الانسان على الانسان ، وعلة العبـودية والعنف » ، « واذا وجد الله ، كان الانسان عبدا » وفكرة الله هى انكار العقل الانسانى ، والعدالة والحرية . . الله هو المنتقم ، والأديا كلها قاسية . والمـادية تستحيل الى مثالية فى التطبيق . أما فى الدين فان الالهى يرفع الى السماء ، وما هو حيوانى فظ يبقى على الأرض . وهذه فكرة فويرباخ ، التى رددها ماركس فيما بعد .

وتحدث باكونين — على عكس بلنسكى — فى خشونة شـديدة عن المسيح ، فهو يرى أن المسيح كان ينبغى أن يلقى به فى السجن بوصفه متسكعا لا عمل له . واذا كان الانسان قد وهب روحا خالدة ، ويتمتع بالحـرية ،

فهو اذن كائن معاد للنظام الاجتماعى .(١) لأن الروح الخالدة لا تحتاج الى المجتمع . والمجتمع هو الذى يولد الفرد ، وهو مصدر الأخلاق . وفوضوية باكونين — على نقيض ماكس شترنر — فوضوية معـــادية للفردية ، فهى جماعية ، شيوعية . وقد أنكر « باكونين » الشخصية وقيمتها المستقلة ، واكتفاءها بذاتها ، وهذا يميزه عن برودون ، اذ كان يدعو الى شيوعية فوضوية ، ولكنهـــا متميزة عن شيوعية كروبوتكين الفوضوية المصطبغة بالتفاؤل العقلى ، أما شيوعية باكونين الفوضوية فمصطبغة بصبغة قاتمة من الهدم والثورة على كل شىء ، وخاصة على الله . ولا تختلف الكنائس فى نظره عن دور اللهو ، وكان يصيح قائلا : « ان الثورة الاجتماعية هى وحدها التى سوف تستطيع أن تكتسب القوة الكافيـــة لاغلاق دور اللهو والكنائس فى وقت واحد » .(٢) ويذهب الحاد باكونين النضـــالى الى أبعد مما يذهب اليه الشيوعيون الروس ، الذين لم يغلقوا فى الواقع الكنائس كلها ، والذين نلمس فيهم تأثير المـــاركسية العقلى ، غير أن باكونين فى الحاده هذا النضالى يعتبر سلفا للشيوعيين . وقد استخدمت الشيوعية نزعته الفوضوية استخداما كبيرا كما استغلت روح التمرد فى الجانب الهدام من عمله ، أما فى الجانب الخلاق البنـــاء ، وفى تنظيمهم ، فان الشيوعيين يفترقون فى حدة عن باكونين الذى لم يكن يستطيع مطلقا أن ينظم السلطة ، بل لم تكن لديه الرغبـــة فى ذلك . وباكـــونين — شـــأنه فى ذلك شـــأن « نيتشايف » — كان معاديا للعلم وللانتلجنسيا ، وهذا النفور لعب دوره أيضا فى الثورة الروسية .

وكانت التيارات الأخرى فى الفكر الاشتراكى الثورى الروسى وديعة معتدلة بالقياس الى تطرفات باكونين ونتشايف ، وفى الفلسفة اتخذت هذه التيارات شكل الوضعية تحت تأثير « كونت » و « مل » و « سبنسر » ،

---

(1) M. Bakunin, The Cat-o'-Nine-Tails German Empire and the Social Revolution 1922.

(٢) نفس المرجع الســابق .

بل تحت تأثير الكانتية الجديدة الصاعدة ، ولكنها لم تخضع للمادية المحاربة .
وفى الأخلاق كانت نزعة نفعية سانجة هى السائدة ، أو ان شئنا ، كانت العدمية المتطرفة هى السائدة بوجه عام . أما فى التعـاليم الاجتماعية ، فكانت معظم هذه التيارات تقترب من برودون وتستعير شيئا من ماركس الذى بدأت فى التعرف عليه . وكانت العقليات المسيطرة على الانتلجنسيا فى السبعينات هى عقليات ب. لافروف P. Lavrov و ن. ميخايلوفسكى N. Mikhailovsky المدافعين عمـا كان يسمى علم الاجتمـاع الذاتى « اى وجهة النظر التى ترى من الضرورى لعلم الاجتماع أن يضفى قيمة أخلاقية على الظواهر . وقد دافع لافروف وميخايلوفسكى عن الشخصية الانسانية بطريقتهما الخاصة ، دون أن يميزا بينهـا وبين الفرد ، وكان للاشتراكية فى نظرهما — كما كان لها فى نظر هرتزن — طابع فردى ، والتنظيم الاشتراكى للمجتمع ضرورى لضمان الحياة الكاملة لكل فرد . وقد أعلنها ميخايلوفسكى حربا من أجل الفردية ، وأقام نظرية عن الصراع بين الشخصية والمجتمع المنظم .

ويعد لافروف وميخايلوفسكى من فلاسفة « المقاعد الوثيرة » النموذجيين بين صفوف الانتلجنسيا . وقد منعهما تهافت مركزهما الفلسفى ، وسطحية نزعتها الوضعية من وضع أساس فلسفى لمبدأ الشخصية الذى كان هو الجانب الايجابى فى نظريتهما الاجتماعية . وما زالت الشخصية بالنسبة اليهما من خلق المجتمع ، وبيئتها الاجتماعية ، وليس من الواضح : متى وجدت قوتها لمحاربة المجتمع الذى يريد أن يجعل من الشخصية جهازا له وظيفة . وقـد عرف « لافروف » عن طريق « رسائله التاريخية » التى أصبحت انجيل الأخلاق بالنسبة الى الانتلجنسيا « الشعبية » فى السبعينات .
وعبر « لافروف» عن موضوع « الندم » على خطيئة الطبقات المثقفة تجاه الجماهير ، وعن التزامها بسداد دينها ، كما يضع السؤال الروسى التقليدى عن ثمن التقدم والثقافة ، غير أن « شعبية » لافروف وميخايلوفسكى تنتمى الى النمط الذى يرى نفسه مقيدا بمصـالح الشعب ، لا بآرائه ، اذ كانا يعتقدان أن الآراء المستنيرة الحقيقية توجد بين الانتلجنسيا ، لا فى صفوف

الشــعب . وواجب الانتلجنسيا أن تزود الشعب بالمعرفة ، وأن تخـدم الشعب ، وأن تعمل على تحريره ، ولكن عليها أن تحتفظ فى الوقت نفسه باستقلال آرائها وأفكارها . وقد وضــع ميخايلوفسكى الأمر على النحـو التالى : « لو أن الجماهير الثورية اقتحمت حجرتى ، وأرادت أن تحطم تمثال بلنسكى النصفى ، وتدمر مكتبى ، اذن لقاومتها الى آخر قطرة من دمى » . وهكذا كان يتنبأ بالموقف الذى وجدت فيــه الانتلجنسيا نفسها فى صراعها من أجل الثورة . والحق أن ميخايلوفسكى لا يعد رائدا للشيوعية ، بل انه من هذه الناحية أقل من بلنسكى وباكونين ، ولكنه أشبه بهرتزن . اذ يمثل ميخايلوفسكى خطأ آخر فى الفكر الاشتراكى الروسى . واذا أرادت الجماهير الثورية تحطيم تمثال بلنسكى النصفى ، فما ذلك الا لأنها مشبعة ببعض أفكار « بلنسكى » نفسه . وهنا تكمن مفارقة الفكر الثورى .

وقد ظهرت فى السبعينات حركة « شعبية » قوية عبرت عن نفسها فى « العودة الى الشعب » ولم تحمل هذه الحركة فى البداية طابعا ثوريا سياسيا ، بل كان الشــعبيون من الانتلجنســيا يريدون أن يندمجــوا فى الشعب ، وأن يعملوا على تنــويره ، وأن يخدموا الفــلاحين فى مطالبهم ومصالحهم اليومية . وكانوا يريدون « الأرض والحرية » للشعب ، وبهذا ارتبطت المنظمة السرية المسماة «الأرض والحرية» . واخفاق هذه « العودة الى الشعب » التى ظهر فيها انكار الذات والقدرة على التضحية والايمان والأمل والنبل ، كان راجعا — بلا شك — الى أنها وقفت فى وجه الاضطهاد الحكومة وتعسفها ، ولكن هذا وحده لا يفسر السبب فى هــذا الاخفاق . ذلك أن مأساة الحركة « الشعبية » تعود قبل كل شىء الى أن الشعب لم يكن يرحب بالانتلجنسيا ، وكان أفراد الشعب أنفسهم يسلمون أولئك الذين يرغبون فى خدمتهم دون انانية أو مصلحة ذاتية — الى أيدى السلطات . فقد كان الشعب — وخاصــة الفلاحين — يجدون وجهة نظر الانتلجنسيا غريبة عليهم . فما زال الشعب متدينا ارثوذكسيا وافتقار الانتلجنسيا الى الدين كان من دواعى نفــورهم . ولهذا رأوا فى « عودة الشــعبيين » الى الشعب مجالا للتسلية . وهذا كله حمل الشعبيين من الانتلجنسيا على أن يواجهوا المشكلة السياسية وأن يضعوا مناهج جديدة للكفاح .

(٣)

كان ب.ن. تكاتشف P.N. Tkachev من الدعـــاة الممتازين لنظرية الثورة فى السبعينات .(١) وينبغى اعتباره — أكثر من أى شخص آخر — ارهاصا للينين . وكان تكاتشف يحـــرر صحيفة ثورية فى الخارج اسمها « جرس الانذار » The Toscin تعبر عن أشد الآراء تطرفا . ونذكر — عرضا — أن تكاتشف هو أول من تحدث الينا فى السبعينات عن ماركس . وفى سنة ١٨٧٥ بعث رسالة الى « انجلز » يشرح له فيها خط التطور الخاص بروسيا ، ويتحدث فيه عن الطبيعة الخاصة للثورة الروسية المقبلة ، التى لايمكن الاقتصار فيهذ على تطبيق المبتدىء الماركسية عليها . ولكننا لا نستطيع أن نقول أن « تكاتشف » قد وضع المبادىء « الشعبية » فى مقابل فكرة استنبات المـــاركسية فى التربة الروسية ، فلم يكن تكاتشف « شعبيا » تقليديا أو نموذجا ، والواقع أنه لم يكن يؤمن بالشعب . وكان أول من فرق بين الثورة البورجـــوازية والدستور ... الخ . وبين ذلك التطبيق الروسى للماركسية الذى يعد نمو الرأسمالية ضروريا فى روسيا — وهى وجهة نظر قريبة كل القرب من البلشفية الروسية . وهنا يكمن الاختلاف بين لينين وبليخانوف .

ولم يكن « تكاتشـــف » يريد أن يسمح لروسيا بالتحـــول الى دولة دستورية بورجوازية . فهو يعد غياب البورجوازية النامية من أعظم مميزات روسيا ، من حيث أن ذلك يعمل على تيسير امكان قيام الثورة الاجتماعية . والشعب الروسى شعب اشتراكى بفطرته . ولم يكن تكاتشف ديموقراطيا ، فقد أكد سلطان الأقلية على الأغلبية . وقـــد وصف تكاتشف بأنه يعقوبى Jacobin بيد أن هذا ليس صحيحا كل الصحة ، فاليعقوبية شكل من أشكال الديموقراطية ، بينما نجد أن تكاتشف اشتراكى قبـــل كل شىء ، واشتراكيته ليست من الطراز الديموقراطى ، وفى هـــذا يتفق مع لينين

(1) G. Plekhanov, Our Divergencies; and: A Historical Revolutionary chrestomathy Vol. I. 1923.

والشيوعيين . ولقد كان تكاتشف خصما للحركات الشعبية كحركة : « الأرض والحرية » ، « وحركة اعادة التوزيع السوداء للأرض » ، لأن هذه الحركات تنكر فكرة الكفاح السياسى البحت . وعلاقته بهذه التيارات الفكرية تذكرنا تذكيرا قويا بموقف لينين ممن كان يطلق عليهم اسم الاقتصاديين ، الذين وضعوا أمام الطبقات العاملة اقتراحات اقتصادية صرفة ، تاركين الكفاح السياسى للاتجاهات الليبرالية الى حد بعيد . ويعد تكاتشف فى تاريخ تيارات الفكر الثورية فى روسيا ، سلفا لحركة ارادة الشعب ، التى اخذت على عاتقها — وهو ما يميزها عن الحركات « الشعبية » فى السبعينات ، حل المشكلة السياسية بالقضاء على الملكية المطلقة عن طريق الارهاب . وتمثل حركة « ارادة الشعب « انتصار « تكاتشف » على لافروف وباكونين . وقد كان تكاتشف — مثل لينين — شارحا لنظرية الثورة . وفكرته الجوهرية هى الاستيلاء على السلطة بأقلية ثورية ، وهذا يتطلب اشاعة الاضطراب فى السلطة القائمة عن طريق الارهاب. وفى رأى تكاتشف أن الجماهير على استعداد دائما للثورة ، لأنها ليست الا المادة التى تستخدمها الأقلية الثورية . والثورات تصنع ، ولا يمهد لها ، اذ لم يكن تكاتشف يعترف بأى نوع من أنواع التطور ، ومن ثم ينبغى الا تسبق الثورة ، دعاية أو تعليم للجماهير .

غير أن « تكاتشف » كان معارضا — بصورة حاسمة — لفوضوية باكونين ، اذ كان يعتقد أن تحطيم الدولة عبث لا غناء فيه ، ويتحدث عن احلال المؤسسات الثورية مكان المؤسسات المحافظة بنفس الطريقة التى تحدث بها لينين عن هذا الموضوع فيما بعد . وكانت ديونيزوسية (نسبة الى ديونيزوس) باكونين الفوضوية غريبة تماما على تكاتشف ، فباكونين يعارض كل تنظيم . أما تكاتشف فيحبذ تنظيم أقلية ثورية تستولى على السلطة ، فهو واحد من الثوريين الروس القلائل الذين عاشوا فى الماضى ، بل لعله الثورى الوحيد الذى كان يفكر متطلعا الى السلطة ، والاستيلاء عليها وتنظيمها . وكانت رغبته هى أن يصل الحزب الاشتراكى الى الحكم ، وهو فى هذا شبيه كل الشبه « بلينين » . وقد صور لنفسه الحكومة الاشتراكية الثورية

بصورة مستبدة بمـــا فيه الكفاية ، بيد أن تحطيم كل شيء ينتمى الى المـــاضى سيتم عند « تكاتشف » بصورة أعنف منها عند لينين ، ولكن هـــذا الوقت لم يحن بعد . ولم تكن أفكار « تكاتشف » منتشرة على وجه الخصوص فى الأوساط الثورية الروسية ، ذلك أن ارادة القوة التى يدعو اليها « تكاتشف » كانت فى تعارض حاد مع اتجاه الاشتراكيين « الشعبيين » الروس .

وكان ج.ف. بليخانوف — مؤسس المـــاركسية الروسية والديموقراطية الاجتماعية — يكتب فعـــلا بصورة حاسمة وحادة ضـــد « تكاتشف » فى الثمانينات ، وهـــذا هو أحد الموضوعات الأساسية فى كتابه « اختلافاتنا » Our Dwergincies . ونزاع بليخانوف مع تكاتشف ذو أهمية عظيمة اذ يبدو فيه وكأن بليخانوف يجادل لينين والبلاشفة فى الوقت الذى لم يوجدوا فيه بعد . ويثور بليخانوف بخاصة على فكرة استيلاء الحزب الاشتراكى الثورى على السلطة ، لأنه يعد مثل هذا الاستيلاء أعظم الكوارث طرا ، بما يحمله فى طياته من ردفعل مقبل . وكان بليخانوف يعارض فلســفة باكونين ، ويعارض الثورة ايضا ، فهو من أنصار الغرب ، وأنصار النزعة الغربية ، ويؤمن بالاستنارة بالتطور . وكانت الدوافع اللاعقلية التى يتسم بها الروس غريبة عليه ، وهو يدافع عن العلم والفلسفة ضد الآراء الثورية الغامضة التى نادى بهـــا كل من باكـــونين وتكاتشف . وبليخانوف ، كالمناشـــفة المـــاركسيين فيما بعد ، لم تكن لديه أية رغبة فى الاعتراف بسبل خاصـــة لتطور روسيا ، أو بامكانية قيام ثورة روسية خاصة ، وفى هذا كان مخطئا بكل تأكيد . وكان « تكاتشف » أكثر منه صوابا . فتكاتشف — قـــد شيد مثل لينين — نظريته عن الثورة الاشتراكية فى روسيا ، وهذه الثورة الروسية لن تتبع بالضرورة النموذج الغربى . وبهذا ارتبطت المشكلة الخاصـــة فى تاريخ الفكر الاشتراكى الروسية واعنى بها هـــذه المشكلة : هل تستطيع روسيا أن تتحاشى النمو الراسمالى وحكم البورجوازية ؟ هل يمكن للثورة أن تكون اشتراكية ؟ وهل من الممكن تطبيق النظرية المـــاركسية على روسيا دون أن نحسب حسابا لأى طريق خاص للتطور فى روسيا ؟

وقد كان تكاتشف على حق فى معارضته لانجلز ، ولم يكن هذا الحق هو حق « الشعبيين » ضد ماركس ، بل هو حق البلاشفة التاريخى ضد المناشفة ، حق لينين ضد بليخانوف . ولم تكن فى روسـيا ثورة شيوعية تحولت الى ثورة طوباوية ، وانما كانت هنالك ثورة بورجوازية ليبرالية . وما كان ماركس مغرما بالروس ، بل انه لم يستطع احتمال باكونين ، كما لم يحب هرتزن . وفى موقفه من روسيا كان يظهر على حقيقته أحيانا بوصفه الاستعمارى الجرمانى الحقيقى ، ولكنه كان يعلق على الروسيا ، وعلى امكانية قيام ثورة روسية أهمية عظمى ، بل لقـد تعلم اللغة الروسية ، وتابع الخلافات الروسية عن الثورة والاشتراكية ، وكتب خطابا هاما الى ن. ميخايلوفسكى .(١) وكان يقدر تشرنشفسكى — كما سبق أن قلت — تقديرا عظيما ، غير أن ماركس وانجلز تحدثا عن الطابع البورجوازى للثورة الروسية القادمة ، وكانا يؤيدان حزب « ارادة الشعب » الذى ركز جهده على خلع الملكية المطلقة ، وفى هذا المجال يعدان سلفين لـ « لينين » أكثر مما كان تكاتشـف ، الا أن ماركس وانجـلز لم يفهما الطبيعة الخاصـة لطريق التطور الذى يجب أن تسلكه روسيا ، ولهذا كانا من المناشفة ، على الرغم من جهود البلاشفة فى اخفاء هذه الحقيقة . غير أن تكاتشف كان بلشفيا ، مثل نيتشايف ، ومثل باكونين الى حد ما ، وان يكن ذلك بدرجة أقل ، ما دام يرفض السلطة والتنظيم . وكانت « الخـلافات » قد بدأت تظهر بوادرها فى السبعينات ، وهى الخلافات التى نشبت بين المـاركسيين والشعبيين الروس فى التسعينات ، وبين البلاشفة والمناشفة فى مطلع القرن العشرين .

وكان اغتيال الاسكندر الثانى بقرار من حزب « ارادة الشعب » هو خاتمة الحركة الثورية الروسية وتمزقها قبل نهـوض المـاركسية ، وكان ذروة المأساة التى انتهى اليها الصراع الفريد بين السلطة الروسية والانتلجنسيا الروسية . وعلى رأس منظمة « ارادة الشعب » الارهابية ، تلك المنظمة

---

(1) K. Pazhitnov, The Development of SocialistIdeas in Russia, Vol. I. 1924 . (نمو الأفكار الاشتراكية فى روسـيا)

التى تعد مسئولة عن جريمة الاغتيال التى وقعت فى أول مارس سنة ١٨٨١ : تقف شخصية جليابوف Zhelyabov البطولية . وجليابوف نفسه ينحدر من طبقة الفلاحين ، وكان فى بداية الأمر « شعبيا » ، ينكر أهمية الكفاح السياسى ، غير أن اخفاق حركة الانتلجنسيا المتجهة صوب الشعب أفضت بـ « جليابوف » الى هذه النتيجة وهى أن المعركة مع الأوتوقراطية أمر محتوم . ولم يكن جليابوف — بكل تأكيد — متعصبا مثل « نيتشايف » بل على العكس كان رجلا تميز بخبرته عن اكتمال الحياة وانسجامها . كما لم يكن « ماديا » بحال من الأحوال ، بل كان أقرب الثوريين الروس جميعا الى المسيحية . وعندما سئل فى قضية أول مارس : عما اذا كان أرثوذكسيا ؟ أجاب بقوله : لقد عمدت فى المسيحية ، ولكننى أرفضها ، على الرغم من أننى أعترف بجوهر تعاليم المسيح ، وهذه التعاليم الجوهرية تحتل مكانا مشرفا بين معتقداتى الأخلاقية ، وأنا أؤمن بحقيقة هذا الايمان وصدقه ، وأعترف بأن الايمان بلا أعمال ايمان ميت ، وأن على كل مسيحى صادق أن يحارب من أجل العدالة ، ومن أجل المضطهدين والضعفاء ، بل وأن يقاسى من أجلهم ، اذا اقتضى الأمر . هذا هو ايمانى » . (١) وقبل تنفيذ حكم الاعدام فيه، لثم الصليب ، وقد وجد مترجم سيرته الشيوعى ، « أ. فورونسكى » هذه الحقيقة محيرة جدا . وفسر تعاطف جليابوف مع المسيحية بأنه كان شعبيا من جيل السبعينات ، لا من الستينات ، ولكنى أعتقد أن شطرا كبيرا من هذا التعاطف راجع الى أن جليابوف كان رجلا من الشعب ، ومثل هذا الرجل الذى تدفعه أنقى الدوافع ، من حب للحقيقة والعدالة ، كان مرغما على تكريس حياته لتدبير جرائم الاغتيال .!! انها مأساة رهيبة من مآسى الحياة الروسية .

ولم يكن « جليابوف » من وجهة نظر العامة رائدا للشيوعية الروسية ، ولكنه كان كذلك بطرائقه فى التنظيم وفى العمل . ويمكن أن نعد تاريخ الثوريين الروس ، تاريخا للاستشهاد ، وقد استغل الشيوعيون هذا التاريخ بوصفه رأس مال أخلاقى . ولقد اقترفت الحكومة الروسية فى التاريخ جريمة الانتحار بأن خلقت الشهداء .

---

(١) أ. فورونسكى ، جليابوف ١٩٣٤ A. Voronsky, Zhelyabor

الفصل الرابع

الأدب الروسى وتنبؤاته فى القرن التاسع عشر

(١)

ننتقل الآن الى عالم آخر ، الى جو روحى آخر ، هو جو الأدب الروسى العظيم فى القرن التاسع عشر . وهذا الأدب هو أعظم صرح شيدته الروح الروسية ، كما أنه اكتسب أهمية عالمية ، بيد ان سمة واحدة من سماته ذات أهمية خاصة ، حين نتعرض لأصل الشيوعية الروسية . الأدب الروسى هو أكثر آداب العالم تنبؤية ، وهو ملىء بالنذر والتنبؤات ، والتحذير من الكارثة المقبلة سمة مميزة له . وقد شعر كثير من الكتاب الروس فى القرن التاسع عشر أن روسيا معلقة على شفا هاوية تكاد تتردى فيها . ويشهد الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر على الثورة الباطنية التى أخذت فى الظهور ، وعلى الثورة الظاهرية المقبلة . وكان القرن التاسع عشر بأسره وهو من بين جميع القرون فى التاريخ الروسى أعظمها فى القدرة الخلاقة — قرن الثورة الآخذة فى النمو ، ذلك أن روح الانشقاق والتصدع التى ميزت هذا العصر قد وصلت بالقدرة الخلاقة الروسية الى أعلى درجات شدتها . والأدب الروسى فى هذا القرن لا ينتمى بروحه الى عصر النهضة ، ولا نجد الا فى بوشكين ومضات من عصر النهضة ، كان ذلك العصر هو العصر الذهبى للشعر الروسى . بيد أن هذه النهضة الروسية تحققت فى دائرة ضيقة جدا من طبقة النبلاء الروس ، وسرعان ما بلغت نهايتها ، واتخذ الأدب مسارب أخرى .

واذا بدأنا بجوجول ، رأينا أن الأدب الروسى كان تعليميا didactic فهو يبحث عن الحق والعدل ، ويدعو الى تطبيق الحقيقة على الحياة الفعلية . ولم يولد الأدب الروسى من وفرة خلاقة سعيدة ، بل من العذاب ، ومن مصير البشرية المؤلم ، ومن البحث عن الخلاص للناس كافة ، بيد أن هذا معناه أن الموضوعات الجوهرية فى الأدب الروسى كانت دينية ،

وأن هذا الأدب يشهد بتعاطف مع البشرية أذهل العالم كله . وفى الكتاب الروس وضعت مشكلة الثقافة فى حدة خاصـــة ، بل ان تبرير الثقـــافة كان موضع شك ، كما نلمس ذلك فى تيارات الفكر الاجتمـــاعى الروسى ، وهذا راجع الى تركيب الروح التى ولدتها الأرثوذكسية ، وهى روح بقى فيها عنصر من الزهد قوى جدا ، وبحث عن الخلاص ، وانتظار حياة أخرى أسمى . والواقع أن جوجول وليوتولستوى ودوستويفسكى قـــد وضعوا أيديهم الى حـــد كبير من الناحية النفسية فى أيدى بلنســـكى ، وباكونين وتشرنشفسكى وبيسارف و « الشعبيين » فى السبعينات ، على الرغم من أنهم كانوا ضد المـــادية ، وأعمالهم مصطبغة بصبغة دينية . هذا بينما نجد من النادر أن يراود الشعوب الغربية أى شك فى تبرير المدنيـــة ، فهذا شك روسى صرف ، لم يثر بين أولئك الروس الذين لم يتلقوا حظا من الثقافة بعد ، بل بين أولئك الذين بلغوا من الثقافة أعلى مستوياتها . وقـــد كان الكتاب الروس — وخاصة أوفرهم شهرة — لا يؤمنون بثبات المدنية ، واستقرار تلك المبادىء التى يقوم عليها العالم ، أو ما يسمى العـــالم البورجوازى فى عصرهم ، فهم ممتلئون بنذر رهيبة عن الكارثة القادمة .
أما الأدب الأوروبى فلم يعرف هذا اللون من القلق الدينى والاجتمـــاعى ، ذلك انه ينتمى الى مدنية أكثر ثباتا وتبلورا ، وتكونا ، وهدوءا ، واكتفاء بذاتها ، وأشد تنوعا وتوزعا بين مقولات . والتكامل ينتمى — على وجه الخصوص — الى الروس — ســـواء فى الفكر أو فى الحياة الخلاقة . والمفكرون الروس ، والمبدعون الروس حين يكونون من ذوى الامتيـــاز الروحى ، لا يبحثون عن الثقافة الكاملة ، أو الانتاج الكامل للقدرة الخلاقة ، بحثهم عن الحياة الكاملة ، وعن التعبير عن الحقيقة فى الحيـــاة . وهذا يفسر واقعية الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر ، تلك الواقعية التى كثيرا ما أسىء فهمها . فلقد بلغ الأدب الروسى العظيم مرحلة تجاوز فيها الكلاسيكية والرومانتيكية الأوروبيتين . كان أدبا واقعيا ، ولكنه لم يكن بكل تأكيد واقعيا بالمعنى الذى قصده المدرسيون من الكلمة . انه واقعى بالمعنى الدينى ، وقد كان فى أعلى صوره دينيا خالصا . وهو واقعى بمعنى الكشف عن الحقيقة . وعن أعماق الحياة . وفى هذا المجال كانت طريقة جوجول أكثر رومانتيكية ، وطريقة تولســـتوى أكثر كلاسيكية . وعاش

الكتاب الروس فى حدة غير مألوفة مأساة القوة الخـلاقة التى تواجهها الحاجة الملحة الى تغيير الحياة نفسها ، والى التعبير عن الحقيقة تعبيرا فعليا ، وكان جوجول وتولستوى على استعداد للتضحية بخلق أعمال ادبية كاملة فى سبيل خلق حياة كاملة ، ولم يكن الكتاب الروس مقيدين بمعايير المدنية التقليدية ، ومن ثم لمسوا سر الحياة والموت ، واجتازوا حـدود الفن ، وهكذا كان جوجول وتولسـتوى ودستويفسكى . وكان بوشكين هو وحده الذى وضع مشكلة الحرية فى النشاط الخلاق ، ومشكلة استقلال النشاط المبدع للشاعر ، واستقلاله عن « الدهماء » التى لم يكن يقصد بها الشعب ككل بالطبع ، وانما قصد بها النبلاء والموظفين ومجتمع البلاط الذى عاش بين ظهرانيه . وكان جوجول قد وضـع فعلا مشكلة رسالة الفن الاجتماعية ، ورسالة الفنان تجاه الخدمة الاجتماعية ، وكان يريد ما تدعوه الشيوعية الروسية اخضاع الفن للأهـداف الاجتماعية sotsialny zakaz . وقد وقف الكتاب الروس العظـام فى عصرهم متوحدين ، ضد المجتمع المحيط بهم ، ولكنهم لم يكونوا فرديين عن مبدأ ، وانما كانوا يبحثون بطرائقهم المتباينة عن الفن الشعبى الجماعى الصادق . ولقد حقق الأدب فى فضحه لمظالم المجتمع القائم ، وفى بحثه عن الحقيقة ، وعن التكفير ، رسالة اجتماعية تعد فى نظر الكثيرين — وذلك تمشيا مع التكوين الروحى الروسى — رسالة دينية اجتماعية .

وكان الشعر الروسى حافلا بالتنبؤات عن الثورة المقبلة ، بل كثيرا ما حث عليها وقد عد « بوشكين » منشد روسيا الامبراطورية ، والواقع أن ثمة كثيرا من الأدلة يمكن أن تنهض على النظر اليه بوصفه «امبراطوريا» فى نظرته العامة ، كما أنه أقل خروجا على النظـام القائم من غيره من الكتاب . وكان ينظر الى بطرس الأكبر بوصفه بطلا جديرا بالتقديس . وكانت تلهمه عظمة روسيا ، ولكن بعد أن نشر شعره كله ، أصبح من الواضح أن كثيرا من قصـائده ثورية ، وثمة فرق كبير بين النصف الأول والنصف الثانى من نشاطه الأدبى ، ويمكن أن نلمس هذا من تحول موقفه ازاء راديشتشف ، فبوشكين ينتمى الى جيل الديسمبريين ، وهؤلاء كانوا أصدقاءه ، غير أن تحطيم الحـركة الديسمبرية أقنعه بسطوة الملكيـة

الروسية . وهناك جانبان لبوشـــكين ، أو وجهان ، فهو يعشق عظمة روسيا وسطوتها ، ولكنه يهيم بالحرية أيضا هياما شديدا . وحبه للحرية حب خاص مطلق متميز عن حب الانتلجنسيا لها ، فهو الشاعر الحقيقى الذى تغنى بالحرية .

« نحن ننتظر ، وقلوبنـــا المشوقة تخفق
بالأمل فى الحـــرية المقدسة ، كما ينتظر
عاشق شاب لحظة لقائه بمعشوقته . »

وفى بوشـــكين ، يتحـــد شيئان فى لحظة واحدة ، شيئان كانا دائمـــا منفصلين بيننا : أيديولوجية الامبراطورية ، وأيديولوجية الانتلجنسيا . وقد كتب عن نفسه قائلا :

« وسيتذكرنى القـــوم البســـطاء طـــويلا ،
لأن قيثـــارى جعل قلوبهم الى الحنـــان تميل ،
وبالرحمة أهبت لأولئك الذين يسقطون ويهلكون ،
وبمدائح الحرية تغنيت فى هذا العصر القاسى » .

وفى قصيـــدته « القرية » يصف بوشـــكين سحر الريف الروسى وشاعريته ، ولكنه يتذكر فجأة الظلم والعبودية والظلام التى يرتبط بها سحر هذه الحياة الريفية ، وأن ذلك السحر لا يوجـــد الا بالنسبة للأقلية المحظوظة ، فيختم قصيدته بهذه الأبيات :

« آه .. متى أرى يا أصدقائى شعبا لا يطحنه البؤس ؟
وقيصرا يزيح العبـــودية ليجعلهـــا نســـيا منسيا ؟
وهـــل ستشرق الحـــرية كالفجـــر المجيـــد على بلادى
وترفرف أخـــيرا بأجنحتها التى ينسكب منها النـــور ؟ »

بيد أن قصيدة « الحرية » هى من القصائد الهامة خاصة فيما يتعلق بالمزاج الثورى لبوشكين ، وفيها يقول :

« اننى اتغنى بحـــرية العـــالم
وأصب اللعنة على العروش الملكية »

وفى هذه القصيدة عبارات عنيفة عن القياصرة :

« أيهـــا الطـــــاغية الشرير ،
عليـــك وعلى أهلـــكَ مقـــتى !
وفى سرور غامــــر أهب بذرتــــكَ
للموت ، وأقدمك للهلاك الأبدى ! »

كان بوشـــكين على بينة بالعنصر المتمرد فى الشعب الروسى ، وتنبأ بامكان قيام « ثورة روسية لا رحمة ولا هوادة فيها » ، ولا ينبغى أن نبحث فى بوشكين ، فى أشد حالاته انسجاما — عن الانسجام الكامل ، فهو يدركَ ما تعانيه روسيا الامبراطورية من أسقام وتصدع ، ومظالم .

بيد اننا نستخلص انطباعا أشد فظاعة من قصيدة لرمنتوف المسماة « نبوءة » وعلى الأخص لأن هذه النبوءة قد تحققت :

« سيأتى ذلكَ اليـــوم ، ذلك اليوم المظلم لروســـيا ،
حين يهوى تاج القيصر .. وهؤلاء الذين أحبـــوه يوما
لن يحبوه بعد ، وسيعيش الكثيرون على الموت والدماء .
لن يمنح القانون الذى وطىء بالأقـــدام مأوى للطفل
أو المراة البريئـــة . وسيجوب الطـــاعون المنبعث من
الجثث المتعفنة الأرض التى نزل الحـــزن بساحتها ،
وينتقـــل من كـــوخ الى كـــوخ طالبـــا معـــونة
لا يستطيع أن يقدمها أحـــد ،
وستقبض آلام المجـــاعة الرهيبة على مخنـــق الريف
بمخـــالب لا ترحـــم .

وسيلقى الفجـــر على الجـــداول ضــوءا قرمزيا . .
وهناك ، سيتبدى الرجل القوى الذى سوف تعرفونه ،
وستفهمون ما يريد لانه يمسك بنصل لامع فى يديه .
الحزن سيكون نصيبكم ، وسيذيب الاسى عيونكم . .
وسيهزأ بدموعكـم وتأوهـــاتكم جميعـــا . »

هذه القصيدة الرومانسية التى نظمت سنة ١٨٣٠ ، تتنبأ بفظائع

الثورة التى حدثت بعد ذلك بقرن تقريبا .

والشاعر الروسى العظيم الثالث هو تيوتشف Tyutchev يعتنق نظرة محافظة أكثر منها ثورية ، ولكنـــه كان يشعر طيلة الوقت بأن ثورة رهيبة ستحيق بالعالم . وكان تيوتشف وان يكن ذلك تناقضا غريبا مع نظرته العامة المحافظة الميالة للنزعة السلافية — يشعر شـــعورا حادا بالعناصر المضطربة اللامعقولة ، المظلمة التى تنتمى الى ليل العـــالم . وما يتبدى فى العالم من انسجام ونظام يلوحان له هزيلين غير مستقرين :

« على شـــفا هـــوة مخيـفة
يقف الانســـان شريـــدا يتيما
عاجـــزا عاريا ، يقف وجهـــا لوجـــه
أمام هـــذا الخـــلاء المظـــلم :
ويبـــدو له كـــل ما هو سريع ، وكـــل
الأشـــياء الســـعيدة ، والنـــور . .
يبدو له كل هـــذا الآن حلمـــا مضى
منـــذ أمد بعيـــد ،
والأشياء الغريبة ، التى لا حل لهـــا ،
تكشف له ، حين تتكاثف الظلمـــات ،
تكشف له أخـــيرا عن تراث المصير . »

وهذا العنصر العنيف المختلط لا يوجد فى الطبيعة وحدها بل فى التاريخ أيضا ، ولتيوتشف تنبؤات بكوارث فى التاريخ وبانتصار قوى العماء التى سوف تقضى على الكون . وكان محافظا لا يؤمن بثبات المبادىء المحافظة ، ولهذا شيد مدنية طوباوية رجعية لانقاذ العالم من الثــورة التى تسودها الفوضى ، وتخيل أن المسحية يمكن أن تستخدم كقوة محافظة ، وأشعاره السياسية الخالصة ضعيفة ، وقصائده الكونية وحدها هى الجديرة بالاعتبار .

ولم يكن خومياكوف ــ زعيم مدرسة السلافوفيل ــ ذا طبيعة تنبؤية ، ومع أنه مفكر قوى ، فانه شاعر متوسط ، بيد أنه قد نظم مجموعة كاملة من القصائد الهجائية الحادة يمكن أن نتبين منها أنه على الرغم من تمجيد السلافوفيل للماضى التاريخى ، فانه كان يعانى من خطايا روسيا التاريخية الكبيرة ، وكان يعتقد أن روسيا موكلة بتعريف العالم « شعائر الحرية » وباغداق « روح الحرية المقدسة » . وعلى الرغم من أن روسيا « ليست جديرة بهذا الانتخاب » الا أنها قد « أختيرت » :

ولكن ، وا أسفاه ، أى خطــــايا تجثم الآن
ثقيــلة ، عديدة ، رهيبــة على روحــك .
أنت ســـوداء بظلمــك الأســـــود ، وقــد
دفعتك العبــــودية بنيرها . . وكل ما فيك
من ريــاء شرير ، وكذب أشر ، وخمــــول
ينكر الحيـــاة ، ويجلب العـــار . .
كــل ما هو بغيض فيــك .. أراه . »

ويدعو خومياكوف الى التكفير قائلا :

« لكــل من يصرخ طالبـــا العــزاء ،
ولكــــل قـــانون انتهكنـــــاه ،
وللآثـــام التى تلطـــخ جيلنـــــا ،
وللأفعال الشريرة التى يعرفها آباؤنا ،
ومن أجل ما فى وطننا من آلام مريرة ،

فلتصـــلوا بعموعكم ما دمتم أحيـــاء .
يا اله القوة . . برحمتك أغفر لنـــا .
أغفر لنــــا ! »

وهو يتهم الدولة الروسية بالاذعان لأحط ضروب الاغراء ، ويحبها للقوة المـــادية ، ولهذا رحب بهزيمتها فى حرب القرم بوصفها عقوبة عادلة . ولم تكن لديه أية رغبة فى أن يرى رسالة روسيا فى الحصـــول على القوة السياسية ، وطالب بالتحقيق الفعلى للعدالة ، وفى هذا يتبع التقليد الذى سنته الانتلجنسيا .

وقد آلم « جوجول » أن روسيا فى قبضة روح الشر والظلم ، وأنها حافلة بالأقنعة الزائفة ، وأن من العسير العثور على كائن بشرى فيها . ومن الخطـأ أن نرى فى جوجول مجرد كاتب ساخر ، فقـــد كان يرى العمق الميتافيزيقى للشر ، لا مجرد مظهره الاجتماعى فحسب . ولم يعد وجود الآن لروسيا القديمة المنتمية الى عصر جوجول بشرورها ومظالمها ، ولم تعد هناك ملكية مطلقة ، أو قنية ، أو أى من ضروب التفاوت القـــديمة ، بيد أن روسيا التى عاش فيها جوجول لا تزال — بمعنى أعمق — باقيـــة فى روسيا السوفيتية أيضا ، وما برحت روسيا السوفيتية زاخرة بالأقنعة الزائفـــة ، وصورة الانســـان مشوهة فيها . وشخصيات خلستاكـــوف Khlestakov ونوزدرف Nozdrev وتشتشيكوف Chichikov تلتقى بها أيضا فى روسيا الشيوعية السوفيتية أيضا . وفيها أيضا يتاجرون فى « الأرواح الميتة » ، والمفتش المزيف يرهب كل انسان . ولقـــد تغلغل جوجول — فوق كل شىء — فى روح الزيف التى كانت تعـــذب روســـيا . واجتاز تجربة دينية فاجعة ، وسحقته وطأة الشر التى شاهدها ، وقلما كان يرى شيئا من الخير فى الحياة كما أنه لم يكن يرى صورة الانسان ، ولهذا بحث عن مهرب بأن جعل الحياة مسيحية ، وسجل هذا البحث فى كتابة : « مراسلات مع الأصدقاء » وقد أثار هذا الكتاب احتجاجا عنيفا من جانب « بلنسكى » اذ رأى فيه خيانة للمثل الانسانية التقدمية المحبة

للحرية . بيد أن جوجول فى كتابه « مراسلات مع الأصدقاء » قد فهم اضفاء الطابع المسيحى على الحياة بعقلية ضيقة ، وبطريقة معادية للمجتمع ، ولهذا يمكن تفسيره بوصفه مدافعا عن النظام القائم ، بل عن العبودية . وفى كتابه أيضا أشياء كثيرة منفرة ، وأمور كثيرة لا تتفق مع عمق المـأساة الدينية التى عاناها ، فهو انعكاس لتناقض الحيـاة الروسية وقبحها . وهنـاك عنصر قوى من الزهد فى طبيعة جوجول .. وهو عنصر روسى مميز ، ادى به الى فرض الرقابة على عمله الأدبى نفسه .

وفى مطلع القرن العشرين اتضح طابع التنبؤ الذى اتسم به الشعر الروسى وضوحا لا مزيد عليه ، فكان شعر الانهيار ، شعر نهـاية عصر بأكمله ، وفيه عناصر انحـلال قوية . وبرغم ذلك كان هذا الشعر يرى الفجر يوشك أن ينبلج . وكان الشعراء الرمزيون يشعرون بأن روسيا تساق الى هوة ، وافزعهم هذا أحيانا ، كمـا ادخل الفرحة على قلوبهم أحيانا اخرى ، اذ جعل من الممكن قيـام حياة جديدة افضل ، كانت الرمزية تعبيرا عن انفصال الأدب عن النشاط الاجتماعى وهروبا الى عالم آخر ، غير أن الرمزيين الروس من أمثال ف. ايفانوف V. Ivanov و أ. بيلى A. Belii و أ. بلوك A. Blok كانوا يعانون فى الوقت نفسه من الوحدة ، وكانوا يتطلعون الى فن ينتمى الى الشعب بأسره ، فحاولوا التغلب على الزهد الانحلالى الذى أخـذ فى الظهور ، وكانوا فى الواقع يبحثون عن اخضـاع الفن للغـايات الاجتمـاعية sotsialny zakas اذا شئنا أن نستخدم المصطلح السوفيتى . ومن أشعار النبوءة عن الروسيا تلك الأبيات التى كتبها « أ. بلوك » أعظم الشعراء فى مستهل هذا القرن ، اذ يقول :

« انى لاستمع الى ضجيج الأعداء الضارى
وابواق التتـار الحـادة تنـادى ،
وفـوق روسـيا أرى نـارا هـادئة
تنتشر بعيـدا ، لتشـمل كل شىء » .

وفى قصيدة أخرى من مجموعة : « حقل كوليكوف » يقول :

« الأميال تومض ، والحقــول تتابع ،
أوقفوهـــا . فانهـــا لم تعـــد بعد . .
والســـحب المذعـــورة تمضى وتمضى
لتغوص فى الدمـــاء ! »

بيد أن شعوره تجاه روسيا وتنبؤاته عن روسيا ، تجد تعبيرا غريبا عنها فى القصيدة المذهلة « روسيا » اذ يقول فيها :

« اى روســـيا ، روســــيا الفقـــيرة المعـــدمة ،
ان أكـــواخ الفـــلاحين الرمـــادية فيـــك ،
وموســـيقى رياحـــك مقدســـة بالنســـبة الى
كالدمـــوع التى ذرفتهـــا فى حـــبى الأول .
ليس من شيـــمتى أن أعطـــف عليـــك ،
وانمـــا أحمـــل صليبى حتى تتماثلى للشـــفاء .
والى أى ســـاحر تريدين
أن تســـلمى جمـــالك الجـــارف ؟
دعيه يغريك ، دعيه يخدعك
فلن تهـــلكى . وســـواء عشـــت آمنـــا ،
أو نزلت بى المصـــائب ، فســـوف المحـــك ،
وسيظـــل مجـــدك المحتجب قائمـــا هنـــاك
ماذا اذن ؟ ان المرء ليهتم بالحـــزن أكثر من سواه .
والجداول أعلى ضجيجا ، لأنها تشارك فى هذه الدمعة —
وغاباتك وحقولك ستمتد غدا ،
وسيحيط هـــذا الوشـــاح الموشى بشـــعرك . »

وثمـــة شاعر رمزى آخر هو « آندريه بيلى » Andrei Belii يهتف فى احدى قصائده قائلا : «انشرى نفسك فى الفضاء .. اى روسيا .. روسياى» وقد كان شعراء الفترة التى سبقت الثورة صوفيين ، تنبئيين ، فهم يؤمنون بالحكمة الالهية (صوفيا) وبأنواع جـــديدة من الوحى ، ولكنهم لا يؤمنون

بالمسيح ، ولم تكن أرواحهم موضوعة فى أغمدة من الصلب ، بل كانوا عزلا ، ولكن ربما كان هذا هو السبب فى تفتحهم على مؤثرات آتية من المستقبل ، وفى تقبلهم للثورة الباطنية التى لم يكن الآخرون يلاحظونها .

وقد أحس الكتاب الروس فى القرنين التاسع عشر والعشرين بأنهم يقفون على شفا هوة ، ذلك أنهم لم يكونوا يعيشون فى مجتمع مستقر ، وفى مدنية قوية محددة ، فأصبحت النظرة المثقلة بالكارثة سمة مميزة للمبدعين الممتازين من الروس ، اذ لم يكن من شـــأن ثقافة كلاسيكية قوية مستقرة بخطوطها المتسعة ، ومجالاتها المتنوعة ، ومعاييرها وروح تناهيها ، وخوفها من اللا نهائية ، ليس من شأن مثل هذه الثقافة أن تؤدى الى الاحساس بالنذر ، والى التنبؤ بالمصير ، لأن مثل هذه الثقافة تحصن الروح بدروع ، وتحول بينها وبين تلك المؤثرات التى تأتى من مستقبل مجهول . ولقد أقيم فى روسيا بناء أخروى eschatological structure للروح ، وفى مجابهته للمستقبل ، واجهه وهو ينطوى على نذر الكارثة ، وبهذا نمى فى نفسه حساسية صوفية خاصة . أما الروح الغربى فكان يقبع فى مدينته آمنا مطمئنا . أما نحن ، فكان الجو الذى يسبق الثورة يتزايد تزايدا مطردا . وكانت روسيا القرنين التاسع عشر والعشرين مختلفة اختلافا جوهريا عن روسيا فى العصر المسكوفى ، فقـــد كان لهذه الأخيرة أسلوبها الخاص فى الحضارة وكانت مقيدة بأشكال محددة . ولم تكن الروح قد استيقظت بعد ، على الفكر أو على النقد ، ولم تصل بعد الى مفترق الطرق . وأحدثت لمسة الغرب للروح الروسية تحولا .. تحولا اتجه اتجاها مختلفا تمـــام الاختـــلاف عن شكل المدنيـــة الغربيـــة .

واتسم تأثير الغرب على روســـيا بالمفارقة المطلقة ، فهو لم يحفر المعايير الغربية على الروح الروسية ، وانمـــا على العكس من ذلك أطلق تأثيره قوى عنيفة ديونيزوسية دينامية ، وأحيـــانا شيطانية demoniac من عقالها ، فلقد تحررت الأرواح فكشفت عن قوة دينامية كانت مجهولة فى الفترة السابقة على بطرس . والمطامح اللامحدود التى تراود الانسان الفاوستى فى الغرب ، ذلك الانسان الذى ينتمى الى التاريخ الحـــديث — هذه المطامح قد كشفت عن نفسها فى روسيا بطريقة غريبة كل الغرابة ، وبأسلوبها المتميز تماما ، ووجدت عنهـــا تعبـــيرا فيمـــا أبدعتـــه عبقرية دوستويفسكى . أما روسيا التى ورثت عن المـــاضى ، روسيا طبقة النبلاء

وطبقة التجار ، وطبقة أصحاب الحوانيت ، تلك الروسيا التى أبقى عليها عصر الامبراطورية ، فقد دخلت فى صراع مع روسيا الانتلجنسيا التى كانت ثورية ، وثورية اجتمـــاعية فى روحها ، روســـيا التى كانت تتطلع الى اللا متناهى وتبحث عن « المدنية » القـــادمة . وهذا الصراع أطلق قوى دينامية من عقالها وأدى الى انفجارات ، وفى الوقت الذى كانت فيـــه الاستنارة والثقافة الغربيتان تقيمان نوعا من النظـــام يتمشى مع المعايير المحددة ، وان يكن بالطبع نظاما نسبيا ـــ كانت الاستنارة والثقافة فى روسيا تطوحان بالمعايير ، وتنتهكان الحدود ، وتثير دينامية ثورية . وهذه الحال انعكست فى مؤلفات الكتاب الروس جميعـــا .

(٢)

وانعكست الثورة الباطنية التى كانت متصلة فى روسيا أكثر ما انعكست فى عمل دوستويفسكى الخلاق ، ولكنها انعكست فى تولستوى على نحو مختلف، ذلك أن فن الأخير لم يكن تنبؤيا ، بل كان ثورة فى حد ذاته . ومما له أهمية أن نعقد الموازنة بين هاتين العبقريتين الروسيتين العظيمتين . فالعلاقة بين العنصر الفنى والعنصر العقلى تقيم بينهما تضادا حادا ، اذ كان دوستويفسكى فنانا ديناميا ، بل لعله أشد الفنانين دينامية فى العالم .(١) وكل شىء عنده غائص فى جو أثيرى فائر ، كل شىء فى حركة عنيفـــة ، ولا شىء قد تحدد أو اتخـــذ شكلا نهائيا . دوستويفسكى فنـــان ديونيزوسى . وهو يعبر عن الروح الثـــورية ، ويكشف عن ديالكتيك الثورة ، والعنصر التنبؤى قوى فيـــه غاية القـــوة . لقـــد واجـــه المستقبل ، وتنبـــأ بالكثـــير ممـــا حدث فيـــه : تنبـــأ بالثورة الروســـية ، وكشف عن الأفـــكار التى تحكمت فيهـــا . غير أن نظرة دوستويفسكى كمـــا وضعها فى كتابه « يوميات كاتب » تعطى انطبـــاعا بأنها صـــادرة عن نزعة محافظة ، وان تكن نزعة محافظة غريبة تنطوى على شىء من الثورة . أما تولستوى فهو فنان الحياة المستقرة المتشكلة ، واذا كانت روايات دوستويفسكى مآس ،

(١) راجع كتابى « نظرة دوستويفسكى الى الحيـــاة » .
Dostoyevsky's Outlook on Life

فان روايات تولستوى ملاحم . ولم يكن تولستوى تنبؤيا بوصفـــه فنانا ، اذ لم يكن يتطلع الى المستقبل . وديناميه دوستويفسكى ونزعته التنبؤية راجعتان الى أنه كان غارقا تماما فى المشكلة الانسانية ، وكان الانســـان هو موضوع فكره . أما فى فن تولستوى (الذى تعد رواياته أكمل الروايات فى الأدب العالمى) فالحياة الانسانية ممتزجة بالحياة الكونية ، ومختلطة بدورانها . دوستويفسكى يتحرك فى التاريخ ، أما تولستوى فيتحرك فى الكون . والدينامية والتنبؤ لا ينتميان الى الحياة الكونية . وانمـــا ينتميان الى التاريخ بالذات .

ومن ناحية أخرى ، كان تولستوى ثوريا من حيث الفكر ، بالتأكيد ، وثوريا فضح مظالم الحياة ، وكان فوضويا وعدميا ، تمرد على التـــاريخ والمدنية بروح راديكالية لم يسمع بهـــا من قبل ، فلا ينبغى للانسان أن يضيع قوانين العالم ، بل عليه أن يطيع قانون سيد الحياة الأعظم واعنى به الله. وكان بالتأكيد معارضا للشيوعية اذ لم يكن يقبل العنف ، وكان عدوا لكل الحكومات ، ويرفض تكنيك الحياة وتنظيمها العقلى ، ويؤمن بالأساس الالهى الذى تقوم عليه الطبيعة والحياة ، ويدعو الى الحب لا الى البغض ، ويمكن أن يعد بطريقة سلبية سلفا للشيوعية ، فهو ينكر الماضى ، وتقاليد التاريخ ، والثقافة القديمة ، والكنيسة والدولة ، ويرفض كل ظلم اقتصادى واجتماعى بين النـــاس . وهو يثور على الطبقات الحاكمـــة المتمتعة بالامتيازات ، ولا يضمر أى حب « للصفوة » المثقفة . وفى « الشعبية » الروســـية التى ظهرت فى السبعينات ، لم يلعب نمط « النبيل المعذب الضمير » دورا ضئيلا، غير أن تأنيب الضمير الذى تعانيه الطبقات الحاكمة قد بلغ فى تولستوى أوج شدته . وكان تولستوى مشبعا تمام التشبع بفكرة قيام حياة المجتمع المتحضر على الأكاذيب والحيف . وأراد أن يقطع صلته بهذا المجتمع قطعا تاما . وفى هـــذا الاتجاه كان ثوريا ، ولكنه كان يرفض العنف الثورى . وكان دوستويفسكى ثوريا هو أيضا على الرغم من المظهر المحافظ الذى اصطنعه فى الكثير من آرائه . انه يبغض الانتلجنسيا الثورية ويدينها ، لأنه تنبأ — على وجه الخصوص — بانكار حرية الروح بوصفهـــا النتيجـــة النهائية لأفكار

ثورة قائمة على الالحاد ، والالحاد فى نظر دوستويفسكى يؤدى حتمـا الى انكار حرية الروح ، ويمكن أن نرى هذا بوضوح فى كشفه عن العبقرية الديالكتيكية فى « أسطورة المحقق العام » وفى شخصية « ايفان كارامازوف ». وهنا تكمن اصالة الاتهـام الذى وجهـه دوستويفسكى الى الانتلجنسيا الثورية . وفى توجيهه لهـذه الاتهامات بدافع عن حرية الروح ، وهـذه الحرية عند دوستويفسكى ثورية تماما ، كمـا يخلع « المحقق العـام » من كل كنيسة ودولة . وفى روايته « الممسوسين » يرى بوصفه رسول الثورية الروسية ، فلقـد تنبأ بأشياء كثيرة ، ولكنه لم يكن منصفا فى كثير من الأحيـان .

ودوستويفسكى ثورى بروحه ، وهو يريد الثورة ولكنه يريدها ثورة لا تخلو من الله والمسيح ، فقد كان عدوا للاشتراكية الملحدة ، التى كانت فى نظره مظهرا آخر لغواية « المحقق العام » ، وتسليمها لحرية الروح من أجل الطعام والسعادة . ولكنه لم يكن بحال من الأحوال مدافعا عن العـالم البورجوازى القديم . وكان اشتراكيا أيضا على أسس أرثوذكسية ، فهو اشتراكى لا يتخلى عن المسيح . ولقـد أقام مدينة فاضلة يسودها الحكم الالهى ، فهى انكار للعالم القديم ، وانكار للدولة وللحياة البورجوازية . وفى هـذا كان روسيا صميما . وفى أواخر حيـاته تحول فصار أقرب الى المرارة وانضم الى الرجعيين ، ولكنهم لم يستطيعوا فهمه . غير أن تولستوى ودوستويفسكى تمردا على مظالم القوانين الانسـانية ، وعبرا عن روح المتناقضات الروسية ، وكانا عدوين للعالم البورجوازى ومعاييره . وكان كل منهما يبحث — وان اختلفت وسائلهما — عن المسيحية الحقة ضـد انحرافات المسيحية التاريخيـة ، ولم يكن فى الامكان ظهـور تولستوى ودوستويفسكى الا فى مجتمع يتحرك صوب الثورة ، وتتراكم فيـه المواد المتفجرة . وكان دوستويفسكى يدعو الى الشيوعية الروحية ، والى مسئولية الجميع عن كل فرد : وعلى هذا النحو كان يفهم « السوبورنوست » (١)

---

(١) هو الجانب الباطنى العضوى المنسجم من الكاثوليكية — انظر المقال الذى كتبه ج. فلورونسكى فى مجلة « كنيسة الله » سنة ١٩٣٤

الروسى . وما كان من الممكن أن يتكيف مسيحه مع معايير المدنية البورجوازية . أما تولستوى فلم يكن يعرف المسيح ، وانما كان يعرف تعاليم المسيح فحسب ، ولكنه كان يدعو الى فضائل الشيوعية المسيحية ، وقد رفض الملكية الخاصة ، والمظالم الاقتصادية جميعا .

وأفكار دوستويفسكى وتولستوى تقف على حافة « الاسكاتولوجى » (علم اشراط الساعة) ، شأنها فى ذلك شأن كل تفكير ثورى . وكان كل منهما يبشر بانسانية خاصة fsyechelovechnos وهى فكرة روسية صميمة. والنزعة العالمية تشويه لهذه الفكرة الروسية وللشمولية المسيحية . والشعب الروسى — وفقا لدوستويفسكى — هو « كريستوفر » بين الأمم ، فهو الشعب الذى يحمل الله الى الحياة الانسانية لأن لديه هذه الفكرة الانسانية الشاملة ، فكرة الأخوة الانسانية الشاملة . وقد كان دوستويفسكى متناقضا فى موقفه من الغرب ، اذ كان يحبه ويبغضه فى آن واحد ، كما كان ثمة تناقض أيضا بين الفكرة الانسانية الشاملة التى نسبها للشعب الروسى ، وبين كراهيته القومية الحادة . وكان يعتقد أن النور يمكن أن يأتى من الشرق ، غير أن الاقليمية provincialism والقومية اللتين كانتا غريبتين دائما عن الفكر الروسى ، لم تكونا جزءا من نظرته العقلية . ذلك أن القومية كانت دائما على الأرض الروسية — مستعارة من الألمان. وقد كان تولستوى ودستويفسكى متحدثين باسم ثورة شاملة للروح ، ولا ريب أنهما كانا يفزعان من الثورة الشيوعية الروسية بما فيها من انكار للروح ، ومع ذلك فقد كانا من أسلافها .

و « قسطنطين ليونتييف Konstantine Leontyev شخصية ذات طرافة ودلالة عظيمتين فى هذا المجال من التحذير والتنبؤ فى الأدب الروسى .(١) كان « ك. ليونتييف » فنانا ، وداعية ، وعالما فى الاجتماع ، وكان مفكرا

---

(١) راجع كتاب : « قسطنطين ليونتييف : صورة تخطيطية لتاريخ الفكر الدينى الروسى » .

أصيلا تمام الاصالة ، ولا ينتمى الى أية مدرسة أو تيار فكر) . وهو يعد عادة من الرجعيين ، ولكنه كان رجعيا رومانسيا يريد أن يوقف التقـــدم الليبرالى الذى يدعو الى المساواة ، لأنه يؤدى الى حكم التفاهة والسطحية، والى انهيار الحضارة المزدهرة المركبة . والاشتراكية فى نظره معناها حكم الروح البورجوازية ، واقامة فردوس أرضى رمادى وتسوية الكل بالكل ، وفقدان الفردية . وليونتييف الرجعى — مثله مثل هرتزن الثورى — يضع فى حدة تلك المشكلة الروسية المميزة ، وأعنى بها مشكلة « صاحب المتجر » البورجـــوازى الصغير . وكان يغض الروح البورجوازية هو العـــامل الحاسم فى حياة ليونتييف ، فلم يكن يحتمل فكرة أن « الرسل يبشرون » والشهداء يقاسون ، والشـــعراء ينشـــدون ، والمصورون يرسمون ، والفرسان تتألق أسماؤهم فى القوائم لا لشىء الا مجرد أن يعيش البورجوازى الفرنسى أو الألمـــانى أو الروسى فى ثيابه البشعة المضحكة حيـــاة فردية وجماعية وادعة على أنقاض عظمة المـــاضى كله » .

كان ليونتيف رجلا من رجال النهضة الايطالية فى القرن السادس عشر، ولكنه صار راهبا ، وكانت رهبنته سرا فى بداية الأمر ، ولكنه عاش فيما بعد فى دير أوبتيما بوستينا Optima Pustina تحت رعاية « الستاريتس آمبروز» Starets Ambrose وقد كانت النزعة الجمالية سمة بارزة فى شخصيته ، وللجماليات قيمة جوهرية فى نظره ، وظل حتى نهاية حياته منقسما على نفسه انقساما لا سبيل الى التغلب عليه ، فهو راهب من حيث علاقتـــه بالعالم المقبل ، ملكوت السماء ، وهو جمالى فى علاقته بهـــذا العـــالم ، عالم الحياة الدنيا ، ولم يكن يريد تحقيق المسيحية فى الحياة ، أو تحقيق العدالة الاجتماعية ، لأن هذا المعناه فى رأيه القضاء على الجمال ، وسيادة القبح ، مسيحية ليونتييف مسيحية متشائمة تتطلع بكليتها الى العـــالم الآخر .. ويعد « ليونتييف » فى كثير من النواحى سلفا لنيتشه . فارادة القوة ، والنظرة الارستقراطية للأشياء ، والشعور المأساوى بالحيـــاة ، والنزعة الجمالية ، والنزعة اللا أخلاقية ، وتركيز الانتبـــاه على الظروف التى تزدهر فيهـــا الحضارات وتذبل ، كل هذا يربط بين ليونتييف ونيتشه.

وتنبؤات ليونتييف عن الثورة الروسية ذات أهمية خاصة بالنسبة الى موضوعنا ، فقد جاء وقت أعتقد فيه أن ازدهار حضارة أصيلة غير برجوازية أمر ممكن فى الروسيا ، ولكن أوهامه فى الشعب الروسى والرسالة الروسية ، لم تلبث أن تبددت ، ومضى الى أبعد من ذلك ، فبدأ يرى أن رسالة الشعب الروسى الوحيدة هى أن يخرج من صفوفه المسيح الدجال وقد سبق له أن شعر فى الثمانينات بأن روسيا تتحرك حتما نحو الثورة ، وتنبأ بنوع الثورة التى سوف تحدث . وقد تراءت له الثورة الشيوعية فى وضوح وتفصيلات أعظم مما تراءت لدوستويفسكى ، وتنبأ بأن الثورة ستكون مستبدة دموية وانها لن تكون ليبرالية بل شيوعية ، وأنها لن تعلن الحقوق أو الحرية ، وأنها ستقضى علىالانتلجنسيا المتطرفة الليبرالية. ولن تكون هذه الثورة انسانية ، ولكنها ستحتاج الى الغرائز القديمة ، من سيطرة وخضوع . وسوف تجتذب الشيوعية شعوب الشرق ، وستمضى لابادة عالم الغرب البورجوازى.وهذا القضاء على العالم البورجوازى لم يكن يحزن ليونتييف فى شىء ، ولكنه أراد أن ينقذ آثار الحضارة الارستقراطية النبيلة ، ومن أجل هذا ، كان على استعداد لأن يقترح على القيصر ادخال الشيوعية من فوق ، وكان ليونتييف — وهو فى هذا يتفق مع التقليد الروسى — يمقت الرأسمالية والبورجوازية . ويصاحب تحذيرات ليونتييف وتنبؤاته شعور بنهاية العالم المقبلة .

وكانت الروسيا فى أواخر القرن التاسع عشر تسودها حالة تنبؤية طابعها التشاؤم ووراء هذا الشعور بنهاية العالم القادمة ، وملكوت المسيح الدجال ، يمكن أن نشعر بالنهاية المقبلة بالحقبة التاريخية كلها ، وبانهيار العالم القديم ، ولهذا الشعور جانبان : جانب حزين وجانب مفرح . ولم يكن الكتاب الروس ، من المتازين والمرهفين — يريدون أن يتصالحوا مع فكرة اجتياز روسيا لنفس ذلك الطريق المضطرب الذى اجتازه الغرب ، ذلك الطريق الذى يمر بالنزعات البورجوازية والعقلية والتحررية والانسانية .. وهذا المزاج التنبؤى يتخذ صورة أصيلة فى « فلاديمير سولوفييف » ، أهم الفلاسفة الروس . وفلسفة سولوفييف — ككل

الفلسفات الروســية الأصيلة ـــ فلسفة مسيحية . ولكى يبــدأ ، شيد جمهورية مثالية يسودها الحكم المسيحى الإلهى ، وكان يبشر بحكم الهى حر ، ويؤمن بامكان قيــام سياسة مسيحيــة . وهو يريد ـــ على عكس ليونتييف ـــ تحقيق العدالة المسيحية فى اكتمال الحياة ، فهو ممثل للنزعة الروسية الجامعة fsyechelovechnost وعدو لكل اقليمية قومية ، وهو ذو نزعة مسيحية شاملة ، وهو متعطش الى اتحاد الكنائس ، ولكنه كان فى وقت من الأوقات يميل الى الكاثوليكية الرومانية . وقد فسر المسيحيــة ـــ فى المرحلة الأولى من نشاطه ـــ تفسيرا متفائلا ، اذ كان يريد أن يربط التقدم بالنزعة الانسانية ، وكان يؤمن بامكان تنمية انسانية الهية على الأرض . ولكنه اجتاز سلسلة من تبديد الوهم ، وعانى من صدمة اثر أخرى ، فأرغم على الاعتراف بأن التاريخ لا يتحرك حقــا فى ذلك الطريق الذى رأى فيه انتصار الحقيقة المسيحية . والاحساس الحاد بالشر قد نما فى داخله ، وقد كان من قبــل ضعيفا ، وفى ختام حياته تبدد وهمه نهائيــا فى امكان اقامة حكم الهى حر شامل ، ولم يعــد يؤمن بطرق التــاريخ بعد ذلك ، وبدأ يفكر فى أن التاريخ قد بلغ نهايته وليس له أى مستقبل . لقــد استهلك كل شىء ، ويكتب سو لوفييف كتابه : « قصة المسيح الدجال » ، وفيهــا يتنبأ بأن الأخير يوشك أن يظهر ولن يكون تنظيم المجتمع الانسانى العالمى من صنع المسيحية أو حكم الهى مسيحى ، وانما من صنع هــذا المسيح الدجال . ويشعر سولوفييف بدور النزعة الجامعة المغولية pan - mongolism والخطر الذى يهدد روسيا وأوروبا من الجنس الأصفر ، والمزاج التنبؤى والاحساس بالنهاية الوشيكة لا تعنى عنده ـــ شأنه فى ذلك شأن ليونتييف ـــ نهاية العالم القادمة ، وانما نهاية الحقبة التاريخية ، انه تنبؤ بكوارث التاريخ فهو أشبه برؤيا النهــاية داخل التــاريخ apocahypse within history وكانوا يشعرون جميعــا أن روسيا معلقة على شفــا هوة .

وينطوى « ن. فيدوروف » N. Fedorov على دلالة عظيمة للمزاج الرؤياوى . الروسى لقد عاش فى نهاية القرن التاسع عشر ، ولكنه لم يشتهر الا فى القرن العشرين . وعند فيدوروف تتغير طبيعة المزاج الرؤياوى ، فهو من

الفلاسفة الدينيين — يتجه خاصة الى المستقبل ، ويفهم « الرؤيا » فهما ايجابيا لا سلبيا . وقد ظل مجهولا لا يقدره النـاس فترة طويلة على الرغم من أن شخصيات روسية عظيمـة مثل ل. تولستوى ، ودوستويفسكى ، وسولوفييف ، كانت تحله منزلة رفيعة . وقد كان ن. فيدوروف ، من حيث الشخصية — روسيا غريب الأطوار ، ولم يكن كاتبا أو فيلسوفا محترفا بكل تأكيد ، بل كان واحدا من أولئك الروس الذين يبحثون عن الخلاص من الشر والألم ، ويتطلعون الى ملكوت الله ، ولديهم خطتهم للخلاص . ويعتقد فيدوروف أن الكتب ينبغى الا تباع ، بل ان تمنح بلا مقابل ، وقد عاق ذلك انتشار أفكاره اعاقة كبيرة ، غير انه أصبح الآن عقب الثـورة ، أشهر المفكرين الدينيين الروس الذين عاشوا فى القرن التـاسع عشر ، وفى روسـيا السوفيتية مدرسة فكرية تتبع فيدوروف .. وهذا شىء مفهوم ، لأنه اذا كان فيدوروف قد عد نفسـه مسيحيا أرثوذكسيا فقـد كانت فيه ملامح كثيرة تلحقـه بالشيوعيـة ، وكان سلفا للنزعة الفعليـة actualism الحديثـة ، والأحوال التنبؤية الروسية نوعان : فثمة جوانب ثورية ، وجوانب رجعية فيهـا .. ولكن مما لا شك فيه أن الفهم السلبى للنزعة التنبؤية هو الذى كتبت له السيادة . وقد شعر الروسى بنفسه مشبعة بنسائم الصـوفية المنذرة بالنهاية المقبلة ، وتنبأ بحكم « ضد — المسيح » المحتوم ، ولذلك كان يعيش دائمـا فى حالة توقـع ، المستقبل يفزعه ، فان ما هو وارد فى « سفر الرؤيا » يتنبـأ بمـا سوف يحدث للانسان ، غير أن الانسـان ليس فاعلا ايجابيا فى تحقيق هذه النبوءة . فالرؤيا تفهم على أنها مصير قدره الله ، ولا تلعب فيـه الحرية الانسانية دورا أيا كان .

أما عند « فيدوروف » فان معنى « الرؤيا » يطرأ عليه تغيير حاد ، فقـد فهم نبوءة الرؤيا عن مملكة ضد — المسيح ، ونهاية العـالم ، ويوم الحساب ، على أنها تهديد . ولا شىء من القدر المحتـوم فيها ، فاذا اتحد الناس للقيام « بالمهمة المشتركة » .. مهمة انهاض الموتى لتحقيق العدالة المسيحية فى الحياة تحقيقا صادقا ، واذا حاربوا فى اتحاد أخوى قوى الطبيعة العنصرية اللا معقولة التى تجلب الفنـاء والموت ، فحينئذ لن تقوم لمملكة

ضـد ـ المسيح قائمة ، ولن تكون نهـاية للعـالم ، أو يوما للحسـاب وحينئذ سوف ينتقل البشر مباشرة الى الحيـاة الأبدية . فكل شيء يتوقف على نشاط البشر . وقد بشر « ن. فيدوروف » بنشاط للانسان لم يسمع به من قبل ... نشاط يقهر الطبيعة ، وينظم الحياة الكونية ، ويتغلب على الموت ، ويبعث الموتى . وهذه « المهمة المشتركة » تفترض مقدما ـ كشرط لا محيد عنه ـ موقفا أخـويا بين الناس ، يقضى على خلافاتهم ، ويحقق قرابتهم ، غير أنهـا لن تتحقق أيضا الا بمعونة العلم والمهارة الفنيـة . وكان « فيدوروف » يعتقد أن المهارة الفنية اذا استخدمها الجنس البشرى المتحد فى روح من الأخوة ، فانها تصنع المعجزات بل انها تستطيع فى هـذه الحالة احياء الموتى . وكان يفهم الفلسفة بمعنى عملى . فلا ضرورة تدعو الى وجود طبقة من العلماء والباحثين الأكاديميين الذين يقدمون معرفة خالصة مجردة عن الحيـاة . وتقسيم العقل الى عقل نظرى وعقل عملى ينطوى على الشر . ويعتقد ن. فيدوروف ـ وهو يتفق فى ذلك مع ماركس وانجلز ـ ان الفلسفة لا ينبغى أن تعرف العـالم فحسب ، بل أن تعمـل على تغييره أيضـا . وعليهـا أن تضع الخطط لخلاص العـالم من الشر والعذاب ، وخاصة من الموت بوصفه منبعا للشرور جميعا .

ومما لا شك فيه أن وضـع « ن. فيدوروف » لمشكلة الموت يميزه تمييزا أساسيا عن المـاركسية والشيوعية ، فهو يرى أن حياة العـالم فى قبضة قوى طبيعيـة عنصرية لا معقولة ، وهذه القوى ينبغى اخضاعهـا وتطويعها للعقل والمعرفة ، وعلى الانسـان أن يضمن سيادته عليهـا . ويهيب ن. فيدوروف بالناس أن يكف بعضهم عن مقاتلة البعض الآخر ، وأن يتحدوا فى صراعهم ضد قوى الطبيعة الأصلية . وهنـا تشابه بلا شك مع الشيوعية ، وان يكن الأساس الروحى مختلفـا . ويبغض ن. فيدوروف الراسمالية أشد من بغض المـاركسيين لهـا ، ويعدها من خلق الأبناء العاقين الذين نسوا آباءهم الراحلين . وهو ذو نزعة جماعية أيضا ، وعدو للنزعة الفردية . وايمانه المسيحى واعترافه بالواجب نحو الآباء الراحلين ، يميزه عن الشيوعيـة ، غير أنه قريب الى الشيوعية فى نزعته الفعليـة

activism المتطرفة ، وفى اعتقاده فى القدرة الشاملة للمهارة التكنيكية ، وفى دعوته الى المهمة الجماعية المشتركة ، وفى عدائه للراسمالية ، وفى فكره العملى ، وفى موقفه الشمولى من الحياة ، وفى ميله الى التحكم والتخطيط على نطاق عالمى ، وفى رفضه للفكر النظرى ، وللتأمل المنفصل عن المسائل العملية ، وفى اعترافه بالعمل بوصفه أساسا للحياة . وهو من هذه الناحية يعد نوعا أصيلا من الشيوعيين ، وقد كان أساس فكره دينيا وما زالت فيه عناصر من النزعة السلافية لا سبيل الى التغلب عليها ، وفى تعاليمه تمتزج العناصر الواقعية بالعناصر الطوباوية ، وأيا كان الأمر فقد كان مفكرا روسيا صميما . وبين تلاميذه فى العصر الحاضر ، ضعفت العناصر المسيحية من تعاليمه ، وقويت العناصر التكنيكية ، وهى العناصر القريبة من الشيوعية.

ويشهد الأدب الروسى والفكر الروسى على هذه الحقيقة ، وهى أنه لم توجد فى روسيا الامبراطورية ثقافة متكاملة واحدة ، وانه كانت هناك هوة بين الطبقات المثقفة ، وجماهير الشعب ، وانه لم يكن للنظام القديم أى سند أخلاقى ، وكان لكل امرىء رؤاه عن عبور الهوة بنوع أو بآخر من الجماعية . وكان كل شىء يتحرك صوب الثورة .

الفصل الخامس

الماركسية التقليدية (الكلاسيكية) والماركسية الروسية

---

(١)

استنفدت الاشتراكية « الشعبية » قواها فى الثمانينات ، ولم تعد الحركة الثورية تستطيع أن تنمو تحت رايتها ، وكان ظهور حزب « الارادة الشعبية » الذى وضع فى مركز الصدارة من أهدافه السياسية القضاء على الملكية المشتبدة بالارهاب — كان ظهور هذا الحزب معناه نهاية « النزعة الشعبية » . وتبدد وهم الانتلجنسيا الثورية فى الفلاحين ، فعزمت على الاعتماد على بطولتها الشخصية وحدها . ولم يفشل اغتيال «الاسكندر الثانى » على ايدى أعضاء حزب « الارادة الشعبية » فى العمل على انتصار الانتلجنسيا الثورية فحسب ، بل أدى فى عهد « الاسكندر الثالث » الى ظهور حركة رجعية قوية ، لا فى الحكومة وحدها ، بل بين الرأى العام أيضا . ولم تستطع الحركة الثورية أن تجد لها أساسا اجتماعيا أيا كان.

وفى هذا الوقت ظهرت بين المنفيين خارج البلاد جماعة «حرية العمل» وعلى رأسها ج. بليخانوف ، و ب. آكسلرود P. Axelrod و ف. زاسوليتش V. Zasulich و ل. دايتش L. Deitch ، وكان ذلك عصر ظهور الماركسية الروسية ، والحركة الديمقراطية الاجتماعية . وكان بليخانوف واحدا من شراح الماركسية الرئيسيين المعترف بهم ، بعد ماركس وانجلز .

وقد اشترك بليخانوف — فى سالف عهده — فى المنظمات الثورية الشعبيــة مثل منظمتى : « الأرض والحريــة » و « حركة اعادة التوزيع السوداء للأراضى » . وبعد أعوام قضاها فى أوروبا الغربية أصبح بليخانوف

من ذوى النزعة الغربية ، والنزعة الغربيــة الممعنة فى العقليــة ، وشدا حظا لا بأس به من الثقافة ، وان لم تكن ثقافتــه من النوع الرفيع ، وهو ثورى من طراز « الجالسين على المقاعد الوثيرة » ، لا من الطراز العملى ، ويمكنه أن يكون زعيما لمدرسة ماركسية فى الفكر ، ولكنــه لا يستطيع أن يكون زعيما لثورة ، وقد اتضح هذا فى زمن الثورة .

غير ان أجيالا عدة من الماركسيين الروس قد نشأوا على كتب بليخانوف — ومنهم لينين وزعماء الشيوعية الروسية . وقد كانت الماركسية النامية فى التربة الروسية التعبير المتطرف أصلا عن نزعة التطلع الروسية الى الغرب Russian Westernism وشنت الأجيال الأولى من المــاركسيين الروس الحرب فى البداية على الاتجاهات القديمــة للانتلجنسيا الثورية ، وعلى النزعة الشعبية ، والحقوا بهــا أضرارا لا سبيل الى علاجها . وكانت المــاركسية الروسية تسعى الى التحرير عن طريق التطور الصــناعى لروســيا ، وهو نفس الشىء الذى حاولت « النزعة الشعبية » تجنبه بالذات ، ذلك أن الصناعة الرأسمالية ستؤدى الى تكوين وتطوير الطبقة العاملة ، وهى الطبقة التى ستقوم بعملية التحرير . ومن ثم ، كان المــاركسيون يحبذون تحويل الفلاحين الى عمــال ، وهو شىء لم يكن الشعبيون يريدون السماح به . واعتقــد المــاركسيون أنهم قد وجدوا أخيرا أساسا اجتماعيا مناسبا للكفاح الثورى من أجل الحــرية . « والبروليتاريا » أثناء عمليــة تكوينها هى القوة الاجتماعية الوحيدة التى يمكن الاعتماد عليهــا ، ولهــذا كان من الضرورى تطوير « الوعى الطبقى » الثورى لهــذه البروليتاريا ، كمــا كان من الضرورى الاتجاه الى العمال فى المصــانع ، وليس الى الفلاحين الذين تنكروا للانتلجنسيا الثورية . وقد عد المــاركسيون أنفسهم واقعيين ، لأن نمو رأس المــال كان يتم فعلا فى روسيا حينذاك . ولم يشأ المــاركسيون الأوائل الاعتماد على الانتلجنسيا الثورية ، وعلى الدور الذى تلعبه الشخصية فى التاريخ ، بقدر اعتمادهم على العملية الاجتماعية — الاقتصادية الموضوعية وكان المــاركسى يهاجم اشتراكية « الشعبيين » الطوباوية فى ازدراء .

واذا كان نمط الروسى الثورى من الشعبيين تتغلب فيه العاطفة ،

فان نمط الروسى الثورى من الماركسيين يتغلب فيه العقل . وتمشيا مع الظروف التى ظهرت فيها الماركسية الروسية ، كان الماركسيون يؤكدون — منذ البداية — وعلى وجه الخصوص — العناصر الحتمية والثورية فى تعاليم ماركس . وكانوا يحاربون النزعة الطوباوية ، وتشييد القلاع ، ويفخرون بأنهم قد وجدوا أخيرا حقيقة الاشتراكية العملية التى تعد بالانتصار المؤكد بفضل العملية الاجتماعية الموضوعية التى تخضع للقوانين. والاشتراكية نتيجة للضرورة الاقتصادية وللتطور المحتوم . وكان الماركسيين الروس الأوائل شغوفين بالحديث عن نمو قوى الانتاج المادية بوصفه الأساس الرئيسى لأملهم وثقتهم . وهكذا كانوا معنيين بالتطور الاقتصادى الفعلى لروسيا ، لابوصفه هدفا ايجابيا ونعمة فى حد ذاته فحسب ، ولكن لأنه كان ايضا يمدهم بالأسلحة فى صراعهم الثورى . وعلى هذا النحو كانت سيكلوجيتهم الثورية . وظلت اهداف الانتلجنسيا الثورية الروسية على حالها — من حيث المظاهر الخارجية ، ولكنها اكتسبت سلاحا جديدا للصراع ، اذ أحست بالأرض أشد صلابة تحت قدميها . كانت الماركسية نظرية عقلية أشد تعقيدا من النظريات التى اعتمدت عليها الانتلجنسيا الثورية حتى ذلك الحين ، كما كانت تتطلب قدرات عقلية أكبر . ولكنها كانت تعد سلاحا ثوريا ، وسلاحا فى القتال ضد الميول القديمة التى كشفت عن عجزها — قبل كل شيء . وفى بداية الأمر ، أوحى الماركسيون بانطباع أنهم ثوريون أقل تطرفا وعنفا من الاشتراكيين « الشعبيين » القدامى أو من الثوريين الاجتماعيين ، كما بدأ الناس يسمونهم وقتذاك . وكان الماركسيون يعارضون الارهاب ..

غير أن هذا كان مظهرا خداعا ادى الى تضليل البوليس نفسه . فقد كان ظهور الماركسية الروسية ازمة خطيرة بالنسبة للانتلجنسيا الروسية ، وهزة قاسية للأسس التى أقامت عليها نظرتها العامة الى الحياة . ومن الماركسية انبعثت اتجاهات جديدة شتى . ومن الضرورى أن يفهم المرء طبيعة الماركسية ، وما تتسم به من ازدواج ، اذا أراد أن يكيف ذهنه مع تيارات الفكر الروسية الأخيرة . ان الماركسية ظاهرة

أشد تعقيدا مما يذهب اليه الظن عادة . وينبغى ألا ننسى أن ماركس وليد المثالية الألمانية التى شاعت فى مطلع القرن التاسع عشر ، وأنه كان مشبعا بأفكار فشته وهيجل ، وكفويرباخ — الذى كان الممثل الرئيسى للجناح اليسارى من الهيجلية فى الوقت الذى كان يسمى نفسه فيه ماديا — كان ماركس مشبعا بالفلسفة المثالية ، بل لقد ظل « لاهوتيا » على طريقته . وان المرء ليلمس فى ماركس الشاب بوجه خاص — الأصل المثالى الذى ترك طابعه على التصور الماركسى كله (١) . وليس من شك أن الماركسية تتيح للمرء المبررات الكافية لعرض المذهب الماركسى بوصفه نسقا مستنتجا على الحتمية السوسيولوجية . فالاقتصاد يحدد الحياة الانسانية كلها ، وعليه لا يتوقف تركيب المجتمع كله فحسب بل وأيديولوجيته كلها ، وثقافته الروحية ، ودينه ، وفلسفته ، وأخلاقه وفنه جميعا . الاقتصاد هو الأساس ، والأيديولوجية بناء فوقى superstructure. وهناك عملية اقتصادية عامة محتومة يتحدد بمقتضاها كل شىء . وطرائق الانتاج والتعادل هى نقط البداية الضرورية التى يتوقف عليها كل شىء آخر . وليس الفرد الانسانى هو الذى يفكر ويفعل بنفسه ، وانما الطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها ، فهو يفكر ويتصرف بوصفه نبيلا أو تاجرا — أو « بورجوازيا صغيرا » أو عضوا فى البروليتاريا . ولا يستطيع الانسان أن يحرر نفسه من المركز الاقتصادى الذى يجعله ما هو عليه ، كل ما يستطيعه هو أن يعكسه .

هذا جانب واحد من الماركسية . ان قوة العامل الاقتصادى فى الحياة الانسانية ليست شيئا اخترعه ماركس ، ولا تثريب عليه فى أن لها هذا التأثير العظيم على الأيديولوجية . فقد لاحظ ماركس هذا فى مجتمع

---

(١) راجع كتاب كورنو المذكور آنفا ، وكذلك كتاب
Der Historische Materialismus Die Frühschriften
كرونر . فيرلاج . ففى هذين المجلدين المنشورين حديثا ، جمعت كتابات ماركس المبكرة .

أوروبا الرأسمالى الذى كان يحيط به ، ولكنه احاله الى نظرية ، وأضفى عليه طابعا كليا . وما اكتشفه فى المجتمع الرأسمالى فى زمانه نظر اليه على انه أساس كل مجتمع ، ولقد اكتشف الكثير من الأمور فى المجتمع الرأسمالى ، وقال كثيرا من الأشياء الصادقة عن هـذا المجتمع ، غير أن خطأه يكمن فى انه أخذ الجزئى على انه العام . وتحمـل حتمية ماركس الاقتصادية طابعا خاصـا تماما ، وأعنى به فضح أوهام الوعى ، وكان فويرباخ قد فعل ذلك بالنسبة الى الوعى الدينى . ومنهج هـذا الفضح لأوهام الوعى يذكرنا تذكيرا قويا بتأكيـدات فرويد . والأيديولوجية التى ليست الا بناء فوقيا فحسب — من معتقدات دينية ، ونظـرية فلسفية ، وقيم أخلاقية وابداع فى الفن — هذه الأيديولوجية لا تعكس الحقيقة فى الوعى الا بطريقة وهمية . فالحقيقة أصلا هى الحقيقة الاقتصادية ، أعنى أنها الصراع الجماعى للانسان ضد الطبيعة للمحافظة على الحياة ، على النحو نفســه الذى كان ينظر به فرويد الى الحقيقة بوصفها الحقيقة الجنسية أولا وقبل كل شىء . الوجود يعكس الحقيقة ، غير أن الوجود هو الوجود الاقتصـادى المـادى فى المقام الأول ، وما الروح الا ظـاهرة اضـافية ephiphenomenon لهذا الوجـود الاقتصادى . ولا تستخلص المـاركسية الأيديولوجية كلها والثقافة الروحية كلها من الاقتصـاد مباشرة ، ولكنها تستخلصها على نحو غير مباشر عن طريق علم النفس الطبقى ، أى أن هناك رابطة نفسية فى حتمية ماركس السو سيولوجية . ومع أن وجود علم النفس الطبقى وتشوبه كل الأفكار والمعتقدات بواسطة الوعى الطبقى — مع أن هذا وذلك حقيقة لا يتطرق اليها الشك ، فان علم النفس نفســه ضعيف بوجه خاص فى المـاركسية . فقـد كان علم النفس المـاركسى عقليا ، ولا عصريا .

ولكى يفهـم المرء معنى الحتمية السوسيولوجية فى المـاركسية ، ومعنى أوهام الوعى التى تفضحها ، فلا بد من أن يوجه انتباهه الى وجود جانب مختلف تمام الاختلاف من المـاركسية ، وفى هـذا تناقض ظاهرى فى المـادية الاقتصادية . فليست المـاركسية مجرد مذهب للمـادية التاريخية والاقتصادية لا يهتم الا باعتماد الانسان التام على الاقتصاد فحسب ، بل

هى أيضا مذهب للخلاص ، وللرسالة المسياوية للبروليتاريا ، وللمجتمع الكامل المقبل الذى لا يعتمد فيه الانسان على الاقتصاد ، ولقوة الانسان وانتصاره على القوى اللامعقولة فى الطبيعة والمجتمع . وفى هذا روح الماركسية وليس فى جبريتها الاقتصادية . فالانسان محدد تحديدا تاما فى المجتمع الراسمالى ، وهذا القول ينسحب على الماضى . ومن الممكن تفسير اعتماد الانسان التام على الاقتصاد بأنه خطيئة من خطايا الماضى . أما المستقبل فشىء آخر ، اذ يمكن للانسان أن يتحرر من العبودية ، والفاعل الايجابى الذى يحرر الانسانية من العبودية ويقيم أفضل حياة ، هو البروليتاريا . وللبروليتاريا صفات أصحاب الرسالات ، واليها تنقل صفات شعب الله المختار ، انها اسرائيل الجديدة . وهذا نوع من اضفاء الطابع الدنيوى على الوعى العبرى المسياوى . لقد أمكن العثور على الرافعة التى نستطيع بها أن نقلب العالم رأسا على عقب . وهنا تتحول مادية ماركس الى مثالية متطرفة .

ويكتشف ماركس فى الرأسمالية عملية تجريد للانسانية dehumanization تجعل الانسان معتمدا على منتجات من صنعه . والى هذا الاكتشاف ترجع نظرية ماركس البارعة عن تعويذية fetishism السلع . فكل شىء هذا الاكتشاف ترجع نظرية ماركس البارعة عن تعويذية السلع . فكل شىء فى التاريخ وفى الحياة الاجتماعية نتاج للنشاط الانسانى والعمل الانسانى ، والكفاح الانسانى . [1] بيد أن الانسان يقع ضحية للوعى الواهم الخداع الذى ينشأ عنه أن نتيجة نشاطه وجهوده الخاصة تتراءى كأنها عالم موضوعى من الأشياء ، عالم يعتمد عليه . والحقيقة الاقتصادية الموضوعية للأشياء

---

(١) يقول ماركس فى فقرة من دراساته عن فويرباخ : « الثغرة الرئيسية فى المادية كلها حتى الآن هى ان الذات والواقع المحسوس ، لا يدرك فى صورة الموضوع ، او الادراك الحسى بوصفه نشاطا للحساسية الانسانية ، أو الـ Praxis أى لا يدرك فى صورة ذاتية » .

وهذه الفقرة مناقضة تماما للمادية ، وتقترب من الفلسفة الوجودية .

لا توجد فى ذاتها ، وانما هى مجرد وهم ، والنشاط الانسانى هو وحده الذى له وجود ، وكذلك العلاقة الايجابية بين الانســـان واخيه . وليس راس المـــال حقيقة موضوعية ، تقوم خارج الانسان ، بل ما هو الا العلاقة الاجتماعية بين الانسان والانسان فى الصناعة . ووراء الحقيقة الاقتصاديه يختفى دائما الناس الأحياء ، وطوائف الناس الاجتمـــاعية . ويستطيع الانسان دائما أن يبدد بنشاطه الخاص هذا العـــالم الوهمى الذى يقيمه من الاقتصـــاد الراسمالى . ولهذه المهمة ندبت البروليتاريا ، وانها لتقع ضحيـــة لهذا الوهم الخاص باحالة منتجات الكدح الانســـانى الى أوثان وكيانات مستقلة . من واجب البروليتاريا محاربة اعتمـــاد الانسان على منتجات الكدح الانسانى ، ومكافحة تجريد الحياة الاقتصادية من المضمون الانسانى dehumanizing وابراز القدرة الشاملة للنشاط الانسانى .

هذا جانب مختلف تمام الاختلاف من جوانب المـــاركسية . وقد كان هذا الجانب قويا فى ماركس حينما كان شابا ، والايمان بالنشاط الانسانى موضوع ورثه عن المثاليـــة الألمـــانية .. انه ايمان بالروح ، ايمان لا يمكن ربطـــه بالنزعة المـــادية . ففى المـــاركسية عنصر أصيـــل من الفلسفة الوجودية ، عنصر يكشف عن وهم الموضوعية وخداعها ، ويتغلب بالنشاط الانسانى على عالم الكيانات المستقلة ، وهذا الجانب من المـــاركسية هو وحده الذى يستطيع أن يوحى بالحماس وأن يخاطب الطـــاقة الثورية . فالحتمية الاقتصادية تستهين بالانسان ، والايمان بالنشاط الانسانى هو وحده الذى يرفع من قدره — الايمان بنشاط يستطيع أن يقوم ببعث رائع للمجتمع .

ويتصل بهذا أيضـــا تصور ثورى دينامى للديالكتيك ، وينبغى أن يقال ان المـــادية الديالكتيكية عبارة عن خليط من الألفاظ لا معنى له ، اذ لا يمكن أن يوجد ديالكتيك للمادة ، لأن الديالكتيك يفترض ضمنا اللوغوس والمعنى ، وديالكتيك الفكرة والروح هو وحده الممكن ، بيد أن مـــاركس قد نقل طبيعة الفكر والروح الى المـــادة . اذ بدا له ان للعملية المـــادية فكرها

وعقلها وحريتها ، ونشاطها الخلاق ، وبالتالى ، يمكن أن تؤدى العملية المادية الى انتصار التفسير العقلى ، والى انتصار العقل الاجتماعى على الحياة بأكملها . الديالكتيك يتحول هنا الى تمجيد الارادة الانسانية ، والنشاط الانسانى . وكل شىء لا يحدده حينئذ التطور الموضوعى للقوى الانتاجية المادية ، والاقتصاديات ، بل يحدده صراع الطبقات الثورى ، اى نشاط الانسان . والانسان يستطيع أن يتغلب على تحكم الاقتصاد فى حياته . ولا بد أن تكون هناك — على حد تعبير ماركس وانجلز — وثبة من عالم الضرورة الى عالم الحرية . والتاريخ ينقسم انقساما حادا الى شطرين : الماضى الذى حددته الاقتصاديات حين كان الانسان عبدا ، والمستقبل الذى سيبدأ بانتصار البروليتاريا : وسيتحدد كله بنشاط الانسان .. الانسان الاجتماعى ، حين يظهر الى الوجود عالم الحرية . والانتقال من الضرورة الى الحرية يفهم ها هنا بروح هيجل . وأيا كان الأمر ، فليس ديالكتيك ماركس الثورى هو الضرورة المنطقية التى تكشف عن نفسها ، وتطور نفسها ، ولكنه نشاط الانسان الثورى الذى لا يقيده الماضى . والحرية هى الضرورة التى امتصها الوعى ، غير أن هذا الامتصاص للضرورة يمكن أن يصنع المعجزات ، ويستطيع أن يعيد بعث الحياة بعثا تاما ، وتأسيس شىء جديد لم يسبق له مثيل . والانتقال الى عالم الحرية هو الانتصار على الخطيئة الأولى ، التى يراها ماركس فى استغلال الانسان لأخيه الانسان . و « الوجدان » الأخلاقى للماركسية يرتبط كله بفضح الاستغلال بوصفه أساسا للمجتمع الانسانى ، واستغلال العمل .

واضح أن ماركس يخلط المقولات الاقتصادية بالمقولات الأخلاقية . ونظرية فائض القيمة ، وهى النظرية التى تكشف عن استغلال الرأسماليين للعمال ، يعدها ماركس نظرية اقتصادية علمية . والحقيقة أنها نظرية أخلاقية أولا وقبل كل شىء . فليس الاستغلال ظاهرة اقتصادية ، ولكنه فى المقام الأول ظاهرة تنتمى الى النظام الأخلاقى ، فهى علاقة شريرة من الوجهة الأخلاقية بين الانسان وأخيه الانسان . وهناك تناقض مذهل بين لا أخلاقية ماركس العلمية التى لا تستطيع احتمال أساس أخلاقى

للاشتراكية ، وبين نزعة المـاركسيين الأخلاقية المتطرفة فى تقدير الحياة بوجه عام . ونظرية كفاح الطبقات تحمل طابعا تقويميا axiological والتفرقة بين « البورجوازية » و « البروليتاريا » تفرقة بين الشر والخير ، بين العدالة والظلم ، بين ما يستحق اللوم ، وما يستحق التحبيـذ . وفى المذهب المـاركسى مزيج — متناقض من وجهـة النظر والمنطقية — بين العناصر المـادية والحتمية العلمية واللا أخلاقية ، وبين العناصر الثالية ، والأخلاقية والدينية ، والخالقة للأساطير . والحـق أن ماركس يؤسس أسطورة حقيقية عن البروليتاريا ، ورسالة البروليتاريا بند من بنود الايمان . وليست المـاركسية علما وسياسة فحسب ، ولكنها أيضا عقيدة ودين . وعلى هذا الأساس تقوم قوتها .

(٢)

تقبل الروس فى أول الأمر ، المـاركسية أساسا من وجهة نظر علمية موضوعية ، وكان أهم ما لفت أنظارهم نظرية ماركس القائلة بأن الاشتراكية ستكون نتيجة محتومة للتطور الاقتصادى الموضوعى ، وانها تتحدد بفعل التطور الفعلى لقوى الانتاج المـادية . وتقبلوا ذلك لأنه يحمل اليهم الأمل . وفقد الثوريون الروس الاحساس بأن الأرض غير موجودة تحت أقدامهم ، وبأنهم معلقون فوق شـفا هوة ، وأطلقوا على أنفسهم اسم الاشتراكيين « العلميين » ، لا الحالمين الطوباويين . وأصبحت الاشتراكية « العلمية » موضوعا للايمان . بيد أن الأمل الصلب الذى تقـدمه الاشتراكية العلمية لتحقيق غرض طالمـا اشتاقت اليه النفوس يرتبط بالتنميـة الصناعية ، وبتنظيم طبقة من العمال الصناعيين . ذلك لأن البلد الزراعيـة فحسب لا تعطى مثل هذا الأمل . ومن ثم كانت الخطـوة الأولى التى ينبغى أن يقوم بها المـاركسيون الروس هى اطراح وجهـة النظر « الشعبية » ، واثبات أن الرأسمالية تنمو فى روسيا ، ويجب أن تنمو . واتخذ القتال من اجل هـذه النظرية ، وهى أن الصناعة الرأسمالية تتطـور فى روسيا ، وبالتالى تنمـو طبقة من العمـال — اتخذ هذا القتال صـورة الصراع الثورى . — وأوشك الديموقراطيـون الاجتماعيون أن يصيروا رجعيين فى أعين المـاركسيين .

بيد أن المـــاركسية أخذت بطرق مختلفة ، فقـــد كان تطور الصناعة الرأسمالية فى روسيا يعنى فى نظر البعض انتصـــار الاشتراكية ، فسوف تظهر طبقة عاملة ، وعلى كل انسان أن يكرس قواه لتنمية الوعى الطبقى فيها . ولهذا يقول بليخانوف : « وراء الرأسمالية تقـــوم دينامية حياتنا الاجتماعية كلها » ، وفى قوله ذاك لم يكن يفكر فى الصناعة القائمة بالفعل بل فى العمال . وفى نظر البعض الآخر ، وخاصة المـــاركسيين القانونيين منهم ، اكتسب تطور الصناعة الرأسمالية مغزى كافيا فى حد ذاته ، وتراجع الجانب الطبقى الثورى من الماركسية فأصبح يحتل مكانا ثانويا ، والى هذا الرأى انحاز ب. ستروفى P. Struve ممثل الماركسية البورجوازية. وهؤلاء المـــاركسيون الروس الديموقراطيون الاجتماعيـــون ، الذين عرفوا فيما بعد بوصفهم « مناشفة » ، يعتزون بالنظرية القائلة بأن الثورة الاشتراكية لا يمكن أن تقع الا فى بلد تطورت فيه الصناعة الرأسمالية فعلا ، وبالتالى يمكن أن تنشب ثورة اشتراكية فى روسيا حين تكف عن أن تكون بلدا يقوم على الفلاح والزراعة بصفـــة رئيسية . وهذا النمط من المـــاركسى يعول كثيرا على الجانب الموضوعى العلمى الحتمى من المـــاركسية ولكنه يحافظ أيضا على الجانب الذاتى الثورى الطبقى . ولقد أدى حديث المـــاركسيين الأوائل المستمر عن ضرورة تطور الرأسمالية فى روسيا ، واستعدادهم الى الترحيب بتنميتها ، الى أن يتهمهم ل. تيخوميروف L. Tikhomirov الذى كان ينتمى الى حزب « ارادة الشعب » ثم انضم أخيرا الى المعسكر الرجعى ، بأنهم مرغمون على البـــدء بأن يكونوا « فرسان بنوك الادخـــار » . وكان المـــاركسيون يعدون « الشـــعبيين » رجعيين يؤيدون أشكالا عتيقة من الاقتصـــاد ، بينما نظر « الشعبيون » الى المـــاركسيين بوصفهم أنصارا للرأسمالية ، وبأنهم ملتزمون بالاسهام فى تنميتها .

والواقع أن المـــاركسية الروسية ، اذ ظهرت فى بلد لم يتم تصنيعه بعد ، ولم تقم فيه بروليتاريا متطورة — كان لزاما عليها أن تتمزق بتناقض أخلاقى ذاتى ، كان يثقل على ضمير كثير من الاشتراكيين الروس . اذ كيف يمكن أن يتمنى المرء نمـــو الرأسمالية ، ويرحب به ، وأن ينظر فى الوقت

نفسه الى الرأسمالية بوصفها شرا وخطــأ أخلاقيا على كل اشتراكى أن يحاربهما ؟ هذه المسألة المعقدة تثير الصراع الأخلاقى . وكان نمو الصناعة الرأسمالية فى روسيا يفترض سلفا تحول الفلاحين الى بروليتاريا وحرمانهم من وسائلهم فى الانتاج ، وهذا معناه الهبوط بالشطر الأعظم من الأمة الى حالة التسول .

هذا الازدواج العقلى فى تحديد قيم الرأسمالية والبورجوازية يمكن أن نراه فى المــاركسية فى أشد صورها تقليدية . فماركس — من حيث أنه يتخذ موقعه على وجهة النظر الثورية ، ويعترف بوجود المراحل المختلفة فى التاريخ التى يجب أن نعزو اليها قيما مختلفة — يضفى قيمة عليا على رسالة البورجوازية فى المــاضى وعلى دور الرأسمالية فى تنمية القوة المادية للبشرية . وتصور المــاركسية كله يتوقف توقفا كبيرا على نمو الرأسمالية ، ويكيف الفكرة المسياوية عن البروليتاريا — التى لا تمت الى العلم بصلة — مع الصناعة الرأسمالية . ويعتقد ماركس أن المصنع والمصنع وحده هو الذى سيخلق الانسان الجديد . وهذه المشكلة نفسها تواجه المــاركسية بشكل آخر ، فهل الأيديولوجية المــاركسية هى نفس الانعكاس للحقيقة الاقتصادية كغيرها من الأيديولوجيات ، أم أنها تدعى الكشف عن الحقيقة المطلقة المستقلة عن الأشكال التاريخية للمصالح الاقتصادية ؟ هذا سؤال خطير جدا بالنسبة للماركسية : فهل هــذه الفلسفة برجماتية ، أم واقعية مطلقة ؟ وهذا السؤال سيناقش فى الفلسفة السوفيتية كما سنرى فيما بعد . غير أن المــاركسيين الروس الأوائل واجهــوا مشكلة أخلاقية ، ومشكلة فى المعرفة ، وهــذه المشكلة أثارت صراعا أخــلاقيا ومنطقيا . وسنرى أن هذا الصراع الأخلاقى لم يحسمه الا لينين والبلاشفة . ولينين المــاركسى هو الذى ســيؤكد امكانية تأسيس الاشتراكيــة فى الروسيا مستقلة عن تطور الرأسمالية ، وقبل تنظيم أية طبقة عاملة ضخمة .

وقد أعلن بليخانوف أنه ضد الخلط بين الثــورة التى ستخلع الملكية المطلقة ، وبين الثورة الاجتماعية ، وكان يعارض استيلاء الاشتراكية الثورية

على السلطة ، اى يعارض الثـورة الشيوعية فى الطريق الذى سلكته فعلا . فلا بد من انتظار الثورة الاجتماعية . وتحرير العمال يجب أن يكون من صنع العمال أنفسهم ، لا من صنع حفنة ثورية ضئيلة . وهذا يحتاج الى زيادة فى عدد العمال ، وتنمية لوعيهم كما يفترض تطورا أعظم للصناعة . وقد كان بليخانوف أساسا عدوا للنزعة الباكونينية (نسبة الى باكونين) ، التى كان يعـدها مزيجـا من فورييــه وستنكاريزين Stenka Razin وكان يعـارض الفتنة والتآمر ، واليعقوبية والاعتقاد فى اللجـان . ولا تستطيع الديكتاتورية أن تنجز شيئا الا اذا هيئت الطبقة العاملة للثورة . وهو يؤكـد الطابع الرجعى للكوميون الفـلاحين بوصفه عائقا للتطـور الاقتصادى . وعلى المرء أن يعتمد على العملية الاجتماعية الموضوعية . ولم يوافق بليخانوف على الثورة البلشفية ، لأنه كان يعارض دائما الاستيلاء على السلطة حين لا تكون القوة أو الوعى قد استعدتا له . وما نحتـاجه قبل كل شيء هو ثورية الفكر ، لا مجرد انتفاضة عنصرية ، وثورية فكر الطبقة العاملة نفسها ، لا مجرد أقلية حزبية منظمة .

ولكن ، اذا طبقنا هذه المبادىء المـاركسية على روسيا ، كان عليها أن تنتظر الثورة الاجتماعية وقتا طويلا ، بل وكانت امكانية قيام أى نشاط اشتراكى مباشر فى روسيا موضع شك . وربما سحقت النظـرية العقلية الارادة الثورية فى نهاية الأمر . وهـكذا ، أرغم المـاركسيون الروس من أصحاب العقلية الثورية على تفسير المـاركسية بطريقة أخرى ، وباقامة نظريات أخرى للثورة الروسية ، وبوضع خطط أخرى . وفى هذا الجناح من الماركسية الروسية ، تغلبت الارادة الثورية على النظريات العقلية وعلى تفسير « المقعد الوثير » للماركسية . وحدث مزيج غير ملحوظ من تقاليـد المـاركسية الثورية بتقاليد النظرة الثورية القديمة التى لم تكن لديها أية رغبة فى تحمل مرحلة رأسمالية فى تطور روسيا ، اى اجتمع تشرنشفسكى وباكونين ونتشايف وتكاتشف فى صعيد واحد . ولم يكن فورييه هو الذى اتحد هذه المرة بستنكاريزين ، بل الذى اتحد هو ماركس . أما الماركسيون الذين كانوا بلاشفة ، فوقفوا فى صف التقليد الروسى بصورة أوضح منها

فى حالة المناقشة منهم . ومن المحال — على أساس التفسير الثورى الحتمى للماركسية — تبرير ثورة اشتراكيــة بروليتارية فى بلد زراعى ، متخلف صناعيا ، وبطبقة عاملة لم تتطور الا تطورا ضعيفا . ويمثــل هذا الفهم للماركسية ينبغى أن يعتمد المرء أولا وقبل كل شىء على ثورة بورجوازية ، وعلى نمو الرأسمالية ، ثم أحداث الثــورة الاشتراكية حين يحين الوقت المناسب . وهــذا شىء لم يكن مشجعا تمام التشجيع لانعــاش الارادة الثورية .

وظهر بين الديموقراطيين الاجتماعيين الروس — نتيجة لنقل الأفكار المــاركسية الى روسيا — ميل الى النزعة الاقتصادية المتطرفة economism وهذه النزعة سلمت الثــورة السياسية الى أيدى البورجوازية الليبرالية والراديكالية ، ولكنها كانت ترى من الضرورى تنظيم حركة نقابية اقتصادية خالصة بين العمال . وكان هــذا هو الجناح اليمينى من الديموقراطيــة الاجتماعية ، وقد سبب رد فعل فى جناحها الأكثر ثورية ، واشتد الانقسام بروزا داخل المــاركسية الروسية ، بين الجنــاح السنى (الأرثوذكسى) الأشد ثورية ، وبين الجناح النقدى الاصلاحى ، وقد كان الاختلاف بين المــاركسية الاتباعية والمــاركسية النقدية نســبيا ومشروطا الى حــد كبير ، ذلك أن المــاركسية « النقدية » كانت أشد ولاء من نواح عدة ، للجانب العلمى الحتمى من المــاركسية ، من المــاركسية الاتباعية التى استخلصت من المــاركسية (فيمــا يتعلق بروسيا) نتــائج أصيلة كل الأصالة ، نتائج ما كان ليقبلها ماركس وانجلز .

ويصدر « لوكاتش » Lukatch الذى اقتبسنا منه آنفا — وهو مجرى ومن أطرف الكتاب الشيوعيين المثقفين فلسفيا وهو يكتب بالألمانية ، ويتمتع بذهن ثاقب — يصدر حكما أصيلا ، وهو فى نظرى حكم صائب — على الثورة (١) . فمن المؤكد أن الثورة لا تحــدد بطبيعة موضوعاتهــا

---

(١) راجع كتابه Geschichte und Klassen-Bewusstseit Studien uber marxistische Dialektik.

الأساسية ، او بطبيعة الوسائل المستخدمة فى الصراع ، وانما ماهية الثورة هى الشمولية ، والاكتمال ، بالنسبة لكل فعل من افعال الحياة . والثورى هو الشخص الذى يربط كل فعل يقوم به بالمجتمع ككل ، ويخضعه للفكرة المحورية الكاملة . ولا يعترف الثورى بمجالات « منفصلة » ، ولا يحتمل تقسيم الحياة الى أجزاء ، كما لا يقبل أى استقلال للفكر عن الفعل ، أو أى استقلال للفعل عن الفكر . وللثورى وجهة نظر عالمية متكاملة تندمج فيها النظرية بالتطبيق اندماجا عضويا . التكامل فى كل شىء .. هذا هو المبدأ الأساسى للموقف الثورى من الحياة . وقد تكون للماركسية النقدية نفس المثل العليا النهائية كالماركسية التى كانت ثورية ، والتى تعد نفسها اتباعية ، ولكنها تعترف بمجالات مستقلة منفصلة فى الحياة ، فهى لا تؤكد التكامل الشمولى . وقد يكون المرء ماركسيا ، على سبيل المثال — فى المجال الاجتماعى ، ولكنه ليس ماديا ، بل من الممكن أن يكون مثاليا . وقد ينتقد هذا الجانب أو ذاك من وجهة النظر الماركسية العالمية . وفى هذه الحالة لم تعد الماركسية مذهبا شموليا متكاملا ، وانما أصبحت منهجا للادراك فى المسائل الاجتماعية ، وفى المضى فى الصراع الاجتماعى . وهذه الماركسية تقف فى الطرف المضاد من الشمولية الثورية Revolutionary totalitarianism وقد كان الثوار الروس فى الماضى ، شموليين دائما . والثورة فى نظرهم دين وفلسفة ، لا مجرد صراع يتعلق بالجانبين الاجتماعى والسياسى من الحياة . ولهذا كان لا بد من أن تطور الماركسية الروسية نفسها لتتلاءم مع ذلك النمط الثورى ، ومع هذه الغريزة الثورية الشمولية . وهذا هو معنى لينين ، والبلشفية . فالبلشفية تدافع عن نفسها أيضا بأنها الماركسية الاتباعية الوحيدة اى الماركسية الشمولية المتكاملة التى ترفض احتمال تقطيع النظرة الماركسية العالمية الى شذرات ، واعتناق أجزاء منفصلة منها فحسب .

وهذه الماركسية « الاتباعية » التى كانت فى واقع الأمر ماركسية تغيرت واتخذت الشكل الروسى — لم تعتنق فى البداية الجانب العلمى الثورى الحتمى من الماركسية ، بل الجانب الدينى الأسطورى المسياوى

الذى يفسح المجال لانعـاش الارادة الثورية ، ويضع نزاع البروليتاريا الثورى فى مركز الصدارة ، بوصفه خاضعا لاشراف الأقلية المنظمة ، كمـا توحى الفكرة البروليتارية الواعية . وهذه المـاركسية الشمولية الاتباعية قد أصرت دائمـا على التبشير بالعقيدة المـادية ، ولكنها تضمنت عناصر مثالية قوية أيضا . واثبتت الى اى مدى يمكن أن تكون سيطرة فكرة ما عظيمة على الحيـاة الانسانية ، اذا كانت فكرة متكاملة ، وتلبى غرائز الجماهير . وفى المـاركسية البلشفية لم تعد البروليتاريا واقعا تجريبيا ، لأن البروليتاريا لم تكن شيئا بوصفها واقعا تجريبيا ، ولا اهميـة لهـا الا بوصفها فكرة أولا وقبل كل شىء ، وهؤلاء الذين أصبحوا وسائل للتعبير عن هذه الفكرة قد يكونون أقلية ضئيلة للغاية . فاذا استولت فكرة البروليتاريا الهائلة على هذه الأقلية الضئيلة ، واذا تنبهت ارادتها الثورية ، ونظمت ورتبت على أحسن وجه ، فانها تستطيع أن تأتى بالمعجزات ، وأن تتغلب على الحتمية التى تتحكم فى الحياة الاجتماعية . وقد أثبت لينين فى التطبيق أن هذا ممكن ، وأحدث الثورة باسم ماركس ، لا بطريقته . وقد قامت الثورة الشيوعية فى روسيا باسم المـاركسية الشمولية .. المـاركسية بوصفها فكرة أولا وقبل كل شىء ، وهؤلاء الذين أصبحوا وسائل للتعبير عن تطور المجتمـع الانسانى . ولم تكن النزعة « الشعبية » الثـورية ، بل المـاركسية الشمولية الاتباعية ، هى التى نجحت فى تحقيق الثورة ، تلك الثورة التى أفلتت بها روسيا من مرحلة التطور الرأسمـالى التى كانت تبدو للماركسيين الروس الأوائل مرحلة لا محيص عنها . وكان من الواضح أن هذا يتفق مع التراث الروسى وغرائز الشعب .

وفى ذلك الوقت ، تبـددت أوهام النزعة « الشعبية » الثـورية ، وانهارت أسطورة الفلاحين . ولم يقبـل الشعب الانتلجنسيا الثـورية ، واقتضى الأمر ظهور اسطورة ثورية جديدة . وتحولت الأسـطورة عن الشعب ، الى أسطورة عن البروليتاريا . وحطمت المـاركسية تصـور الشعب بوصفه كائنا عضـويا متكاملا ، فحللته الى طبقات ذات مصالح متعارضة . غير أن أسطورة الشعب ، ظهرت فى أسطورة البروليتاريا فى

شكل جديد ، وحدث من ثم تطابق بين الشعب الروسى والبروليتاريا ، وبين المسياوية الروسية ، والمسياوية البروليتارية . وظهرت الى الوجود روسيا العمال والفلاحين السوفيتية ، وفيها امتزج الشعب بوصفه مجموعة من الفلاحين بفكرة الشعب بوصفه بروليتاريا ، وهذا برغم كل ما قاله ماركس الذى كان يعد الفلاحين طبقة رجعية بورجوازية صغيرة . وكانت الماركسية الشمولية الاتباعية تحرم الاشارة الى أى تعارض بين مصالح البروليتاريا ومصالح الفلاحين . وهذه هى الصخرة التى اصطدم بها تروتسكى فى رغبته أن يكون مخلصا للماركسية التقليدية . وأعلنت طبقة الفلاحين ، طبقة ثورية على الرغم من أن الحكومة السوفيتية كانت تحاربها ، وتحاربها فى مرارة شديدة أحيانا . وتحول لينين من جديد الى التقليد القديم للفكر الثورى الروسى ، فأعلن أن تخلف روسيا الصناعى وبدائية الرأسمالية فيها ، عون عظيم للثورة الاجتماعية .

ولم تكن الحاجة تدعو اذن الى مجابهة بورجوازية قوية منظمة ، ووجد لينين نفسه مرغما على ترديد ما قال « تكاتشف » ، دون اشارة الى ماقاله انجلز . والبلشفية أمعن فى التقليدية مما يفترض عامة ، فهى تتفق مع الطبيعة المتميزة للعملية التاريخية الروسية ، وهنا حدثت عملية صبغ الماركسية بصبغة روسية وشرقية .

(٣)

اوقعت الماركسية الانتلجنسيا الروسية فى أزمة ، ودفعتها الى ادراك ضعفها ، ولم يكن هذا تغييرا فى نظرتها العالمية فحسب ، بل وتغييرا فى بنيانها الروحى ايضا . أصبحت الاشتراكية الروسية اقل عاطفية وليونة ، واكثر عقلية وخشونة . وكان الماركسيون الروس الأوائل أكثر تشبها بأوروبا والغرب من « الشعبيين » . واستيقظت فيهم ارادة القوة ، ارادة الحصول على القوة ، وظهرت أيديولوجية القوة . وازداد دافع « الشفقة » ضعفا ، ففى هذا الدافع لاتكمن القوة التى يمكن أن تحارب من أجل الثورة .

ولم يكن موقفها صوب الشعب بوصفه بروليتاريا هو الاشفاق على حالته التعسة المكبوتة ، ولكن موقف الاقتناع بأن عليها أن تنتصر ، وبأنها القوة القادمة ، ومحررة البشرية . ولكن على الرغم من هـذه التغييرات التى طرأت على روح الانتلجنسيا ، ظل الأساس الأصلى على ما هو عليـه ، وأعنى به البحث عن مملكة العدالة والحقيقة الاجتماعية ، والقـدرة على التضحية ، والموقف الزاهد نحو الحضارة ، والموقف الشمولى المتكامل من الحياة ، يحدده غرض واحد عظيم ، هو التحقيق الفعلى للاشتراكية .

كانت الماركسية الروسية — فى بداية الأمر — ظاهرة مركبة ، تحتوى على عناصر متعددة . وهو ما اتضح فى مراحلها المتأخرة . فاذا كان فريق من المـاركسيين الروس يقدرون نظرتهم العالمية الشمولية المتكاملة فوق كل شىء ، ويدافعـون عن أرثوذكسيتهم ، ويتميزون بتعصبهم المتطرف ، واذا كانوا قد اتخذوا من المـاركسية والاشتراكية دينا ، فان فريقا آخـر كان يفرق بين مجالات الثقافة المتعددة ، ويحطم ذلك التكامل الدينى ، ويسعى الى تحرير حياة الروح المكبوتة ، والقدرة الروحية الخلاقة . وتم الاعتراف بحقوق الدين والفلسفة والفن والحياة الأخلاقية بوصفها مستقلة عن النفعية الاجتماعية ، وأعنى بها حقـوق الروح التى أنكرتها العـدمية الروسية ، و « الشعبية » الثورية ، والمـاركسية الثورية . وما داموا لم يعـودوا ينظرون الى المـاركسية والاشتراكية بوصفهما دينا ، ونظرة عالميـة كلية تقدم حلا لكل مسائل الحياة ، فقد أفسحوا مكانا للبحث الدينى ، وللقدرة الروحيـة الخلاقة . ومهما تكن غرابة هـذا القول للوهلة الأولى ، فان المـاركسية — المـاركسية النقـدية لا المـاركسية الاتباعية — هى التى زودتنا فعلا بتيار فكرى مثالى — ودينى فيما بعد . والى هذا التيار ينتمى س. بولجـاكوف S. Bulgakov وهو الآن قسيس وأستاذ للاهـوت الدجماطيقى ، وكذلك مؤلف هذا الكتاب (١) وحدثت أزمة فى النظرة العالمية

---

(١) كان كتابى الأول « الذاتية والمثالية فى الفلسفة الاجتماعية » المنشور سـنة ١٩٠٠ محاولة للتوليف بين المـاركسية الثورية وفلسـفة المثالية عند كل من « كانت وفتشه » .

التى اقتصرت فى اتجاهها على الحياة الدنيا الراهنة ، وتم الكشف عن عالم آخر ، عالم الماوراء ، وبهذا انتهى حكم المادية والوضعية بين الانتلجنسيا الروسية .

ونشبت معركة عنيفة دفاعا عن امكانية مثل هذا التغيير الميتافيزيقى والدينى فى الجبهة ، وقوبل الاتجاه المثالى بعداء مخيف سواء فى المعسكر الماركسى أو فى المعسكرين الشعبى القديم والراديكالى . وكان هذا التغيير فى الجبهة يبدو كأنه خيانة للكفاح من أجل الحرية . وقد اتخذ هذا التغيير فى المعسكر الماركسى أصلا شكل نزاع بين الاتجاه الاتباعى أى الشمولى ، والاتجاه النقدى الذى سمح باتحاد الماركسية مع فلسفة أخرى لا مادية ، ومراجعة نقدية لبعض جوانب الماركسية . وفى تطورها المتأخر قطعت هذه الحركة علاقتها بأشكال الماركسية المتباينة ، واصبحت قتالا من أجل استقلال القيم الروحية فى المعرفة والفن ، وفى الحياة الأخلاقية والدينية . وجاهد أنصارها فى امداد الاشتراكى بأساس أيديولوجى أخلاقى . وكان هذا انتصارا على تراث العدمية الروسية والطوباوية ، والمادية والوضعية . وفى نهاية المطاف ، بدأوا يبحثون عن التكامل ، والشمولية ، لا فى الثورة ، بل فى الدين .

وفى مطلع القرن العشرين ، قامت نهضة ثقافية حقيقية فى روسيا ، نهضة دينية وفلسفية وجمالية ، صحبتها عودة الى تقاليد الأدب الروسى العظيم والفكر الدينى والفلسفى الروسى . ومن تشرنشفسكى وبليخانوف تحولوا الى دستويفسكى ، و ل. تولستوى ، وفلاديمير سولوفييف ، بيد أن هذه الاتجاهات الثقافية والمثالية بدأت تفقد ارتباطها بالحركة الثورية الاجتماعية ، واخذت تفقد أكثر فأكثر وجهة نظرها الاجتماعية العريضة . وتألفت « صفوة » مثقفة لم يكن لها أى تأثير على الدوائر العريضة من المجتمع الروسى . وكان هذا انقساما جديدا — وتاريخ الانتلجنسيا الروسية غنى بالانقسامات . وفى هذا يكمن ضعف الحركة المثالية ، ذلك الضعف الذى كانت له نتائج رهيبة على أيديولوجية الثورة الروسية وصراعها مع الروح .

وقامت بين « الصفوة » المفكرة فى مستهل هذا القرن حركة احيـــاء حقيقية للثقافة الروسية ، وظهرت مدرســـة روسية . فى الفلسفة ، تدعو الى فلسفة دينية أصيلة . وازدهر الشعر الروسى مرة أخرى ، وبعد أجيال من الانحلال الذى أصيب به الذوق ، كان هناك اسراع فى الوعى الجمالى ، واستيقظ الاهتمام بمسائل الروح كما كان الحال بيننا فى مطلع القرن التاسع عشر . وظهر فى روسيا — وربما كان ذلك لأول مرة — اشخاص ذو ثقافة مصفاة تقف على حافة الانحلال . وكان العصر عصر الرمزية ، والميتافيزيقا والتصوف . وكان لنيتشه تأثير هائل فى هـــذه الفترة ، والتقى تأثيره بتأثير دوستويفسكى . ومن ناحية الفلسفة الألمـــانية ، أثار المفكرون من أمثال شلنج و ف. بادر F. Baader اهتماما شديدا مرة أخرى ، وانتشرت مسرحيات أبسن ، ومؤلفـــات الرمزيين الفرنســـيين . غير أن الرمزية الروسية لم تبق فى المجال الجمالى والفنى ، بل انتقلت بسرعة الى عالم الدين والتصوف . وأعيد اكتشاف المفكرين الذين كاد النسيان يغشى عليهم من أمثـــال خومياكوف ، و ف. سولوفييف و ك. ليونتييف K. Leontyev و ن. فيدوروف ، و ف. روزانوف V. Rozanov وظفـــروا بالاعتراف بهم . وتلاشى الاهتمـــام بالتيار المستنير العدمى « الشعبى » من الفكر الروسى . وكان هـــذا هو العصر الذى جرت فيه أدق المحادثات حـــول الموضوعات الجمالية الصوفية كل أربعاء فى برج مراقبـــة فياتشسلاف ايفـــانوف Vyacheslav Ivanov (وهذا هو الاسم الذى أطلق على الشقة القائمة فى الدور السادس فى مواجهة قصر توريدا Taurida حيث كان يعيش أشد الشعراء الرمزيين الروس ابداعا) .

وفى هـــذا الوقت كانت ثورة ١٩٠٥ تغـــلى حولهم . ولم يكن بين المستويات العليا والسفلى من الثقافة الروسية أى شىء مشترك . فثمة انفصال تام . وكلا المستويين كأنهما يعيشـــان على كوكبين مختلفين . ويمكن أن توصف هـــذه الحركة — بوجـــه عام — بأنها نزعة رومانسية روسية أصيلة ، ولكنها كانت فى الشطر الذى يتجه منها صوب الدين ، انتقالا الى الواقعية الدينية . ولم يكن ثمة شىء رجعى فى النهضة الثقافية

فى بداية القرن ، بل ان كثيرا من أنصارها العاملين قد تعاطفوا تعاطفا واضحا مع الثورة والاشتراكية . غير أن الاهتمام بالمسائل الاجتماعية . تراخى ، ولم يكن لأولئك الذين ينشطون فى الثقافة الروحية أى تأثير على الخميرة الثورية الاجتماعية الآخذة فى العلو ، ذلك أنهم كانوا يعيشون فى الدوائر المغلقة التى ينحصر فيها « الصفوة » . وفى الوقت نفسه ، نشبت مشاجرات عاصفة بين البلاشفة والمناشفة ، وبدأت منظمة الحزب البلشفى فى النمو . وكان بليخانوف ، رئيس العصبة المنشفية من الديموقراطيين الاجتماعيين ، من العاكفين على الكتب الذين يضعون النظريات للماركسية ، ولكنه لم يكن زعيما ثوريا . أما الزعيم الثورى الحقيقى ، فهو لينين ، مؤسس الحركة الشيوعية الروسية والعالمية .

وبدأ الانقسام بين الديموقراطيين الاشتراكيين الروس ، وبين البلاشفة والمناشفة بمؤتمر الحزب الديموقراطى الاشتراكى الذى عقد فى لندن سنة ١٩٠٣ ، وفى هذا المؤتمر ظفر البلاشفة « بأغلبية » عددية ، ولم يظفر المناشفة بغير « أقلية » من الأصوات . وكان لكلمة « البلشفية » نفسها مصير شائق جدا ، فهذه الكلمة ليس لها فى الأصل أى لون على الاطلاق ، وهى تعنى أولئك الذين أيدوا الأغلبية فى المؤتمر ، ولكنها اكتسبت فيما بعد معنى « رمزيا » . وارتبطت بكلمة « بلشفية » فكرة القوة ، وارتبطت بكلمة « منشفية » فكرة الضعف . وفى ثورة سنة ١٩١٧ اجتذبت البلشفية الجماهير الثائرة بوصفها قوة تعطى « أكثر » ، بينما كانت المنشفية توحى بأنها أضعف ، وأنها تعطى « أقل » .(١) وهكذا اكتسبت كلمة « بلشفية » التى لم تكن فى البداية سوى كلمة متواضعة ذات أهمية يسيرة ، اكتسبت دلالة المعيار أو الشعار . وللكلمة نفسها رنين قوى معبر . بيد أنه من السمات المميزة للانشقاق الذى حدث فى الثقافة الروسية أن كلا من البلاشفة والمناشفة وجميع العاملين النشطين فى الحركة الاجتماعية الثورية لم يكونوا يصدرون عن نفس الأفكار المسيطرة

---

(١) Bolshe فى الروسية معناها أعظم ، menshe معناها « اقل » .

على المستوى الأعلى فى الثقافة الروسية ، فقد كانت الفلسفة الروسية أجنبيـــة عنهم ، ومشكلات الروح لاتعنيهم ، ولهذا ظلوا ماديين ووضعيين . ولم يكن المستوى الثقافى عاليا ، لا بالنسبة الى الأغلبية العظمى من الثوريين فحسب ، بل ولزعماء الثورة أيضا ، كان تفكيرهم أوليا ، وظلوا غريبين على التأثير الروحى الذى انتشر فى أوربا وروسيا فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، وبقيت الموضوعات التى تناولها دوستويفسكى و ل. تولستوى و ف. سلوفييف ونيتشـــه والمثالية الألمـــانية ، والرمزية ، وموضوعات المسيحية بوجه عام — نقول بقيت هذه الموضوعات أجنبيـــة عنهم .

وكانت هناك ثقافة عقلية أعلى بين العناصر المتجمعة حول « اتحاد التحرير » ، وهى منظمة تألفت سنة ١٩٠٣ — سنة ١٩٠٤ ، وتمثل كتلة ليبرالية — راديكالية عريضة فى الصراع ضد الأوتوقراطية من أجل الحرية السياسية . وفى هذه الكتلة حاولت الجماعات العريضة من الانتلجنسيا اليسارية أن تتحد مع الليبراليين من أجل الحكم الذاتى فى المدينة والريف . كما اشترك فيها أيضا الديمقراطيون والاشتراكيون الأكثر اعتدالا غير أن « اتحاد التحرير » هذا الذى قامت فيه قوى عقلية واضحة بدورها ، لم يكن قادرا على تزعم الحركة الثورية ، اذ لا يمكن ان تنجح أيـــة حركة فى روســـيا الا اذا كانت فى ظل الاشتراكية لا الليبراليـــة ، والا اذا كانت تستلهم نظرة شمولية عالمية . وهكذا فبدائية أفكار ثورة سنة ١٩٠٥ وفجاجتها والتى كان واضحا فيها تراث العدمية الروسية ، أدت الى أن نفر منهـــا أولئك الذين كانوا يعملون للنهضة الثقافية ، وأثارت رد فعل روحيـــا .

وفى هذا الوقت أعيد تقدير أقيم فى وجهة النظر العالمية التى تصطنعها الانتلجنسيا الروسية ، وقد وجد ذلك تعبيرا عنه فى الكتاب المشترك « معالم الطريق » الذى أثار ضجة كبيرة حين ظهوره ، وهو الكتاب الذى تعرضت فيه للنقد الشديد المـــادية والوضعية ونفعية الانتلجنسيا الثورية ، وعـــدم اكتراثهـــا بالقيم العليـــا فى حيـــاة الروح . نشب صراع من أجل الدفاع

عن الروح ، لكنه لم يؤثر تأثيرا اجتماعيا واسع النطاق . فقد أخذ هذا الصراع من اجل الروح على انه رجعى ، بل كاد ان يكون خيانة للكفاح من اجل الحرية ، وذلك كله تمشيا مع تراث الانتلجنسيا الروسية القديمة. هكذا كان الجو الثقافى قبل الثورة ، بينما كان فى داخل الحركة الثورية نفسها مشاهد تدل على ضعف وعدم استعداد الناشفة الديمقراطيين الاشتراكيين والثوريين الاشتراكيين الذين واصلوا حمل التراث « الشعبى » .

وكانت هذه الفترة هى فترة « الدوما الامبراطورى » وبدايات البرلمان الروسى الذى كانت الحقوق التى يتمتع بها ما تزال محدودة ، كما كانت فترة تكوين حزب ليبرالى كبير ، لأول مرة — هو الحزب المعروف باسم حزب « الكاديت » Kadets بزعامة ب. ميليوكوف P. Milyukov. وبدا — فى المستويات العليا من الحياة الروسية — أن الليبرالية بدات تلعب دورا هاما ، وأن على الحكومة أن تحسب لها حسابا .

غير أن المفارقة العظمى فى الحياة الروسية والثورة الروسية ، تكمن فى أن الأفكار الليبرالية وأفكار اليمين وأفكار الاصلاح الاجتماعى ، تبدو فى روسيا على انها طوباوية . أما « البلشفية » فقد اظهرت نفسها — من ناحية أخرى — على أنها أقل طوباوية ، وأكثر واقعية ، وانها أشد توافقا مع الموقف المعقد فى روسيا سنة ١٩١٧ ، وأكثر ولاء لبعض التقاليد الروسية الجوهرية ، كالبحث الروسى عن العدالة الاجتماعية الشاملة مفهومة بمعنى مكسيمالى maximalyzing sense (مادى) ، والمنهج الروسى فى الحكومة ، والسيطرة بالقهر (١) . وهذا شىء حدده مقدما مجرى التاريخ الروسى كله ، كما حدده أيضا ضعف القوة الروحية الخلاقة بيننا . ان الشيوعية هى قدر روسيا المحتوم ، واللحظة الباطنية فى مصير الشعب الروسى .

---

(١) فى مقال كتبته سنة ١٩٠٧ ، وظهر فى كتابى : « أزمة الانتلجنسيا الروحية » تنبأت بصورة محددة ، انه لو قامت الثورة الكبرى فى روسيا ، فانه من المحتم أن ينتصر البلاشفة . (المؤلف) .

الفصل السادس

الشـيوعية الروسـية والثورة (١)

كانت الثورة الروسية عالمية فى مبادئها شأنهـا شأن كل ثورة عظيمة، وقامت تحت راية العالمية ، ولكنها مع هذا كله كانت قومية بصورة عميقة ، وأصبحت من حيث نتائجها قومية أكثر فأكثر . والصعوبة التى يلقاها المرء فى تكوين حكم عن الشيوعية ترجع الى هذه الطبيعة المزدوجة التى تتسم بهـا : فهى روسية وعالمية فى آن واحد . وما كان من الممكن أن تقوم ثورة شيوعية الا فى روسيا . ولا بد أن تبدو الشيوعية الروسية للشعوب الغربية ذات طابع آسيوى ، ويكاد الا يكون فى الامكان أن تقع ثورة شيوعيـة من هـذا القبيل فى بلاد أوروبا الغربية ، فليس من شك أن كل شىء يحدث هنـاك على نحو مختلف . أن نفس النزعة العالميـة للثورة الشيوعية الروسية روسية وقومية خالصـة . وانى لأميل الى الظن بأن المساهمة الايجابية التى أسهم بهـا اليهود فى الشيوعية الروسية سمة مميزة لروسيا وللشعب الروسى . فالمسياوية الروسية تمت بصـلة القرابة للمسياوية اليهودية .

ولينين نفسه روسى صميم . وفى وجهة المعبر المميز شىء روسى — مغولى ، وفى شخصيته ملامح روسية صميمـة ، ولكنهـا ليست ملامح الانتلجنسيا بوجه خاص ، بل ملامح الشعب الروسى ، وهى البساطة ، والتكامل ، والصلابة ، والنفور من كل تزويق وتهويل ، والتفكير العلمى ، والميل الى نوع من الكلبية العدميـة nihilist cynicism على أسس

(١) المؤلفات التى تعالج الشيوعية الروسية كثيرة ، بيد أن معظمها لا قيمة له . ويمكن ان نذكر المؤلفات التالية :

René Fülöp-Mille. Geist und Gesicht des Bolshevimus

Waldemar Gurian. Le Bolchevisime. C. Malaparte Le Bonhomme Lenine

Fedor Stepan, Das antlitz Russlands and das Gesicht der Revolution ;

Berdyaev, Probleme du Commuisme.

أخلاقية . وهو يذكرنا — بطرق شتى — بالنمط الروسى الذى وجد تعبيرا عنه فى عبقرية ل. تولستوى ، وان لم يستطع التغلب على ما فى حياة تولستوى الباطنية من تعقيد . ولقد كان لينين مخلوقا من قطعة واحدة ، وكأنه نصب مؤلف من حجر واحد . والدور الذى قام به دليل واضح على دور الشخصية فى الأحداث التاريخية . كان من الممكن أن يكون لينين زعيما للثورة وأن يحقق خططه التى دبرها منذ زمن طويل ، لأنه لم يكن عضوا نموذجيا فى الانتلجنسيا الروسية . وفيه تقوم السمات المميزة للانتلجنسيا الطائفية الروسية جنبا الى جنب مع سمات الروس التى صنعت وشكلت الدولة الروسية . وقد جمع فى نفسه ملامح من تشرنشفسكى ، ونيتشايف ، وتكاتشف ، وجليابوف ، مع ملامح من أمراء موسكو العظام ، ومن بطرس الأكبر ، ومن الحكام الروس المنتمين الى النمط المستبد . وفى هذا تكمن أصالته . فهو ثورى ورجل دولة فى الوقت نفسه . وقد مزج بين الأفكار الثورية المتطرفة والنظرة الثورية الشمولية بالمرونة والانتهازية فى الوسائل التى استخدمها فى النضال والتطبيق السياسى . وهذا هو الطراز الناجح الظافر من النـاس . وهو يجمع بين البساطة واستقامة القصد والزهد العملى ، والنفاق ، والدهاء ، بل والمكر . ولم يكن فى لينين أى أثر من آثار البوهمية الثورية — فذلك شىء لم يكن يحتمله . وفى هذا أيضا كان على نقيض أشخاص مثل تروتسكى أو « مارتوف Martov زعيم الجناح اليسارى من المناشفة .

وفى حياته الخاصة كان لينين يربط بين الترتيب والنظام . كان رب أسرة ممتاز ، فهو يحب البقاء فى بيته والعمل فيه ، ولا يميل الى المناقشات التى لا تنتهى فى المقاهى ، وهى المناقشات التى كانت تميل اليها الانتلجنسيا ميلا شديدا . ولم يكن فيه أى عنصر فوضوى ، كما لم يكن يحتمل الفوضوية ، ويحاول أن يميط اللثام دائما عن طبيعتها الرجعية ، ولم يكن يحتمل الرومانتيكية الثورية وأساليب البلاغة الكلامية . وكان يندد دائما بهذه الأمور فى الأوساط الشيوعية بوصفه رئيسا لمجلس قوميسارى الشعب ، وزعيما لروسيا السوفيتية ، وكان يثور ضد الاختيال الشيوعى ،

والتهريج الشيوعى ، ونصب نفسه محاربا ضد « مرض الطفولة اليسارى » فى الحزب الشيوعى . وفى سنة ١٩١٧ حين كانت الفوضى وكان الاضطراب يهددان روسيا ، بذل لينين فى خطبه جهودا لا نظير لهـا لاحلال النظام بين صفوف الشـعب الروسى ، وصفوف الشـيوعيين أنفسهم . وكان يهيب بالأشياء الأولية : بالعمل والنظام والاحساس بالمسئولية ، وبالمعرفة وبالعلم، وبالروح البناءة الايجابية ، ولم يكن يدعو الى الهدم لمجرد الهـدم . وكان ينـدد بالكلام الثورى المنمق ، ويفضح الميول الفوضوية . وكان يكشف الغطاء عن الهوة ، ويمنع روسـيا من التردى فيها ، ولكنه منعها بالاستبداد والطغيان ، وفى هذه الوسائل يشبه القيصر بطرس الأكبر . وكان لينين يدعو الى سياسة قاسية ، ولكنـه لم يكن هو نفسه رجلا قاسيا ، ولم يكن يحب هذه القسوة حين يشكو اليـه الناس من قسوة التشيكا (البوليس السياسى الروسى) وكان يقول انه لم يكن مسئولا عن هذه القسوة ، وانها أمر لا يمكن تحاشيه فى الثورة ، ومن المحتمل أنه لم يكن يستطيع هو نفسه الاشراف على التشيكا . وفى الحياة الخاصة ، كان يتمتع بقدر كبير من طيبة القلب ، وكان شغوفا بالحيوانات ، ويحب المزاح والضحك ، وكان يرعى حماته رعاية مؤثرة ، وكثيرا ما كان يقـدم اليها الهدايا .

وهـذه الملامح من شخصيته كانت مبررا لأن يسميه « مالابارت » Malaparte « بورجوازيا صغيرا » ، وهى تسمية غير صادقة تماما (١) . وكان لينين فى شبابه يحترم بليخانوف احتراما عظيما ، يبلغ حـد التبجيل ، وينتظر لقاءه الأول معه فى حماس حار (٢) . وحين تبدد وهمه فى بليخانوف بعد أن رأى فيه تفاهة حبالذات ، والطموح ، والاحتقار المترفع لزملائه ، كان هذا يعنى تبدد وهمه فىالشعب بوجه عام . يبـدو أن الصدمة الأولى التى جعلت موقف لينين من العالم والحياة يستقر ، كانت هى اعدام أخيه الذى كان مشتركا فىالنشاط الارهابى . كان والد لينين موظفـا فى الأقاليم

---

(١) راجع كتاب « لينين الطيب » Le bonhomme Lenine بقلم C. Malaparte

(٢) مجموعة يوبيل لينين .

خدم طويلا بحيث وصل الى الدرجة المناظرة لرتبة جنرال فى الجيش ، لكى يظفر بالعضوية الوراثية فى طبقة النبـلاء . وحين أعدم أخوه أدار مجتمع الاقليم ظهره لأسرة لينين ، وكان هذا أيضا تبديدا لوهم لينين الشاب فى الشعب ، وهكذا نمـا فى نفسه موقف من السخرية الوديعة تجاه الجنس البشرى . فلم يؤمن بالانسان ، ولكنـه أراد أن ينظم الحياة على نحو يجعل من الممكن أن يحيـا النـاس فى حرية أعظم ، وألا يكون ثمة اضطهاد انسان لانسان.

وفى الفلسفة والفن والثقافة الروحية ، كان لينين شخصا متأخرا من أنصار القديم (سلفيـا) فهو فى أذواقه وتعاطفاته ينتمى الى الأشخاص الذين عاشوا فى الستينات من القرن المـاضى . وقد جمع بين الثورة فى المجال الاجتماعى وبين الرجعية فى المجال الروحى ، وكان يصر على الطابع الأصيل ، والقومى المتميز للثـورة الروسية ، ويقـول دائما انها لن تكون كمـا تصورها فقهـاء المـاركسية . وبهـذه الطريقة أدخـل دائمـا تصحيحات على المـاركسية . وعرض نظـرية الثورة الروسية وتكتيكاتهـا وحققها فى الواقع العلمى . واتهم المناشـفة بأنهم يتبعـون ماركس على نحو متزمت ، ويريدون نقل مبادئه نقـلا مجرداً الى التربة الروسـية . لم يكن لينين من واضعى النظـريات فى المـاركسية مثـل بليخانوف ولكنه كان من واضعى النظريات فى الثـورة ، وكل ما كتبـه كان تناولا لنظرية الثورة وتطبيقها . ولم يحـاول مطلقا أن يضـع تفاصيل برنامج معـين ، بل كان معنيا بشىء واحد ، هو الاستيلاء على السـلطة والحصول على القوة اللازمة لتحقيق ذلك ، ولهـذا السبب انتصر . وكانت وجهـة نظره العامة كلها عن الحياة متكيفة مع تكنيك النضال الثورى . وهو وحده الذى فكر — قبل وقوع الثورة بأمد طويل — فيما سيحدث حين يتم الاستيلاء على السلطة ، وعلى أى نحو ينبغى تنظيم هذه السلطة .

وكان لينين امبرياليـا ، ولكنـه لم يكن فوضـويا ، كان تفكيره كله امبرياليا مستبدا ، ومن ثم كانت استقامته والتوجه الى مقصـده بأقرب طريق ، وضيق نظرته ، وتركيزه على شىء واحد ، وفقر فكره وإملاقه ، والطبيعة الأولية للشعارات التى يوجهها الى ارادته . ولم تكن ثقـافة

لينين من طراز رفيع ، وكانت هناك أمور كثيرة تغيب عن ذهنه ، وتعد مجهولة بالنسبة اليه . وكل ما هو مصفى فى الفكر او فى حياة الروح يبعث على نفوره . كان يقرأ كثيرا ويدرس كثيرا ، ولكنه لم يكن يملك رحابة فى المعرفة أو توسعا فى الثقافةالعقلية . فهو يحصل المعرفة من أجل غرض محدد ، من أجل النضال والفعل ، ولم تكن لديه اية قدرة على التأمل ، وهو يتمتع بمعرفة طيبة بالماركسية ، ومعرفة معينة بالاقتصاد . أما فى الفلسفة ، فكان يقرأ لأغراض الحجاج والجدال ، ومن اجل تسوية حسابه مع المارقين والمنحرفين عن الماركسية . ولكى يندد بماخ Mach وافيناريوس Avenarius الذين اجتذبا البلاشفة الماركسيين من أمثال بوجدانوف Bogdanov ولوناتشارسكى Lunacharsky قرأ لينين مجموعة كاملة من المؤلفات الفلسفية . ومع ذلك ، لم تكن له ثقافة فلسفية ، بل ان ثقافته فى هذا المجال أقل من ثقافة بليخانوف ، وقد حارب طيلة حياته فى سبيل تلك النظرة الشمولية المتكاملة للحياة ، التى كانت ضرورية للكفاح ولتركيز الطاقة الثورية . من هذا النسق الشمولى ، لم يكن يحتمل ازالة قالب واحد من الطوب ، ولكنه كان يطالب بقبوله كله بوصفه كلا واحدا ، ومن جهة النظر هذه كان على حق . وهو على حق فى تفكيره بأن الجاذبية التى يتمتع بها افيناريوس وماخ أو نيتشه يمكن ان تحدث صدعا فى الكل المتكامل للنظرة البلشفية وأن تضعفها فى مرحلة الكفاح . ولهذا قاتل من من أجل التكامل والاتساق فى النضال ، ولم يكن ذلك ممكنا دون نظرة دجماطيقية (قطعية) متكاملة ، ودون ايمان دجماطيقى ، او ارثوذكسية (ان صح هذا التعبير) . كان يطالب بالفكر المتبصر وبالنظام فى الصراع ضد كل ما هو اولى ، وهذا هو موضوعه الأساسى .

وكان لينين يسمح باصطناع أى منهج فى القتال من أجل تحقيق الثورة . والخير فى نظره هو كل ما يخدم الثورة ، و « الشر » هو كل مايعوقها . وهكذا كانت مبادىء لينين الثورية تنبع من منبع أخلاقى ، فهو لا يستطيع أن يحتمل الظلم والاضطهاد والاستغلال ، غير أن الفكرة الثورية المكسيمالية سيطرت عليه الى درجة أنه فقد فى النهاية الاحساس المباشر بالأختلاف

بين الخير والشر ، وفقــد الصلة المباشرة بالناس الأحياء ، وسمح بالمخاتلة والخداع والعنف والقسوة . ولم يكن لينين رجلا شريرا ، بل كان فيــه نصيب كبير من الخير ، فهو لم يكن ذا روح تجارية تقبل المساومة ، كما كان مكرسا تكريسا مطلقا لفكرة واحدة ، ولم يكن طموحا بوجه خاص ، أو عاشقاء متيما بالسلطة ، بل كان قليل التفكير فى نفســـه ، غير أن سيطرة فكرة واحــدة عليه أدت الى تضييق مخيف فى الفكر ، والى تحول أخلاقى سمح باصطنـــاع وسائل لا أخلاقية تماما فى مواصلة النضال . وكان لينين رجل أقدار ، وفى هذا تكمن قوته .

كان لينين ثوريا من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وذلك لأنه ظل طيلة حياته يدافع عن نظرة شمولية متكاملة للحياة ، دون أن يسمح بأى انتهـــاك لهـــا مهما يكن . ومن هذا نشأ شىء من الصعب فهمـــه للوهلة الأولى ، وأعنى به الحماس والغضب اللذين حارب بهما ضد أقل انحراف عما يعتقد أنه المـــاركيسة الاتباعية . كان يصر على الآراء الاتباعية ، أى تلك الآراء المتفقة مع نظرته الشمولية العـــامة ، عن المعرفة وعن المـــادة ، وعن الديالكتيك .. الخ ، والصادرة عن أى شخص يعد نفسه ماركسيا ، ويريد أن يخدم الثورة الاجتماعية . أما اذا لم تكن ماديا جدليـــا ، وكنت فى المســـائل الفلسفية البحتة تؤيد آراء ماخ ، فانك فى هذه الحالة تخون النظرية الشمولية المتكاملة عن الثورة ، ومن ثم وجب استبعادك .

وعندما حاول « لوناتشارسكى » الكلام عن البحث عن الله ، وصنع الآلهة ، وعلى الرغم من أن المناقشة كانت ذات طابع الحادى صرف ، فان لينين هاجمه هجوما عنيفا ، وقد كان لوناتشارسكى ينتمى الى جمـــاعة البلاشفة ، غير أنه كان يدخل تعقيدات الى النظرة المـــاركسية المتكاملة ، وكان هذا كافيا لطرده من حظيرة المـــاركسية . ولو سلمنا بأن المناشفة يسعون الى نفس المثل الأعلى النهائى الذى يسعى اليه لينين ، ولو سلمنا بأنهم كانوا مخلصين أيضا للطبقات العاملة ، فانهم مع ذلك لا يملكون تلك النظرة المتكاملة ، فهم لم يكونوا شموليين فى موقفهم من الثورة ، وهم يعتقدون

الأمور بحديثهم عن حاجة روسيا الى ثورة بورجوازية أولا ، وعن الاشتراكية وعدم تحققها الا بعد مرحلة تطور رأسمالى وعن الحاجة الى الانتظار حتى ينمو الوعى الطبقى بين العمال ، وعن الفلاحين وكونهم طبقة رجعية ، وهلم جرا . ولم يكن المناشفة يعلقون هم ايضا أهمية خاصة على النظرة العامة المتكاملة ، والى اعتناق المادية الجدلية اعتناقا جبريا ، وكان عدد منهم مجرد وضعيين عاديين ، بل والاشنع من ذلك حقا ، ان منهم من كان كنتيا — جديدا Neo-Kantians اى يعتنق فلسفة بورجوازية . وهذا كله أضعف الارادة الثورية ، فالماركسية هى قبل كل شىء — فى نظرة لينين — نظرية ديكتاتورية البروليتاريا . ولم يكن المناشفة يعتقدون فى امكان قيام ديكتاتورية البروليتاريا فى بلد زراعى معظمه من الفلاحين . وكانوا يريدون أن يكونوا ديموقراطيين ، وأن يعتمدوا على أغلبية ، أما لينين فلم يكن ديموقراطيا ، ولم يكن يؤكد مبدأ الأغلبية ، بل كان يضع التأكيد على مبدأ الأقلية المنتقاة ، ولهذا كثيرا ما اتهم بأنه من اتباع بلان Blanc وقد وضع خطة للثورة ، ولاستيلاء الثورة على الحكم ، وهى لا تعتمد بحال من الأحوال على نمو الوعى بين الجماهير الواسعة من العمال أو على العملية الاقتصادية الموضوعية . ولقد نبعت الديكتاتورية من نظرة لينين بوصفها كلا واحدا ، بل لقد صاغ نظرته العامة بحيث تتفق مع مبدأ الديكتاتورية . وكان يؤكد الديكتاتورية حتى فى الفلسفة ، ويطالب بديكتاتورية المادية الجدلية على الفكر .

وكان غرض لينين ، الذى يسعى اليه فى اتساق منطقى غير معهود — هو تكوين حزب قوى يمثل أقلية منظمة تنظيما حسنا ، وخاضعة لضبط حديدى ، ويعتمد على قوة نظرته الماركسية الثورية المتكاملة . ولا بد أن يكون للحزب مذهب لا يتغير فيه شىء أيا كان ، وعليه أن يمهد للديكتاتورية على الحياة بوصفها كلا كاملا . وكان تنظيم الحزب نفسه الذى كان مركزيا الى أقصى حد — ديكتاتوريا على نطاق ضيق . وكان كل عضو فى الحزب خاضعا لديكتاتورية المركز هذه . وكان على الحزب البلشفى الذى شيده لينين فى أعوام طويلة ، أن يقدم النموذج لتنظيم روسيا كلها فى

المستقبل ، والواقع أن روسيا نظمت وفقا لتنظيم الحزب البلشفى وخضعت روسيا بأسرها ، والشعب الروسى بأسره ، لا لديكتاتورية الحزب الشيوعى فحسب ، بل لديكتاتورية الديكتاتور الشيوعى أيضا ، وفى الفكر ، وفى الشعور . وقد أنكر لينين الحرية داخل الحزب . وهذا الانكار للحرية انتقل الى روسيا كلها .

هذه بلا شك هى ديكتاتورية النظرة العامة التى مهد لها لينين ، ولقد كان قادرا على أن يفعل ذلك لأنه جمع فى نفسه بين تراثين : تراث الانتلجنسيا الثورية الروسية فى أشد ميولها المكسيمالية ، وتراث الحكومة الروسية فى أشد جوانبها استبدادا . وقد بقى المناشفة الديمقراطيون الاشتراكيون والثوريون الاشتراكيون فى تيار التراث الأول وحده ، فى صورة مخففة ، غير أن امتزاج تراثين فى نفس لينين كانا فى القرن التاسع عشر فى صراع مميت — مكنه من وضع خطة لتنظيم الدولة الشيوعية ، واخراجها الى حيز التنفيذ . ومهما بدا هذا القول منطويا على مفارقة ، فالبلشفية هى الصورة الثالثة التى ظهرت بها الامبراطورية الأوتوقراطية الروسية ، فكان ظهورها الأول هو القيصرية المسكوفية ، وظهورها الثانى هو امبراطورية بطرس . والبلشفية تؤيد قيام دولة مركزية قوية . ولقد تحقق اتحاد بين الارادة المتطلعة الى العدالة الاجتماعية ، والارادة الطامحة الى السلطة السياسية ، وكانت الارادة الثانية هى الأقوى . وحين دخلت البلشفية الى الحياة الروسية دخلت بوصفها قوة عسكرية فى أعلى مراتبها ، وكذلك كانت الدولة الروسية القديمة دائما ، ذات طابع عسكرى .

ولقد كانت مشكلة السلطة مشكلة جوهرية بالنسبة للينين ، ولأتباعه جميعا ، وهى تميز البلاشفة عن غيرهم من الثوريين ، فقد أنشأوا هم أيضا دولة بوليسية شبيهة فى وسائلها الحكومية بالدولة الروسية القديمة . غير أن تنظيم الحكومة واخضاعها لجماهير العمال والفلاحين لا يمكن أن يكون مقصورا على استعمال القوات المسلحة وحدها ، أو على القهر وحده ، وانما كانت الحاجة تدعو الى مذهب متكامل ، والى نظرة عامة متسقة ، وكان المطلوب رموزا تمسك بأجزاء الدولة بعضها الى البعض الآخر ، ففى القيصرية المسكوفية ، وفى الامبراطورية كان الشعب مترابطا بوحدة الايمان

الدينى ، وهكذا كان لا بد أيضا من ايمان جديد يتم التعبير عنـه للجماهير فىرموز أولية . وكانت المـاركسية فى صورتها الروسية مناسبة تمـاما لهـذا الغرض .

ومن المؤلفات الهامة فى فهم التمهيدات الخاصة بديكتاتورية البروليتاريا التى هى ديكتاتورية الحزب الشيوعى ، كتاب لينين : «ماذا ينبغى أن نفعل؟» وكان قد وضعه فعلا فى عام ١٩٠٢ حين لم يكنالانشقاق قد وقع بعـد بين البلاشفة والمناشفة ، وهو مثال يلقى الضوء الساطع على المجادلات الثـورية . ولينين معنى فيه بصفة رئيسية بمحـاربة ما يعرف بالنزعة الاقتصادية المتطرفة ، ومحاربة الثقة فىالدوافع الأولية من حيث امكانية تمهيدها للثورة ، وكانت النزعة الاقتصادية المتطرفة انكارا للنظرة الثورية المتكاملة ، والعمل الثورى . ومقابل هذه الدوافع الأولية وضع لينين وعى أقلية ثورية طلب اليها الاشراف على العملية العامة . وكان لينين يطالب بأن يأتى التنظيم من أعلى ، لا من أسفل ، أى أن يكون التنظيم منالنمط الديكتاتورى ، لا من النمط الديمقراطى . وكان يسخر من أولئك المـاركسيين الذين كانوا ينتظرون دائمـا نمو دوافع المجتمع الأولية ، ولهذا لم يؤكد ديكتاتورية البروليتاريا التجريبية التى كانت شديدة الضعف فى روسـيا ، وانمـا أكد فكرة بروليتاريا يمكن أن تتغلغل فيهـا أقلية ضئيلة . وكان لينين دائمـا ضـد نظرية التطور anti-evolutionist وضد الديمقراطية فى الواقع ، وكان لهـذا تأثيره على الفلسفة الشيوعية الناشئة . ولمـا كان لينين ماديا ، فانه لم يكن ممن يعتقدون فى النسبية بكل تأكيد ، فكان يبغض الأخيرة هى ومذهب الشكية بوصفهما نتاجا للروح البورجوازية . كان لينين من أصحاب النزعة المطلقـة Absolutist اذ يؤمن بالحقيقة المطلقة . ومن العسير على المـادية أن تشيد نظرية للمعرفة تقبل الحقيقة . غير أن هـذا لم يزعج لينين على الاطلاق . و « سذاجته » المذهلة فى الفلسفة ترجـع الى ارادته الثورية المتكاملة ، والبرهان المطلق لا تؤكده المعرفة أو الفكر ، بل تؤكده ارادة ثوريـة عارمة ، وكانت رغبتـه هى انتقـاء أشخاص يتمتعون بهـذه الارادة الثـورية القوية . والمـاركسية الشـمولية ، أو المـاركسية الجدليـة هى فى نظـره الحقيقة المطلقة . وهذه الحقيقة سـلاح يستخدم من أجل الثـورة وتنظيم الديكتـاتورية . غير أن تعليما

يرسى أساسا لمذهب شـمولى يحتضن الحيـاة كلها ـ لا السـياسة والاقتصاد وحدهما ، بل والفكر والوعى والثقافة الخلاقة كلهـا أيضا ـ مثل هـذا التعليم لا يمكن الا أن يكون ايمانا .

ولقـد كان تاريخ الانتلجنسيا الروسية كله تمهيدا للشيوعية . وفى الشيوعيـة دخلت الملامح المعروفة جيدا ، واعنى بهـا التعطش للعدالة الاجتماعية والمساواة ، والاعتراف بالطبقات العـاملة بوصفها أعلى أنماط الانسـانية ، والنفور من الراسمالية والبورجوازية ، والتطلع الى نظرة متكاملة وعلاقة متكاملة مع الحياة ، والتعصب الطائفى ، والموقف الارتيابى ـ المناهض للصفوة المثقفة ، والاقتصار على هذه الحياة الدنيا ، وانكار الروح والقيم الروحية ، والولاء الشبيه بالولاء الدينى للمادية . هـذه جميعا كانت دائمـا من سمات الانتلجنسيا الراديكالية الروسية . واذا كانت بقايا الانتلجنسيا القديمـة ما برحت موجودة ، ولم تنضم الى البلشفية ، ولم تتعرف على سماتها الخاصة فى أولئك الذين تمردت عليهم ـ فهـذا انحراف تاريخى ، وفقـدان للذاكرة راجع الى رد فعل عاطفى . لم تفكر الانتلجنسيا الثورية القديمة فيمـا سيئول اليه أمرهـا اذا حصلت على السلطة ، اذ تعودت على أن تقبل نفسها بوصفها عاجزة مضطهدة ، أما القوة والقدرة على الاضطهاد فكانت تبدو وليدة نمط آخر أجنبى تمـاما ، مع أن هـذا الوليد هو وليدها طول الوقت . وهنـا تكمن المفارقة التى اتسمت بهـا المرحلة الأخيرة فى تطور الانتلجنسيا الروسية ، وتحولهـا الى ثورة ظافرة ، ذلك أن شطرا منها تحول الى الشيوعية ولاءم بين سيكلوجيته والظروف الجديدة ، بينما لم يتقبل شطرها الآخر الثورة الاشتراكية ، وتناسى ماضـيه الخـاص .

ولقـد انتجت الحرب نمطا روحيا جديدا يميل الى تقبل وسائل زمن الحرب لتنظيم الحياة بوجه عام ، وعلى استعداد لوضع نظرية العنف موضع التطبيق ، مع حب للسلطة واحترام عظيم للقوة . وهذه ظاهرة عالمية شاملة وكمـا نراها فى الشيوعية نراها فى الفاشية أيضـا . وقد ظهر فى

روسيا نمط انثروبولوجى جديد ، وتعبير بالوجه جديد ، وللناس من هــذا الطراز سمات مختلفة وحــركات مختلفة عن حركات أعضاء الانتلجنسيا القديمة . وكمــا حل محل نمط المثاليين الناعم فى الأربعينات نمط آخر أشد خشونة بظهور العدميين فى الستينات ، كذلكَ حدثت هــذه العمليــة على نطاق أوسع فى ظروف الثورة المظفرة التى هى نفسها نتيجة لظروف فترة الحرب ، وفضلا عن ذلك فان الانتلجنسيا القديمة المرتبطة من حيث النشأة « بالواقعيين المفكرين » الذين ظهروا فى فترة العدمية — تلعب نفس الدور الذى لعبــه مثاليو الأربعينات فى الستينات ، وتمثل النمط الأكثر نعومة . ونتيجة لمــا أصاب ذاكرتها من ضعف بفعل العاطفة ، فانهــا تنسى أنهــا قد انحدرت من تشرنشفسكى الذى كان يحتقر هرتزن بوصفه مثاليا ناعما من الأربعينات . وكان الشيوعيون يصفون الانتلجنسيا الثورية والراديكالية القديمة ، ساخرين بأنها بوجوازية ، كما وصف العدميون والاشتراكيون فى الستينات انتلجنسيا الأربعينات بأنها « طبقة النبلاء والأعيان » . والواقع أن دافع القوة والسلطة فى النمط الشيوعى الجديد قد أزاح دوافع الحب والعدالة والتعاطف القديمة . وفى هذا النمط نشــأت خشونة تحولت الى قسوة .

وقد كان هذا النمط الروحى الجديد تربة صالحة تمــاما لتنفيذ خطط لينين ، فأصبح المــادة التى منها نظم الحزب الشيوعى ، كمــا صار القوة المسيطرة فى بلد واسع الأرجاء . وهــذا النمط الروحى الجديد الذى دعى الى الحكم فى الثورة تمت تعبئته من العمــال والفلاحين ، واجتاز فترة من التدريب العسكرى والنظام الحربى . وهؤلاء الأشخاص الجدد الذين خرجوا من صفوف الجماهير ، كانوا غرباء على تقاليد الثقافة الروسية ، وكان آباؤهم وأجدادهم أميين ، لم ينالوا حظا من الثقافة أيا كان ، ويعيشون على الايمان وحده ، وكانوا يبغضون رجال الثقافة القديمة ، وفى لحظة الانتصار تحول هذا البغض الى انتقــام . ويمكن أن نفسر كثيرا من الأمور تفسيرا نفســيا بهذه النقطة . ففى المــاضى ، أحست الجماهير بظلم نظام اجتماعى قائم على اضطهاد العمــال واستغلالهم ، ولكنها احتملت فى مذلة واستسلام

نصيبها الأليم . غير أن الساعة قد حانت ، ولم تعد هذه الجماهير تحتمل شيئا من ذلك ، وتغير التركيب الروحى للشعب تغيرا تاما . وكانت هذه عملية نموذجية ، فالضعف والمسالمة يمكن ان يتحولا الى شراسة وضراوة . ولم يكن لينين يستطيع أن يحقق خطة الثورة والاستيلاء على السلطة دون تغيير فى روح الشعب . وكان هذا التغيير عظيما الى درجة أن هؤلاء الناس الذين عاشوا على المعتقدات اللا معقولة والذين كانوا مستسلمين لقدر لا معقول ، قد جنوا جنونا باخضاع الحياة كلها للعقل دون استثناء ، وأصبحوا يؤمنون بالآلة بدلا من الله . ودخل الشعب الروسى الذى خرج من مرحلة امتداد جذوره فى الأرض ، والذى يعيش تحت سيطرتها الصوفية — دخل فى عصر تكنيكى يؤمن فيه بقوة الآلة القادرة على كل شىء ، وبقوة غريزته القديمة بدأ يعامل الآلة وكأنها طوطم Totem ومثل هذه التحولات ممكنة فى روح شعب ما .

كان لينين ماركسيا ، يؤمن برسالة البروليتاريا الشاملة . وكان يعتقد أن العالم يقترب من عصر الثورات البروليتارية ، ولكنه كان روسيا ، وأحدث ثورته فى روسيا ، وهى بلد ذات طبيعة خاصة تماما ، وكان لينين على حساسية خاصة جدا بالموقف التاريخى ، وأحس بأن اللحظة التى كان ينتظرها قد حانت ، وأنها قد حانت بفضل الحرب التى عجلت بانهيار النظام القديم . وكان عليه أن يحدث فى دولة زراعية أول ثورة بروليتارية فى العالم ، وأحس بنفسه متحررا من أى نوع من أنواع المذاهب المتحجرة التى أضجره بها المناشفة الماركسيون ، وأعلنها ثورة عمال وفلاحين ، وجمهورية عمال وفلاحين ، وقرر ان يستغل الفلاحين فى ثورته البروليتارية ، ونجح فى ذلك ، مما أوقع الفقهاء الماركسيين فى الحيرة .

بدأ لينين بثورة زراعية ، مستخدما كثيرا من الأشياء التى قررها « الشعبيون » الاشتراكيون من قبل . وقد دخلت العناصر الثورية من النزعة الشعبية فى « اللينينية » بصورة متغيرة ، وبدا الثوريون الاشتراكيون الذين

يمثلون التقاليد القديمة سطحيين ، ومن ثم فقد نحوا جانبا . وكان لينين يفعل كل شيء بصورة أفضل وأسرع وأوفى ، وكان يعطى أكثر مما يعطون . وقد أدى هذا الى اعلان دستور اخلاقى ثورى جديد يتجاوب مع نمط سيكلوجى جديد ، ومع الظروف الجديدة . وتبين الناس أن الأمور تختلف تماما عما كانت عليه أيام الانتلجنسيا الثورية القديمة ، فقد أصبحت أقل انسانية ، كما انها تسمح بكل ضروب القسوة ، وكان لينين معاديا للنزعة الانسانية وللنزعة الديمقراطية وفى هذا كان رجل عصر جديد ، عصر لم يكن عصر الثورة الشيوعية وحدها ، بل عصر الثورة الفاشية أيضا . وسيقلده فيما بعد موسولينى وهتلر ، وسيمثل ستالين النمط الأخير للزعيم — الديكتاتور . لم تكن اللينينية هى الفاشية طبعا ، بيد أن الستالينية تقترب كثيرا من الفاشية .

وفى سنة ١٩١٧ أى بعد خمسة عشر عاما من ظهور كتاب : « ماذا ينبغى أن نفعل ؟ » كتب لينين : « الثورة والدولة » ، وربما كان هذا الكتاب هو أهم كتاباته جميعا ، وفيه رسم تخطيطا لمشروع تنظيم الثورة والسلطة السياسية ، وهو مشروع مرسوم على أساس أن يكون فعالا فترة طويلة . ليس المهم هو أنه وضع هذه الخطة ، وانما المهم هو أنه قام بتنفيذها ، فقد تنبأ بوضوح كيف سيسير كل شيء ، وفى هذا الكتاب شيد لينين نظرية الدور الذى ستلعبه الدولة فى مرحلة الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، وهى مرحلة يمكن أن تطول أو تقصر . ولم يكن ثمة شيء من هذا فى ماركس نفسه الذى لم تكن لديه رؤية واضحة عن كيفية تحقيق الشيوعية ، وعن الأشكال التى يمكن أن تتخذها ديكتاتورية البروليتاريا . وقد رأينا أن الماركسية — فى نظر لينين — هى أولا وقبل كل شيء ، نظرية ديكتاتورية البروليتاريا وتطبيقها . ومن ماركس كان من الممكن استخلاص استنتاجات فوضوية ، وانكار الدولة انكارا مطلقا . وكان لينين ينفر نفورا حاسما من هذه الاستنتاجات الفوضوية التى كان من الواضح أنها لا تلائم تنظيم القوة الثورية وديكتاتورية البروليتاريا .

وينبغى أن تموت الدولة — بكل تأكيد فى المستقبل بوصفها شيئا لا تدعو

اليه الضرورة ، غير أن دور الدولة فى المرحلة الانتقالية ينبغى أن يتزايد ، وديكتاتورية البروليتاريا أى ديكتاتورية الحزب الشيوعى — تعنى سلطة أقوى وأشد استبدادا من السلطة الموجودة فى الدول البورجوازية . ولقد كانت الدولة دائمـا — طبقا للنظرية المـاركسية — هى تنظيم الحـكم الطبقى ، وديكتاتورية الطبقات الحاكمة على الطبقات المضطهدة المستغلة. وستتلاشى الدولة وسيحل محلها فى نهاية الأمر مجتمع منظم بعـد زوال الطبقات . فالدولة توجد طالمـا وجدت الطبقات ، غير أن الاختفاء الكامل للطبقات لا يمكن أن يتم عقب انتصار البروليتاريا الثورية مباشرة . ومما لا ريب فيه أن لينين لم يكن يعتقد أن المجتمع الشيوعى سيظهر أخيرا الى الوجود عقب ثورة أكتوبر فى روسيا.فما زال الأمر يحتاج الى عملية تمهيدية والى صراع مرير . وفى أثناء فترة التمهيد هذه ، حين لا يكون المجتمع قد تحرر من الطبقات ، فان الدولة ذات السلطة المركزية القوية ، ضرورية لديكتاتورية البروليتاريا حتى تسحق الطبقات البورجوازية . ويقول لينين ان الدولة البورجوازية يجب أن تتحطم بواسطة العنف الثورى ، وستتلاشى الدولة البروليتارية المشكلة حديثا بقدر ما يتحقق المجتمع الشيوعى الخالى من الطبقات . كانت البروليتاريا فى المـاضى خاضعة لسيطرة البورجوازية، ولـكن ينبغى فى المرحلة الانتقـالية للدولة البروليتـارية التى تحـكمها الديكتاتورية — أن تسحق البورجوازية على أيدى البروليتاريا . وفى هذه المرحلة على الموظفين المدنيين أن يطيعوا أوامر العمال .

ويعتمد لينين فى كتابه هذا على انجلز اعتمادا رئيسيا ، ويستشهد به باستمرار . وقد كتب انجـلز الى ببيل Bebel سنة ١٨٧٥ يقول : « اذا كانت البروليتاريا ما برحت فى حاجة الى الدولة ، فانهـا لا تحتاج اليها من اجل مصالح الحـرية ، بل من أجل سحق خصومها » . وهنا نلمس بوضـوح أن « انجلز » كان سـلفا للينين . ومن رأى لينين أن البروليتاريا وتحقيق الشيوعية فى غير ما حاجة بالتأكيد الى الديموقراطية ، فهى ليست السبيل المؤدية الى الثورة البروليتارية ، ولا يمكن أن تتحول الديموقراطية البورجوازية الى الشيوعية ، بل ينبغى تحطيـم الحكومة

الديموقراطية البورجوازية لكى تتحقق الشيوعية ، والديموقراطية ضارة غير ضرورية بعد انتصار الثورة البروليتارية لأنها ضد الديكتاتورية . ولا تصنع الحريات الديموقراطية شيئا اللهم الا اعاقة تحقيق الشيوعية ، والواقع أن لينين لم يكن يؤمن بالوجود الحقيقى للحريات الديموقراطية ، اذ ليست هذه الحريات الا مجرد قناع لاخفاء مصالح البورجوازية وسيطرتها . والديكتاتورية توجد أيضا فى الديموقراطيات البورجوازية : ديكتاتورية رأس المال ، ديكتاتورية المال . وفى هذا كله شىء من الحقيقة لا جدال فيه . وبانتشار الاشتراكية ستختفى الديموقراطية . ولا يمكن أن تعطى المراحل التمهيدية للشيوعية ،الحرية والمساواة ، وهذا ما يقوله لينين فى صِراحة ، وستعنى ديكتاتورية البروليتاريا العنف القاسى وعدم المساواة .

وعلى الرغم من الفهم المذهبى للماركسية ، فقد أكد لينين الأولوية الظاهرة للسياسة على الاقتصاد . ومسألة الحكومة القوية جوهرية بالنسبة له . وعلى الرغم من فقه المناشفة الماركسى ، رأى لينين فى تخلف روسيا الاقتصادى والسياسى شيئا نافعا لتحقيق الثورة الاجتماعية . ففى دولة تحكمها الملكية المستبدة ، ولم تألف الحقوق والحريات المدنية ، تكون اقامة ديكتاتورية البروليتاريا فيها أيسر من اقامتها فى الديموقراطيات الغربية . وهذا حق لا نزاع فيه . ولا بد أن تستخدم الدولة البروليتارية غريزة الخضوع ذات العمر المديد . وقد تنبأ ك. ليونتييف K. Leontyev بهذا . ففى بلاد متخلفة من الناحية الصناعية ولم تتطور فيها الرأسمالية الا قليلا ، يكون تنظيم الحياة الاقتصادية طبقا للخطة الشيوعيةأمرا أيسر . وقد وجد لينين نفسه متابعا لتراث الاشتراكية « الشعبية » الروسية ، فأكد أن الثورة ستحدث فى روسيا بطريقة متميزة ، لا بالطريقة الغربية ، أى أنها لن تحدث فى الواقع وفقا لماركس ، أو وفقا للفهم النظرى لماركس .

ولكن كيف ولماذا سينتهى عنف القهر ، وانتفاء الحرية الذى تتسم به المرحلة الانتقالية المؤدية الى الشيوعية ، مرحلة ديكتاتورية البروليتاريا ؟

وجواب لينين على ذلك بسيط ، بسيط للغاية .. فالنظــام العسكرى ، والقهر ، والديكتاتورية الحــديدية شىء ينبغى المرور من خلاله أولا وقبل كل شىء . ولن يمارس القهر على بقايا البورجوازية القديمة فحسب ، بل وعلى جمــاهير العمــال والفلاحــين ، أى على البروليتــاريا التى هى الديكتاتور . ويقول لينين ان النــاس سيعتادون فيما بعــد المحافظة على الأحــوال الأولية للحياة الاجتمــاعية ، وسيكيفون أنفسهم مع الظروف الجــديدة ، وحينئذ سيتلاشى استخدام القوة تجاه الشعب ، وستتلاشى الدولة ، وتصل الديكتاتورية الى نهايتها .

وهنا نلتقى بظاهرة طريفة جدا .. فلينين لم يكن يؤمن بالانسان ، أو يعترف بوجود أى نوع من المبدأ الداخلى فيه ، كما لم يكن يؤمن بالحرية أو بحرية الروح ، ولكنه كان يؤمن ايمانا لا حد له بالتجنيد الاجتمــاعى للانسان . كان يؤمن بأن التنظيم الاجتماعى الاجبارى يمكن أن يخلق أى نوع من انسان جديد تريده ، فهو يستطيع أن يخلق مثلا انسانا اجتماعيا تماما لا تعود به حاجة الى استعمال القوة . وكان ماركس يعتنق هــذا الاعتقاد نفسه ، أى أن الانسان الجديد يمكن أن يصنع فى المصانع ، وهذه هى طوباوية لينين ، ولكنها طوباوية يمكن أن توجد ، وقد تحققت فعلا . بيد أنه لم يتنبأ بشىء واحد ، الا وهو أن الاضطهاد الطبقى يمكن أن يتخذ شكلا مختلفا تمام الاختلاف ، ولا يشبه فى شىء شكله الرأسمالى . ولمــا كانت ديكتاتورية البروليتاريا قــد ضاعفت من قوة الدولة ، فانها تنمى بيروقراطية هائلة تنتشر كالشبكة على البلاد كلها ، وتخضع كل شىء لنفسها . وهذه البيروقراطية السوفيتية الجديدة أقوى من بيروقراطية النظام القيصرى . انها طبقة تتمتع بامتيازات ، وتستطيع أن تستغل الجماهير استغلالا لارحمة فيه . وهذا ما يحدث فعلا . فالعامل العــادى يتقاضى فى أغلب الأحيان ٧٥ روبلا فى الشهر ، مقابل ١٦٠٠ روبل يتقاضاها الموظف السوفيتى ، المتخصص فى مهنــة من المهن ، وهذا التفاوت الخطــير موجود فى دولة شيوعية . وروســيا السوفيتية بلد تســود فيه رأسمالية الدولة ، وهى رأسمالية لا تقل قدرة على الاستغلال من الرأسمالية الخاصــة . وهذه المرحلة الانتقالية يمكن أن تمتد الى أجل غير مسمى . وهؤلاء الذين يتمتعون فيها بالسلطة يكتسبون عادة السلطان ، ولا يرغبون فى احداث أية تغييرات ،

وهى تغييرات لا مناص منها لتحقيــق الشيوعية تحقيقا أخيرا ، وتصبح ارادة القوة كافية بذاتها ، ويقاتل الناس فى سبيلها بوصفها غاية لاوسيلة .

كان هذا كله شيئا يتجاوز رؤية لينين . وفى هــذا كان طوباريا على وجه الخصوص وساذجا غاية السذاجة . فقد أصبحت الدولة السوفيتية مثل اى دولة مستبدة أخرى ، وهى تستخدم وســائل التزييف والعنف نفسها ، وهى أولا وقبل كل شىء دولة من الطراز البوليسى العســكرى وسياستها الدولية تشبه دبلوماسية الدول البورجوازية كما تتشابه حبتان من البازلاء. ولقد كانت الثورة الشيوعية ثورة روسية صميمة غير أن الولادة المعجزة للحيــاة الجديدة لم تتم . وما زال آدم القــديم باقيا ، وما برح يتصرف ، وان اصطنع فى تصرفاته شكلا آخر . وقد قامت الثورة الروسية تحت راية اللينينية ــ المــاركسية ، لا تحت راية الاشتراكية « الشعبية » التىيمتد وراءها تراث قديم.غير أنه فىلحظةالثورة فقدت الاشتراكيةالشعبية فى روسيا تكاملها وطاقتها الثورية ، واستنفدت قواها ، وبددتها تبديدا . كان فى امكانها أن تلعب دورها فى ثورة فبراير (وهى ثورة كانت ما تزال بورجوازية) التى قامت بها الانتلجنسيا ولكنها كانت أشد حرصا على مبدأ الديمقراطية منها على مبدأ الاشتراكية ، لم تكن تستطيع أن تلعب أى دور فى ثورة أكتوبر أى الثورة الاشتراكية الكاملة النضج والتى قامت بها الجماهير ، فلقــد امتصت اللينينية ــ المــاركسية العناصر الضرورية كلهــا من الاشتراكية الشعبية ، ولكنهــا نبذت نزعتها الانسانية العظيمة ورهافتهــا الأخلاقية بوصفهما عقبات فى سبيل الحصول على السلطة ، وبذلك كانت أقرب الى الموقف الأخلاقى الذى اتخذته الحكومة المستبدة القديمة .

(٢)

ان كل حكم على الثورة الروسية يفترض سلفا حكما على الثورة بوجه عام بوصفها ظاهرة خاصة ، وروحية فى نهاية المطاف بالنسبة لمصائر الشعوب . والأحكام العقلية والأخلاقية على الثورة لا جدوى منها تماما ، وكذلك هذه الأحكام نفسها التى تطلق على الحرب التى تشبه الثورة شبها شديدا . الثورة لا عقلية irrational وهى علامة على سيطرة القوى

اللامعقولة فى التاريخ . وقد يعتنق صانعو الثورة عن وعى أشد النظريات امعانا فى المعقوليـــة ، وقد يصنعون الثورة على هـــذه الأسس لا غير أن الثورة هي دائما عرض من أعراض نمو القوى اللامعقولة ، وهذا القول يجب أن يفهم بمعنى مزدوج ، فهو يعنى أن النظام القديم قد أصبح لا معقولا تماما ، ولم يعد هناك ما يبرره بأى معنى من المعانى ، كما يعنى أيضا أن الثورة نفسها قد ظهرت الى الوجـــود نتيجة لاطلاق سراح العنـــاصر اللامعقولة فى الجماهير . ويريد منظمو الثورة دائما تعقيل العنصر اللامعقـــول فى الثورة ، ولكنهم يظلون مع ذلك من أدواتها . ولقد كان لينين عقليا متطرفا ، فهو يؤمن بامكان تعقيل الحياة الاجتماعية فى نهاية الأمر ، ولكنه ما برح رجل مصير ، رجل أقدار ، أى رجل اللامعقول فى التاريخ . فالثورة مصير وقدر .

ومن الممكن اتخاذ ثلاث وجهات نظر عن الثورة (١) وجهـــة النظر الثورية والمضـــادة للثورة counter-revolutionary أى وجهـــة نظر الأشخاص المشتبكين فيهـــا فعلا ، (٢) وجهة النظر الموضوعية والتاريخية والعلمية أى وجهة نظر الأشخاص الذين ينظرون اليها فى ذكاء ، ولكنهم لا يشاركون فيها ، (٣) وجهة نظر التنبؤ الدينى وفلسفة التاريخ ، أى وجهة نظر الأشخاص الذين يحملون الثورة الى تجربتهم الباطنية ، ويكابدونها ، ويرتفعون فوق مستوى صراعها اليومى . ويفهم الثوريون وأعداء الثورة معنى الثورة فهما يقل عن فهم أى شخص آخر . والثوريون لا يفهمون عادة معنى الثورة ، لأن مثلهم الأعلى العقلى لا يكفى للكشف عن هذا المعنى ، ولكنهم ما داموا يواجهـــون المستقبل ، فانه من الممكن أن يكونوا أدوات فى أيدى القدر ، لكى يجعلوا معناها يتحقق ، بينما أعداء الثورة — بوصفهم رجالا يواجهون المـــاضى دون قوة أو ثمرة — هم الذين يصدر عليهم الحكم بأنهم عصـــاة ، وفى حالتهم تلك لا يفهمـــون شيئا . ويستطيع المؤرخـــون الموضوعيون أن يفسروا قدرا كبيرا فى فحصهم للنصوص ، وفى الكشف عن الأسباب التاريخية الثـــانوية ، ولكنهم لا يجعلون من مهمتهم فهم معنى

الثورة . وهم يتحدثون عادة من مسافة معينة ، ويقولون ان الثورة كانت ضرورية ، وأن الماضى قد حددها مقدما ، غير أن الكشف عن معناها لا يخص العلم التاريخى ، وانما هو من مهمة فلسفة التاريخ . ولكن حتى فلسفة التاريخ نفسها لا تستطيع أن تعالج مشكلة معنى الثورة اذا كانت قائمة على أساس دينى . والواقع أن فلسفة التاريخ هى دائما — بمعنى ما — لاهوت التاريخ ، ولها دائما أساس دينى سواء عن وعى ، أو بدونه .

والآن ، تتخذ الفلسفة الدينية للتاريخ حتما لونا رؤياويا ، ومثل هذه الفلسفة الدينية المسيحية للتاريخ تكشف عن معنى الثورة بوصفه رؤيا داخلية للتاريخ . والرؤيا Apocalypse ليست مجرد كشف عن نهاية العالم ، وعن يوم الحساب ، ولكنها أيضا كشف للاقتراب المستمر من النهاية داخل التاريخ نفسه ، وفى الزمان الذى ما برح تاريخيا ، وعن حكم على التاريخ داخل التاريخ نفسه ، وفضح لفشله . ان النمو المطرد غير المتقطع فى عالم آثم شرير كعالمنا أمر مستحيل ، ففى هذا العالم يتراكم الكثير من الشر والسم دائما ، وفيه تسير عملية الانحلال دائما وأبدا . وقد يحدث فى أغلب الأحيان الا توجد أية قوة خلاقة ايجابية مولدة فى المجتمع ، وفى هذه الحالة لا مفر من ادانة هذا المجتمع ، وتظهر علامة الثورة المحتومة فى السماء ، ويحدث الصدع فى الزمان ، ويأتى التوقف ، وتنتصر تلك القوى التى تبدو لا معقولة من وجهة نظر تاريخية ، ولكنها تشير — اذا نظرنا اليها من فوق لا من تحت — الى حكم « المعنى » على ما « لامعنى له » والى فعل « العناية الالهية » فى الظلمات . وعلى هذا الأساس لم يكن ج. دى ميستر G. de Maistre رجعيا صرفا فقد أدرك هذا المعنى للثورة(١) .

وللثورة معنى أنطولوجى Ontological ، وهذا المعنى تشاؤمى لا تفاؤلى . والكشف عن هذا المعنى ينهض حجة على أولئك الذين يعتقدون

---

(1) G. de Maistre, Considerations sur la France

أن المجتمع يمكن أن يوجد الى غير ما نهـاية فى حالة وادعة هادئة بينما تتراكم فيه سموم ناقعة ، ويسوده الشر والجور وراء تمجيدات المنافى الزائفة . ومن العسير أن نفهم أولئك المسيحيين الذين يرون أن الثـورة غير مسموح بها لمـا فيها من عنف واراقة للدماء ، فى نفس الوقت الذى ينظرون فيه الى الحـرب بوصفها شيئا مسموحا به ، وله ما يبرره من الوجهة الأخلاقية ، مع أن الحـرب تولد عنفا أشد ، وتريق دماء أكثر . ان الثورة باستخدامها للعنف واراقتها للدماء ، خطيئة ، غير أن الحرب خطيئة أيضا ، بل ان اثمها أعظم من اثم الثورة . والتاريخ كله خطيئة وعنف واراقة للدماء الى حد بعيد ، ولهذا يصعب على الضمير المسيحى أن يقبل التاريخ ، وهذا تناقض أسـاسى فى الفكر المسيحى . المسيحية تاريخية ، وهى كشف عن الله فى التاريخ لا فى الطبيعة ، وهى تدرك معنى فى التاريخ ، ولكنها لا تستطيع — فى الوقت نفسه — أن تجد لنفسها مكانا فى التاريخ أبدا ، وهى تصدر حكمها دائما على مظالم التاريخ ، ولا تسمح بالآراء المتفائلة عن التاريخ ، ولهذا السبب ينبغى أن يصـل التاريخ الى نهاية ، وأن يحكم عليه الله ، لأن عدالة المسيح فى التاريخ ليست واقعة .

والثورة رؤيا صغيرة للتاريخ ، هى حكم داخل التاريخ . والثورة أشبه بالموت ، وهى عبور من خـلال الموت ، الذى هو نتيجـة لا محيد عنهـا للخطيئة . وبما أن نهاية التاريخ بوصفه كلا ستأتى فى اجتياز العالم للموت لكى يبعث الى حياة جديدة ، فكذلك فى داخل التاريخ ، وداخل حياة الانسان الفردية تأتى النهاية على دورات ، ويأتى الموت من أجل البعث الى حياة جديدة . وهذا ما يضفى على الثـورة فظاعتها وجهامتها ، وما تنطوى عليه من موت ودماء . الثورة خطيئة ، ودليل على الخطيئة ، كما أن الحرب خطيئة ، ودليل على الخطيئة . غير أن الثورة هى قدر التاريخ ، والمصير المحتوم للوجود التاريخى . وفى الثورة يصدر الحكم على القوة الشريرة التى جلبت الظلم ،بيد أن القوى التى تصدر الحكم ، هى نفسها التى تخلق الشر ، وفى الثورة يتحقق الخير نفسه بوساطة قوى الشر ، ما دامت قوى الخير قد كانت عاجزة عن تحقيق الخير فى التاريخ . ولقد كانت الثورات فى التاريخ المسيحى دائما ادانة للمسيحية التاريخية ، ادانة للمسيحيين ،

ولخيانتهم للعهد المسيحى ، لتحريفهم المسيحية . وللثورة — فى نظر المسيحيين خاصة — معنى ، وعليهم أن يفهموها قبل كل شىء . انها تحد للمسيحيين ، وتذكيرا لهم بأنهم لم يجعلوا من العدالة واقعة من وقائع التجربة . وقبول التاريخ معناه قبول الثورة أيضا ، وقبول معناها بوصفه انقطاعا فاجعا فى مصائر عالم آثم . وانكار اى معنى للثورة لا بد أن يستتبع استنكارا للتاريخ أيضا . غير أن الثورة فظيعة ، جهمة ، وهى قبيحة عنيفة ، كما تكون ولادة الطفل قبيحة عنيفة ، وكما تكون آلام الأم التى تعانيها قبيحة عنيفة ، وكما يكون الطفل الذى يولد قبيحا خاضعا للعنف ، هذه هى لعنة العالم الآثم . وعلى الثورة الروسية ، أكثر من أى ثورة أخرى ، يسطع نور « الرؤيا » Apocalypse المنعكس ، والأحكام التى تطلق عليها من وجهة نظر السوى ، ومن وجهة نظر الدين العادى والأخلاق العادية ، ومن وجهة نظر الفهم العادى للقانون والاقتصاد ، هذه الأحكام جميعا مضحكة تدعو الى الرثاء . وليس من شك أن خبث أولئك الذين صنعوا الثورة لا يمكن الا أن يبعث على النفور ، ولكن ليس من الممكن الحكم عليها من وجهة نظر الأخلاقية الفردية فحسب .

ولا جدال فى أن الثورة الروسية كانت تتسم بملامح تنتمى بصورة طبيعية الى الثورات جميعا ، ولكنها أيضا ثورة فريدة متميزة قد حدثت مرة واحدة والى الأبد . انها نتاج الطبيعة الخاصة للعملية التاريخية الروسية ، وللطابع الفريد الذى يميز الانتلجنسيا الروسية . ولن تحدث ثورة من هذا الطراز أبدا . فالشيوعية فى الغرب ظاهرة من طراز آخر . ولقد انتشرت خلال السنوات الأولى للثورة أسطورة بين الجماهير عن البلشفية والشيوعية . فالبلشفية فى نظر الفكر الشعبى ، هى ثورة الجماهير الثورية ، وفيضان القوى العنصرية فى الطبيعة الروسية . أما الشيوعية فتنحدر من أبوة أجنبية ، فهى غربية وليست روسية ، وقد فرضت على ثورة الشعب نير التنظيم المستبد . ولكى نضع ذلك فى لغة أكاديمية نقول انها قد عقلت اللامعقول . وهذه الأسطورة مميزة جدا ، وتشهد على طبيعة الشعب الروسى الانثوية ، تلك الطبيعة القابلة للانتهاك دائما بمبدأ

نكورى أجنبى . وعلى هذا النحو نظر الشعب الى بطرس ، ولقد حدث فى الثورة الروسية — كما يحدث فى كل ثورة حتما — تقييد واطلاق للقوى الجامحة . فالجماهير الشعبية التى انهضتها الثورة القت فى بداية الأمر بكل قيد ، وهدد الانتقال الى حكم الجماهير بالانهيار فى مضطرب الفوضى . وكانت الجماهير الشعبية قد تكاملت ونظمت ورتبت فى القـــوة العنصرية للثورة بوساطة الفكرة الشيوعية ، والرمزية الشيوعية . وفى هذا المجال أسدت الشيوعية لروسيا خدمة لا جدال فيها .. وكانت روسيا مهـــددة بالفوضى الشاملة ، فكبحت الديكتاتورية الشيوعية جماح هذه الفوضى ، بأن وجدت الشعارات التى وافق الشعب على الخضوع لها ، وكان انحلال روسيا الامبراطورية قد بدأ منذ زمن بعيـــد ، فاذا حان حين الثورة كان النظام القديم عاجزا ، مرهقا ، مستهلكا . وعجلت الحرب بعملية الانحلال ولهذا لا يمكن أن يقال ان ثورة فبراير هى التى خلعت الملكية الروسية ، فقد تداعت الملكية فى روسيا من تلقـــاء نفسها ، ولم يكن هناك من يذود عنها ، فليس لها أنصار . وبدأت معتقدات الشعب الدينيـــة التى استندت اليها الملكية ، تتحطم ، كما بدأت النزعة العدمية التى شملت الانتلجنسيا فى الستينات تنتشر بين الجماهير . وكانت الطبقة الشبيهة بالانتلجنسيا Semi-intellegentsia التى انبثقت من الجماهير ملحدة ومادية بصورة حاسمة . وكان الخبث قوة أعظم من طيبة القلب . وفقدت الكنيسة مكانتها بوصفها مرشدا فى الحياة القومية . وكان خضـــوع الكنيسة للحكومة الملكيـــة ، وفقدان الروح المسكونية ، والمســـتوى الثقافى المنحط لرجـــال الدين .. كان لهذا كله دلالة قاتلة . فلم تعد ثمة قوة روحيـــة منظمة ، وكانت المسيحية فى روسيا تجتاز محنة عميقة .

ومن الشخصيات التى ساقها القـــدر للتأثير على مصائر روســـيا شخصية راسبوتين ، كان راسبوتين رجلا من الشعب ، ينتمى فى الظاهر الى تلك الطائفة المعروفة باسم « الجلادون Flagellants » ويمتـــلك — دون شـــك — قوى صوفية . وقد قيل عنـــه أن لديه تلك الملكات التى تجعل الانســـان « ستارتز starets » وقديسا ، ولكنه استغلها استغلالا

شريرا . وفى شخصيته تركزت ظلمة الحياة الروسية الرهيبة . والعلاقات التى كانت قائمة بين القيصر وراسبوتين أعمق كثيرا مما يفترض عادة . وقد كان قيصر روسيا الأخير شخصية فاجعة ، لقد دفع ثمنا فادحا لآثام الماضى ، وخطايا الحكم الملكى . وكان يؤمن ايمانا مخلصا بالمعنى الروحى للسلطة الملكية ، وكان من المؤلم له أن يشعر بتلك القطيعة بين القيصر والشعب ، وبعزلته بوصفه قيصرا . وكان يريد الاتحاد بالشعب ، اذ لم يكن ثمة حديث متبادل بينه وبينهم ، وكان معزولا عنهم بجدار البيروقراطية المقتدرة ، ومع ذلك كان يشعر بنفسه طيلة الوقت أنه من الوجهة الروحية قيصر الشعب . وحينئذ ، التقى بالشعب — لأول مرة — فى شخص راسبوتين . وكان راسبوتين أول رجل ينتمى الى الشعب ويسمح له بدخول البلاط مباشرة . وكان القيصر — والقيصرة بوجه خاص — يؤمنان براسبوتين وكأنهما يؤمنان بالشعب ، فقد أصبح رمزا للشعب ولحياة الشعب الدينية . وكان القيصر يسعى الى التأييد الدينى وسط الأحداث الفاجعة التى ألمت بعهده ، وكان يريد مناصرة الكنيسة له . ولم يجد شيئا من هذه المناصرة فى المراتب الكهنوتية العليا ، لأن أصحاب هذه المراتب كانوا يخضعون له خضوعا ذليلا . وأيا كان الأمر ، فقد ظهر راسبوتين ممثلا للأرثوذكسية الشعبية دون أن يكون معتمدا على القيصر ، وقادرا فى الوقت نفسه على تأييده . وفى تشبث القيصر والقيصرة (التى كانت تؤلف مع راسبوتين تأثيرا هائلا على القيصر) براسبوتين بوصفه ممثلا للأرثوكسية الشعبية ، حملت الكنيسة على الخضوع لراسبوتين ، ذلك الجلاد الذى كان يعين الأساقفة . وكان هذا امتهانا فظيعا للكنيسة ، ومصالحة تامة للملكية واستطاع راسبوتين — ذلك الفلاح الروسى (الموجيك) الذى أفسده اتصاله بالبلاط — استطاع فى نهاية الأمر أن يثير دوائر البلاط المحافظة من المجتمع الروسى ضد الملكية .

وأثناء الحرب ، وقبل قيام ثورة فبراير سنة ١٩١٧ ، كانت طبقات المجتمع جميعا ، اللهم الا نفر ضئيل من كبار البيروقراطيين ، وموظفى البلاط ، ان لم تكن معارضة للملكية من حيث المبدأ ، فقد كانت على الأقل

معارضة للملك ، وخاصة للامبراطورة . وكان هذا هو نهاية الحكم الملكى . ولقد لعبت الملكية فى الماضى دورا فى التاريخ الروسى ، وكان هذا الدور مفيدا فى كثير من الأحيان ، وأدى كثيرا من الخدمات غير أنه قد استنفد منذ زمن بعيد . فلقد أدينت الملكية الروسية التى تمتد جذورها فى الدين — من أعلى ، من الله ، والسبب الرئيسى هو انتهاكها للكنيسة وللحياة الدينية للشعب ، وبسبب أفكارها القيصرية البابوية Caesaro-Papalism المعادية للمسيحية ، وبسبب ربطها الزائف للكنيسة بالملكية وبسبب عدائها للاستنارة . لقد كانت ادانة للكنيسة أيضا فى جانبها التاريخى . وسنعود الى ذلك فى الفصل الأخير .

(٣)

لم يكن من الممكن أن تقوم الثورة الروسية الا اذا بدأت بثورة زراعية ، واعتمدت على سخط الفلاحين ، وكراهيتهم القديمة للنبلاء أصحاب الأطيان ، وللموظفين المدنيين . ولم تكن ذكرى فظائع السخرة ، وامتهان الكرامة الانسانية للفلاحين قد تلاشت بعد من بينهم . وكان الفلاحون على استعداد للأخذ بثأر أجدادهم ، وأجداد أجدادهم . وكان عالم الطبقات الحاكمة الممتازة ، وخاصة طبقة النبلاء ، بثقافتها وسلوكها ومظهرها الخارجى وكلامها غريبة عن الشعب تماما ، وعلى الفلاحين الذين بدا لهم كأنه عالم جنس آخر ، عالم من الأجانب . ولقد كانت الثورة الزراعية وحدها ثورة ليست اجتماعية واقتصادية فحسب ، بل ثورة أخلاق وحياة قبل كل شىء — هى التى جعلت ديكتاتورية البروليتاريا ممكنة فى روسيا أو بالأحرى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا ، ما دامت ديكتاتورية البروليتاريا ، وديكتاتورية طبقة ما — بوجه عام — أمرا مستحيلا . وهذه الديكتاتورية قد فرضت على الفلاحين أيضا ، وعاملتهم فى عنف وحشى ، كما هو الحال مثلا فى انشاء المزارع الجماعية بالقهر (الكولخوز) (Kolkhozes) . بيد أن هذه المعاملة العنيفة للفلاحين كان يمارسها عليهم أناس منهم ، أناس نشأوا من صفوف الجماهير ، لا من طبقة

الأعيان ، أو من طبقة الدم الأزرق النبيل . ولم يعد الفلاح يخاطب بصيغة التحقير ، واذا خوطب بها فانه يستطيع أن يردها لقائلها .

والثورة الزراعية معناها نهاية مدنية قائمة على سيطرة النبلاء مدى الحياة . فلم تعد طبقة النبلاء هى الطبقة القـائدة التى كانتها فى الشطر الأول من القرن التاسع عشر ، حين لم ينبثق منها الكتاب الروس العظام ، بل الثوريون أيضا . فلقد تحطمت طبقة النبلاء عقب تحرير الفلاحين ، وشردت على أيدى البورجوازية النامية . وأصبح شطر كبير من الأرض ملكا للفلاحين ولكن مع المستوى المنخفض من المهارة الزراعية والافتقار الى التنظيم الاجتماعى ، كان حظ الفلاحين عاثرا ، وكان السخط المستمر منتشرا بينهم ، والحلم بنظام جديد يراودهم باستمرار وهكذا ظلت طبقة الأعيان تحكم فى الحياة ، ان لم يكن بالمعنى الاقتصادى ، فعلى الأقل بالمعنى الأخلاقى . ودامت بقايا الاقطاع حتى ثورة سنة ١٩١٧ ، كما ظل النظام القديم قائما على أساس طبقى . وكان وجـود الضياع الواسعة التى يملكها نفر ضئيل من الأعيان ، قد أثار فى الفلاحين — نفسيا وأخلاقيا — السخط والاحتجاج لا سيما وأن المـالك الروسى لم يكن يدير ضياعه عادة بنفسه . وهذه مسألة تتعلق بالناحية النفسية والأخلاقية أكثر مما تتعلق بالناحية الاقتصادية البحتة . كانت نظريات القانون الرومانى عن الملكية غريبة على الفلاحين الروس ، اذ كانوا يرون أن الأرض أرض الله ، أو بمعنى آخر ، أنها ليست ملكا لكائن من البشر ، وكانوا يعتبرون امتلاك الأعيان للأرض ظلما وعدوانا ، كالقنية سواء بسواء ، ولهذا جاءت الملكية الجماعية للأرض أقرب الى عقلية الشعب الروسى ، والروس القـدامى بخاصة ، وذلك بفضل وجود « الكوميون » .

وكان الفلاحون يحلمون «باعادة توزيع الأراضى» عليهم ، بل كانوا يعتقدون فى الأيام الخوالى بأن القيصر هو الذى سيفعل ذلك . وقد أطلقت منظمة « شعبية » فى السبعينات على نفسها اسم « منظمة اعادة توزيع الأراضى » تجاوبا مع هذه المشاعر لدى الفلاحين . وكان أن قامت الثورة

الشيوعية الروسية بهذه الاعادة لتوزيع الأراضى فعــلا ، فانتزعت الأراضى كلها من طبقة النبلاء ، ومن أصحاب الأملاك الخاصة . وأحدثت ـــ كأى ثورة عظيمة ـــ حركة تنقلات فى الطبقات الاجتماعية . فوضعت الطبقات الحاكمة المتحكمة فى مرتبة أدنى ، ورفعت الجمــاهير التى كانت من قبل منسحقة مضطهدة ، وحفرت التربة الى عمق بعيد ، وأحدثت ثورة تكاد تكون جيولوجيــة . ولقد أطلقت الثــورة قوة العمال والفلاحــين لصنع التــاريخ ، وهذا أعطى الشيوعية قوتها الدينامية ، وتكشفت قوة حيوية هائلة لم يفطن اليها أحد من قبل فى الشعب الروسى . ومع هذه الثورة ، انخفض فى الواقع ـــ مستوى الثقافة ، لأن الثقافة الرفيعة يخلقها دائمــا انتقاء كيفى ، ولا تنتشر الا فى دائرة محدودة نسبيا من « الصفوة ». أما فى هذه الثورة فقد وصل البلاشفة الى السلطة بطريقة قبيحة ، وبتعبير قبيح مرتسم على الوجه ، وبحركات قبيحة ، ولا يرجع هذا فحسب الى أنهم لا ينتمون الى الطبقة الاجتماعية التى تحرص على الأشكال الثقافية ، والتصرفات المهذبة ، وفهم الجمال ،بل الى أن لديهم كراهية ورغبــة فى الانتقــام ، وحقــدا أكثر ، وهى مشاعر قبيحة دائمــا ، ولم يكن لديهم أسلوب من أى نوع ، أو أية ثقافة . فهناك دائما جانب قبيح فى الثورة ، جانب لا يستطيع أولئك المخلصون للجمــاعة أن يسهموا فيــه بدور نشط جدا . والواقع أن الجماهير البلشفية قد فرضت أسلوبا محددا فى الحياة ، وهو أسلوب أنشأته الحرب ، حرب تعمل على التفكك ، وهذا هو أحــد العوامل الرئيسية فى الثــورة الشيوعية الروسية . والنزعة الخطــابية والمسرحية (وقد اتسمت الثورة الفرنسية بقدر كبير من هذه النزعة) شىء لا يتأتى بصورة طبيعية للروس ، ولهذا السبب كانت الثورة الروسية أشد خشونة ، وأن تكن هذه الحقيقة هى بعض ما يميزها .

والثورة الشيوعية الروسية تدين بالكثير للحرب . وكان لينين ـــ شأنه فى ذلك شأن ماركس وانجلز ـــ يعلق أهمية كبرى على الحــرب بوصفها أنسب اللحظات للقيام بمحاولة للثورة الشيوعية.وفى هذا المجال ثمة تناقض مذهل بين الشيوعيين ، تناقض يعطى انطباعا بالنفاق والكلبية ، وان كانوا

هم أنفسهم يفسرونه بأنه علاقة ديالكتيكية بالواقع . فمن أشد سخطا على الحرب الامبريالية من الشيوعيين ، ومن أشد منهم احتجاجا عليها ؟ انهم الشيوعيون ، وان لم يكونوا قد عرفوا بعد على أنهم كذلك ، بل كانوا مجرد الجناح اليسارى من الدوليين من رجـال الاشتراكية الديموقراطية الذين يريدون ايقاف الحرب ، أو على الأقل اعطاء الانطباع بأنهم يريدون أن يفعلوا ذلك . غير أن الشيوعيين فى روسيا هم الذين انتفعوا — فى الوقت نفسه — بالحرب أكثر مما انتفعت أية فئة أخرى . فقد حملت الحرب اليهم انتصارهم ، ذلك أنهم ، أو الدوليين الاشتراكيين الذين احتجوا على الحـرب ، رأوا فى وضوح أن الحرب العالمية لا يمكن الا أن تكون نافعـة لهم . ولا أعتقد أن أحدا يمكن أن يدمغهم بالزيف أو عدم الخـلاص ، بل انه ضرب من الزيف وعدم الاخلاص الديالكتيكى . والمـاركسية تذهب بوجه عام الى أن الخير يتحقق من خلال الشر ، والنور من خلال الظلمة . وهذا هو موقفها حقا من الرأسمالية بوصفها أعظم الشرور والمظالم ؛ وبوصفها فى الوقت نفسه ضرورة لانتصار الاشتراكية . وفى المصانع الرأسمالية تعد انسانية المستقبل القوية . والواقع أن رغبة الشيوعية لم تكن منجهة — بكل تأكيـد — الى عدم نشوب الحرب ، كل ما كانوا يريدونه هو أن يستقر فى أذهان الجماهير أن الحرب بين الدول الرأسمالية هى الشر المريع الذى سيجعل الثـورة عليه ممكنة وضرورية . والشيوعية أرادت الحرب وتريدها ، بسبب واحد الا وهو أن تتحول الحرب بين الأمم الى حرب بين الطبقات .

والطراز الذى اتخـذته الشيوعية الروسية والعالمية راجـع الى الحرب . ولو انه لم تنشب الحرب ، لقامت الثورة الروسية فى نهاية الأمر ، بيد أنه كان من المحتمل أن تتأخر ، وأن تكون مختلفة عما هى عليه ، فلقد خلقت الحرب الفاشلة أنسب الظروف لانتصار البلاشفة . والروس ميالون بطبيعتهم للتطرف (المكسيمالية) ، والطابع المتطرف للثورة الروسية سمة مخلصة للنمط الروسى . وكانت المتناقضـات والتمزقات قد وصلت الى أقصى شدتها فى روسيا ، ولكنها كانت تحتاج الى جو الحرب لكى تنتج نمط

البلشفية الظافرة بيننا ، نمط الفاتح البلشفى الجديد . انها الحرب بخبراتها وطرائقها هى التى بعثت من جديد نمط الإنتلجنسيا الروسية ، فلقد انتقلت طرائق الحرب الى الحياة الداخلية للبــلاد ، وظهر نمط جــديد ، هو نمط الشبيبة العسكرية ، وهــذا النمط — على نقيض اعضــاء الانتلجنسيا القدامى — نظيف حليق الوجه ، يقظ ، يمشى مشية قوية ثابتة ، ويظهر بمظهر الفاتح الذى لا يحفل بالوسائل التى يتذرع بها ، وهو على استعداد دائم لاستخدام العنف ، وتسيطر عليه ارادة القوة ، ويشق طريقه الى المقدمة ، وهو يريد ألا يكون هــداما فحسب : بل بناء ومنظما أيضا . وبمعونة مثل هؤلاء الشــبان المنحدرين من الفلاحين والعمــال واشباه الانتلجنسيا ، أمكن للثورة الشيوعية أن تقوم ، وما كان من الممكن لهــا أن تقوم بمعونة الشخص الحــالم الشفوق الذى ينتمى الى الانتلجنسيا القديمة والذى كان على استعداد دائما لتحمل العذاب .

ولكن ، من المهم جــدا أن نتذكر أن الثورة الشيوعية الروسية قد ولدت فى الشقاء ومن الشقاء : شقاء الحرب المؤدية الى التفكك فهى لم تولد نتيجة لفيض خلاق من القوة . والواقع أن الثورة تفترض الشــقاء دائما ، وتفترض تكثيفا لظلمات المــاضى . وليس أدعى الى الرثاء من حرب مفككة ، وجيش منفكك ، جيش هائل يصل تعــداده الى مليون . وتفكك الحرب والجيوش يؤدى الى الاضطراب والفوضى . وقد واجهت روسيا مثل هــذا الاضطراب والفوضى ، وفقدت الحكومة القــديمة كل سلطة أخلاقية ، ولم يعد الشعب يؤمن بها ، وفى خلال الحرب انحطت سلطتها الى مستوى أشد انخفاضا . ولم يعد الناس يؤمنون بوطنية الحــكومة ، وبدأوا يشتبهون فى أنها على تعاطف سرى مع الألمــان ، وأنها تريد عقد صلح منفرد . وأعلنت الحكومة الديموقراطية الليبرالية الجــديدة التى ظهرت على مسرح الأحــداث عقب ثورة فبراير .. مبــادىء انسانية مجردة ، مبادىء مجردة للقانون والنظام لم يكن فيها اية سلطة منظمة من أى نوع ، أو اية طاقة يمكن أن تلهم الجماهير . وكانت الحكومة المؤقتة تعتمد على الجمعية التأسيسية التى يقــوم كيانها على فكرة نظرية الى

حـــد كبير . وفى هــذا الجو من التفكك والاضطراب والفوضى ، أرادت — مدفوعة بأنبل الدوافع — أن تواصـــل الحرب حتى تبلغ نهـاية ظافرة فى الوقت الذى كان فيه الجنود على استعداد للهرب من الجبهة ، وتحويل الحرب القومية الى حرب اجتماعية .

وكان مركزالحكومة المؤقتة حرجا لا أمل فيه بحيث يصعب على المرء أن يحكم عليها حكما قاسيا ، أو أن يدينها . وكان كيرنسكى Kerensky رجل ثورة فى مرحلتها الأولى فحسب ، اذ لا يمكن للأشخاص المعتدلين ذوى المبـــادىء الليبرالية والانسانيـــة أن يزدهروا فى ذلك الاكتســـاح العنصرى للثـــورة ، وعلى الأخص اذا كانت تلك الثورة قـــد أشعلتها الحرب . ومبادىء الديموقراطية لا تناسب الا عهود السلام ، بل قـــد لا تناسب مثل هذه العهود أيضا . ولكنها لا تصلح أبدا للعهـــود الثورية . وفى زمن الثورة يكون النصر حليف أصحاب المبـــادىء المتطرفة ، ممن خلقوا للديكتاتورية ، ويستطيعون ممارستها . ولا شىء غير الديكتاتورية وحدها يستطيع أن يضع نهاية لعملية الانحلال الأخيرة ولانتصار الاضطراب والفوضى . وكان الشىء الذى تدعو اليـــه الحاجة هو تزويد الجمـــاهير الثائرة بالشعارات التى يمكن أن توافق تلك الجماهير على أن تنظـــم وترتب بمقتضاها . كانت الحاجة تدعو الى عبارات ملهمة . وفى هـــذه اللحظة أظهرت البلشفية التى أعدها لينين طويلا — انها القوة الوحيدة التى يمكن أن تضع حـــدا لانحلال القديم من ناحية ، وأن تقـــوم بتنظيم الجـــديد من ناحية أخرى . كانت البلشفية هى وحـــدها التى تستطيع السيطرة على الموقف ، فلم تفعل أكثر من أن تجاوبت مع غرائز الجماهير ، ومع موقفها الحقيقى من الأشـــياء ، وهنا استطاعت أن تحول كل شىء الى مصلحتها ، كما يفعل أى زعيم للدهماء .

استغلت البلشفية اذن كل شىء للوصـــول الى النصر : استغلت ضعف الحكومة الديموقراطية الليبرالية ، وعدم تناسب شعاراتها فى العمل على التحام الجماهير الثائرة معا ، واستغلت الاستحالة الموضوعية لمواصلة

الحرب حين فقدت روحها بلا أمل نتيجة لعدم استعداد الجنود للمضى فى القتال ، فأعلنت السلام ، واستغلت تفكك الفلاحين وسخطهم ، ووزعت الأرض عليهم ، فحطمت بذلك ما تبقى من الاقطاع ، وسيطرة النبلاء ، واستغلت التقاليد الروسية للحكومة فى فرضها لما تريد ، وبدلا من اعلانها لديموقراطية غير مألوفة لا خبرة لها فيها ، أعلنت ديكتاتورية أقرب الى حكم القيصر القديم ، واستغلت سمات الروح الروسية فى كل تنافرها مع مجتمع بورجوازى طائفى ، واستغلت غريزتها الدينية ، ودجماطيقيتها وتطرفها ، وبحثها عن العدالة الاجتماعية وملكوت الله على الأرض ، وقدرتها على التضحية ، وتحملها الصابر للعذاب ، وكذلك مظاهر خشونتها وقسوتها ، واستغلت المسياوية الروسية التى ما زالت باقية ، وان يكن ذلك فى صورةلا شعورية ، كما استغلت الايمان الروسى بطريق روسيا الخاص فى التطور ، واستغلت التصدع التاريخى بين الجماهير والطبقات المثقفة ، والارتياب الشعبى فى الانتلجنسيا ، وحطمت فى يسر تلك الانتلجنسيا التى لم تخضع لها .

وامتصت الشيوعية أيضا الروح الطائفية التى تميزت بها الانتلجنسيا الروسية ، و « الشعبية » الروسية مع تحويلهما بحيث تتمشيان مع مطالب العصر الحديث ، وتلاءمت الشيوعية مع غياب النظرة الرومانية الى الملكية وغياب الفضائل البورجوازية بين صفوف الشعب الروسى ، كما تلاءمت أيضا مع النزعة الجماعية collectivism الروسية التى تضرب بجذورها فى الدين ، واستغلت أيضا انهيار الحياة البطريركية (الأبوية) بين الشعب ، وانحلال المعتقدات الدينية القديمة ، وجعلت مهمتها أيضا نشر الثورة الجديدة بوسائل العنف المفروضة من أعلى ، كما فعل بطرس فى زمانه ، وانكرت الحرية الانسانية التى لم تكن معروفة لدى الجماهير من قبل ، والتى كانت امتيازا مقصورا على الطبقات المثقفة العليا من المجتمع ، والتى لم تحرض الجماهير على الثورة من اجلها ، وأعلنت الشيوعية ضرورة النظرة الشمولية المتكاملة لعقيدة سائدة تتجاوب مع عادات الشعب الروسى وخبرته ومطالبه من الايمان

والمبادىء المسيطرة فى الحيـــاة . والروح الروســـية لا تميل الى النزعة الشكية ، والليبرالية المتشككة أقل الأشياء صلاحية لها . وتستطيع روح الشعب أن تنتقل فى يسر من عقيدة متكاملة الى عقيدة أخرى متكاملة ، ومن « اتباعية » (أرثوذكسية) الى اتباعية أخرى تشمل الحياة كلها .. ولهذا انتقلت روسيا من عصور وسطى قـــديمة ، الى عصور وسطى جـــديدة ، متحاشية سبل التـــاريخ الجديدة بدنيويته ، وتبـــاين مجـــالاته الثقافية ، ونزعته الليبرالية ، والفردية ، وانتصار بورجوازيته ورأسماليته .

سقطت الامبراطورية الروسية المقدسة القديمة ، وتشكلت امبراطورية جديدة ، مقدسة أيضا ، أو حكما الهيـــا مقلوبا inverted theocracy واصطنعت المـــاركسية — وهى نفسها نزعة غير روســـية بحكم نشأتها وطبيعتها — أسلوبا روسيا يقترب من النزعة السلافية . وحتى الحلم السلافوفيلى القديم بنقل العاصمة من سانت بطرسبرج الى موسكو والى الكرملين قد تحقـــق على أيدى الشيوعيين الروس ، وأعلنت الشيوعية الروسية من جديد فكرة السلافوفيل ودوستويفسكى القـــديمة القائلة : بأن « النور يشع من الشرق » . ex Oriente lux .

النور يشرق من موسكو ، من الكرملين ، نور يضىء ظلمـــات الغرب البورجوازية . وفى الوقت نفسه أقامت الشيوعية دولة مستبدة بيروقراطية، ظهرت الى الوجود للسيطرة على حياة الشعب بأسرها ، لا على الجسد فحسب ، بل وعلى الروح أيضا ، وفقـــا لتقاليد ايفـــان الرهيب ، وحكم القياصرة . والماركسية فى صورتها الروسية تعلن سيادة السياسة على الاقتصاد ، وقدرة الحكومة على تغيير حياة البلاد بأية طريقة تشاء . وفى مشاريعهـــا الفخمـــة التى توضع دائمـــا على نطاق عالمى ، استغلت الشيوعية الاستعداد الروسى لوضع الخطط ، وتشييد القـــلاع وهو استعداد لم تتح له الفرصة للتحقق أو للتطبيق العملى من قبل . وقد أراد لينين ان يتغلب على الكسل الروسى الموروث عن حياة الأعيان والسخرة ، وأن ينتصر على الأشخاص من أمثال « أؤبلوموف oblomov ورودين Rudin ، الأشخاص التافهين » ويبدو أنه كان ناجحا فى هذه المهمة الايجابية .

لقد حدث تحول فى الشعب الروسى ، نوع من «الأمركة» Americanization . انتاج لنمط جديد من الرجال العمليين الذين تحولت لديهم أحلام اليقظة وتشييد القصور الى فعل وقدرة بناءة ، هذا النمط هو نمط الفنى المتخصص technician ، بيروقراطى من نمط جديد . ولكن ، هنا أيضا تفرض السمات الخاصة للروح الروسية كلمتها . لقد اتجه ايمان الشعب اتجاها جديدا ، والفلاحون الروس يبجلون الآلة الآن كأنها طوطم . والمشروعات الفنية ليست عملية واقعية عادية كما هى فى نظر الشعوب الغربية ، وانما أضفى عليها طابع صوفى ، وربطت بمشروعات ترمى الى ما يشبه الثورة الكونية cosmic revolution

الشيوعية الروسية — فى نظرى — ظاهرة قابلة للتفسير تماما ، بيد أن التفسير ليس هو التبرير . فالطغيان الذى لم يسمع به من قبل والذى يصطنعه نظام الحكم السوفيتى خليق بالادانة الأخلاقية ، أيا كان تفسيره . ومن المخجل المخزى أن تكون أكمل مؤسسة منظمة خلقتها الثورة الشيوعية هى الـ G.P.U. (التشيكا سابقا) ، أى جهاز بوليس حكومى أشد طغيانا من جندارمة الحكم القديم ، جهاز يشدد قبضته حتى على شئون الكنيسة . غير أن طغيان الحكومة السوفيتية وقسوتها لا يرتبط ارتباطا ضروريا بالنظام الاجتماعى والاقتصادى للشيوعية، ومن الممكن للمرء أن يتصور الشيوعية فى الحياة الاقتصادية مرتبطة بالانسانية والحرية . وهذا يفترض مقدما روحا أخرى ، وايديولوجية مختلفة .

(٤)

الدولة الشيوعية الروسية هى فى الوقت الحاضر الدولة الشمولية الوحيدة فى العالم : القائمة على ديكتاتورية نظرة عالمية ، والمبنية على مذهب اتباعى (ارثوذكسى) ملزم للشعب كله ، فلقد اخذت الشيوعية فى روسيا شكل النزعة المتطرفة فى تمجيد الدولة étatism التى تمسك بقبضة

من جديد حياة دولة ضخمة ، وهذا يتفق — لسوء الحظ — اتفاقا تاما مع التقليد الروسى القديم فى ممارسة حكم الدولة . وقد كانت الملكية المستبدة الروسية القديمة ممتدة الجذور فى معتقدات الشعب الدينية ، وكانت تدرك وتبرر نفسها بوصفها حكما دينيا theocracy أو قيصرية مقدسة . والدولة الروسية الجديدة مستبدة أيضا ، وهى ممتدة الجذور أيضا فى عقائد الشعب ، وفى الايمان الجديد للطبقة العاملة ، ولجماهير الفلاحين ، وهى تعرف وتبرر نفسها أيضا بوصفها دولة مقدسة ، وحكما الهيا مقلوبا ، وكانت الملكية الروسية القديمة ترتكز على نظرة عالمية اتباعية (ارثوذكسية) وتصر على الاتفاق معها . والدولة الروسية الجديدة تستند الى نظرة عالمية ، ومعدرجة أعظم من القهر تتطلب الاتفاق معها . والملكة المقدسة هى دائما ديكتاتورية نظرة عالمية ، وتتطلب دائما نزعة شاملة (أرثوذكسية) ، وتقضى على الهراطقة دائما . والشمولية ، والمطالبة باكتمال العقيدة كأساس للمملكة ، يلائم الغرائز الدينية والاجتماعية العميقة فى الشعب . والملكة الشيوعية السوفيتية تشبه فى تركيبها الروحى القيصرية الأرثوذكسية المسكوفية شبها كبيرا . ففيها نفس الشعور بالاختناق . ولم يكن القرن التاسع عشر فى روسيا كلا متكاملا ، بل كان منقسما ، لأنه كان قرن البحث الحر والثورة . وخلقت الثورة مملكة شيوعية شمولية ، خنقت فيها الروح الحرة ، واختفى منها البحث الحر . واجريت فيها تجربة اخضاع الشعب بأسره لانجيل سياسى واحد. والوجه الآخر للنزعة الروسية الى تمجيد الدولة étatisme هو الفوضوية الروسية . ولقد استغلت الثورة الروسية فى وقتها الغرائز الفوضوية ، ولكنها وصلت الى « نزعة متطرفة لتمجيد الدولة » تكبت كل تحقق لهذه الغرائز .

ولم يحقق الشعب الروسى فكرته المسياوية عن موسكو بوصفها «روما الثالثة » ، اذ كشف الانقسام الكنسى الذى حدث فى القرن السابع عشر عن أن القيصرية المسكوفية ليست هى « روما الثالثة » ، وأقل منها بالطبع امبراطورية بطرسبورج بوصفها تحقيقا لفكرة « روما الثالثة » ، ففى هذه الامبراطورية حدث تصدع نهائى . ولقد اتخذت الفكرة المسياوية للشعب

الروسى أما شكلا رؤياويا أو ثوريا ، وهنا وقع حدث عجيب فى مصير الشعب الروسى ، فبدلا من أن تتحقق « روما الثالثة » فى روسيا ، تحققت « الدولية الثالثة » وانتقل الكثير من ملامح «روما الثالثة» الى الدولية الثالثة ، فالدولية الثالثة هى أيضا مملكة مقدسة ، وهى أيضا مؤسسة على عقيدة اتباعية (أرثوذكسية) . وهذه الحقيقة وهى أن « الدولية الثالثة » ليست فكرة عالمية ، بل فكرة قوميةروسية ـ هذه الحقيقة لا يفهمها الغربفهما صحيحا. فها هنا تتحول المسياوية الروسية . وحين ينضم الشيوعيون الغربيون الى الدولية الثالثة ، فانهم يلعبون دورا مهينا ، اذ انهم لا يفهمون أنهم حين ينضمون الى «الدولية الثالثة» فانهم ينضمون الى الشعب الروسى ، ويحققون رسالته المسياوية .

وقد سمعت أن شيوعيا فرنسيا أكد فى اجتماع شيوعى فرنسى : « ان ماركس قال ان العمال لا وطن لهم ، وقد كان ذلك قولا صادقا ، ولكنه لم يعد صادقا الآن ، فان لهم وطنا ، هو روسيا ، وموسكو ، وعلى العمال أن يدافعوا عن وطنهم » . وهذا حق بصورة مطلقة ، وينبغى على كل انسانأن يفهمه ، فقد حدث شىء لم يتنبأ به ماركس والماركسيون الغربيون ، وهذا الذى حدث نوع من التطابق بين الرسالتين : رسالة الشعب الروسى ، ورسالة البروليتاريا . والطبقة العاملة الروسية ، والفلاحون الروس ، يؤلفون بروليتاريا ، وقد أصبحت بروليتاريا العالم كله من فرنسا الى الصين هى الشعب الروسى ـ شعب فريد لا نظير له فى العالم ، والوعى المسياوى للطبقة العاملة وللبروليتاريا يكاد يفرض موقفا سلافوفيليا تجاه الغرب . والغرب يؤخذ دائما على انه البورجوازية والراسمالية . وتأميم الشيوعية الروسية ، الذى يشهد عليه كل شىء ، ينبع من هذه الحقيقة وهى أن الشيوعية قد ظهرت فى بلد واحد فحسب ، هو روسيا ، وأن المملكة الشيوعية تحيط بها الدول الراسمالية البورجوازية. والثورة الشيوعية فى بلد واحد تؤدى حتما الى القومية ، والى اتخاذ موقف قومى فى العلاقات السياسية بالبلاد الأخرى . فنحن نرى مثلا أن الحكومة السوفيتية اكثر اهتماما فى الوقت الحاضر بعلاقتها بالحكومة

الفرنسية منهـــا بعلاقاتها بالشيوعيين الفرنسيين . وتروتسكى هو وحده الذى ظل عالميـــا ، واستمر يؤكد ان الشيوعية فى بلد واحد ليست فعالة ، بل لا بد من الثورة العالمية . ولهذا السبب طرد من روســـيا . ولم تكن هناك حاجة اليـــه لأنه لا يتلاءم مع المرحلة القوميـــة البنـــاءة من الثورة الشيوعية . وهم يتحدثون الآن فى روسيا السوفيتية عن الوطن الاشتراكى، ويريدون الذود عنه ، وهم على استعداد لبذل أرواحهمفى سبيله . غير أن الوطن الاشتراكى ما زال هو روسيا بعينها ، وربمـــا كانت الوطنيـــة الشعبية تظهر فى روسيا لأول مرة . وهذه الوطنية حقيقة ايجابية ، غير أن القومية يمكن أن تتخذ شكلا سلبيا . وقد قوى الخطر الصادر عن اليابان وألمـــانيا الوطنية الروسية ، فهزيمة روسيا السوفيتية هزيمة للشيوعية ، وهزيمة للفكرة العالمية التى ينادى بهـــا الشعب الروسى .

ومشروع السنوات الخمس الذى يعجب له كثير من الشعوب الغربية ، مشروع غاية فى البساطة والعادية ، فروسيا بلد متخلف صـــناعيا ، ولا بد أن يتم تصنيعه بوسيلة أو بأخرى وهـــذه العملية تتحقق فى الغرب تحت الراية الرأسمالية وهذا ما ينبغى أن يكون — فى نظر ماركس ، أما فى روسيا فالتصنيع يجب أن يتم تحت الراية الشيوعية ، وليس هـــذا ممكنا فى نظام الحكم الشيوعى الا اذا خلق الحماس للتصنيع ؛ والا اذا تحول نثر الحيـــاة الى شعر ، وتحول العمل الشاق الى تصوف ، والا حين تخلق « أسطورة » السنوات الخمس.

بيـــد أن هـــذا كله لا يخلق بمعونة الحماس والشعر والتصوف وخلق الأسطورة فحسب ، ولكنه يخلق أيضا بالارهاب والبوليس السياسى . فقد وضع الناس فى حالة من العبودية . ونظـــام الحكم الشيوعى فى المرحـــلة الانتقالية هو نظام من الاستعباد . وانى لأعتقد — على الرغم من ماركس والاقتصاديين السياسيينالبورجوازيين — ان النمو التجارى ممكن حتى تحت حكم الشيوعية . بل لقد تطورت التجارة الرأسمالية فى روســـيا فى ظل العهد القديم ، وبضغط الحكومة.والقوانين الاقتصادية الحتمية منمخترعات الاقتصاد السياسى البورجوازى ، ذلك أن مثل هـــذه القوانين لا وجود لها ،

فقد حطمتها الماركسية ، وان لم يكن ذلك تحطيما نهائيا . ولتصنيع روسيا تحت نظام الحكم الشيوعى لا بد من ايجاد دافع جديد وراء العمل ، ونظرة سيكلوجية جديدة ، ومن الضرورى أن يظهر الانسان الجماعى الجديد . وقد بذلت الشيوعية الروسية جهودا هائلة فى خلق هـذه النظرة السيكلوجية الجديدة ، وهذا الانسان الجديد . وحققت فى الناحية النفسية انتصارا أعظم منه فى الناحية الاقتصادية . وهناك ظهر جيل جديد من الشبان أثبتوا أنهم قادرون على تكريس أنفسهم فى حماس لانجاح مشروع السنوات الخمس ، وواجهوا مشكلة التنمية الاقتصادية لا بوصفهـا مصلحة شخصية ، بل بوصفها خدمة اجتماعيـة .

وكان من الأيسر أن يتم ذلك فى روسيا عنه فى البلاد الغربيـة حيث امتدت السيكلوجية البورجوازية والمدنية الرأسمالية بجذورها الى أغوار عميقة . فحتى التـاجر الروسى الذى عاش فى ظل النظام القـديم وجمع أمواله من صفقات ملتوية ، واصبح مليونيرا — حتى هذا التاجر كان خليقا بأن يعتقد أن عمله ذلك خطيئة ، وبأن يحـاول التكفير عن خطيئته ، وفى لحظاته الأفضل يحلم بحيـاة مختلفة ، يقوم فيها بالحج ، أو يلجأ فيها الى دير للرهبنة ، وهكذا كان مثل هـذا التاجر مادة سيئة اذا أردت أن تخلق منه بورجوازية على النمط الأوربى الغربى. بل انه من الممكن أن تظهر الروح البورجوازية فى روسيا عقب الثورة الشيوعية . والحق ان الشعب الروسى لم يكن بورجوازيا قط ، وليست لديه تحيزات بورجوازية ، كمـا أنه لا يحترم الفضائل أو المعايير البورجوازية ، غير أن خطر التحول الى البورجوازية كبير جـدا فى روسيا السوفيتية ، فقد دخلت فى حماس الشـباب للنظام السوفيتى — دخلت طاقة الشعب الروسى الدينية . فاذا نفدت هذه الطاقة الدينية ، فسينفد بالتالى ذلك الحماس ، وسيظهر الاهتمام بالمصلحة الذاتية ، وهو أمر ممكن تماما حتى فى الشيوعية . ومهما يكن من أمر فان مشروع السنوات الخمس لا يحقق الاشتراكية ، ولكنه يحقق رأسمالية الدولة ، وليست مصالح العمال ، أو قيمة الانسان أو قيمة العمل الانسانى هى التى يعترف بها على أنها القيمة العليا ، بل الدولة نفسها وسلطتها الاقتصادية.

وقد تؤخذ الشيوعية فى عصر ستالين على أنها استمرار للعمل الذى قام به بطرس الأكبر.فليست الحكومة السوفيتية هى حكومة الحزب الشيوعى التى تسعى الى تحقيق العدالة الاجتماعية فحسب ، بل هى أيضا دولة ولهـا الطبيعة الموضوعية لأية دولة ، فهى معنية بالمحافظة على الدولة وبسلطتها ، وبنموها الاقتصادى الذى بدونه قد تسقط الحكومة . وغريزة المحافظة على الذات فطرية فى كل حكومة ، وهذه الغريزة قد تصبح هدفها الرئيسى . وستالين حاكم من النمط الآسـيوى الشرقى .

ولقـد تحولت الستالينية ـ وأعنى بها الشيوعية فىالمرحلة البناءة ـ تحولا غير محسوس الى نوع غريب من الفاشية الروسية . وكل سمات الفاشية متضمنة فيها : الدولة الديكتاتورية ، ورأسمالية الدولة ، والقومية ونزعة الزعامة leaderism والشبيبة العسكرية . ولم يصل لينين الى الديكتاتورية بمعناها الحـالى ، أما ستالين فهو حاكم ـ ديكتاتور بالمعنى الفاشى المعاصر لهذه الكلمة . والعملية التى تتم هى من الناحية الموضوعية عملية تكامل ، وتجميع الشعب الروسى تحت راية الشيوعية . وموقفى من الحكومة السوفيتية من وجهة النظر العقلية والاخلاقية هو موقف النفور ، فقـد وصمت هذه الحكومة نفسهـا بالقسوة واللا انسانية ، وولغت فى الدماء ، وهى تمسك النـاس فى قبضة قاتلة ، ولكنها فى اللحظة الحاضرة القوة الوحيدة التى يمكن أن تدافع عن روسيا ضد الأخطار التى تتهددها . والانهيار المفاجىء للحكومة السوفيتية دون قيام أية قوة منظمة تحل محلها ، لا من اجل ثورة مضادة ، بل من أجل التنمية الخلاقة للنتائج الاجتماعية للثورة ـ مثل هذا الانهيار خطر على روسيا يهددها بالفوضى . وهذا شىء ينبغى أن يقـال عن الأوتوقراطية السوفيتية ، كمـا كان ينبغى أن يقـال عن الملكية الأوتوقراطية . وهنـاك لا تنمو فى روسيا وطنية شيوعية فحسب ، بل وطنية سوفيتية ، هى ببساطة وطنية روسية . غير أن وطنيـة شعب عظيم ينبغى أن تكون ايمانا برسالة عالمية عظيمة لهـذا الشعب ، والا كانت محصورة فى قومية اقليمية تفتقر الى المنظور العالمى . ورسالة الشعب الروسى هى تحقيق العدالة الاجتماعية فى المجتمع الانسانى ، لا فى روسيا

وحدها ، بل فى العالم أجمع ، وهذا يتفق مع التقاليد الروسية . غير انه من الأشياء الرهيبة أن ترتبط محاولة تحقيق العـدالة الاجتماعية بالعنف والجريمة والقسوة والزيف .. الزيف البشع . ومجرد عرض تلك الاعترافات المنسوخة ، على أفواه المتهمين بالباطل فى المحاكم السوفيتية كاف لاثارة التقزز من النظام كله .

(٥)

هكذا كانت طبيعة الثورة الروسية . فقـد حدثت فى ظروف غريبـة بحيث لا يمكن أن تتلاءم ايدولوجيا الا مع أكثر أنواع المـاركسية تحولا ، أعنى تحولا فى الاتجاه المضاد للحتميـة determinism . ولقـد استخدمت المـاركسية لاثبات استحالة قيام الثورة الاشتراكية البروليتارية فى روسيا . واذا كان الاقتصاد هو فى الواقع العامل المحدد فى العملية الاجتماعية كلها ، فلا بد أن ننتظر فى روسيا المتخلفة صناعيا — تطور الصناعة الرأسمالية ، وأن نعتمد على ثورة بورجوازية لا ثورة بروليتارية . هذا هو رأى الحتمية السيكولوجية . بيـد أن الثورة الروسية قد أخذت اتجاها يشهد على أن الاقتصاد ليس هو العامل المحدد فى كل شىء ، وهكذا ظهرت فى روسـيا السوفيتية فلسفـة اللينينية — المـاركسية الجديدة . وما برحت هـذه الفلسفة تنظر الى نفسها بوصفها فلسفة ماركسية ، ولكنها فلسفة ماركسية لمرحلة الثورة البروليتارية . وكان ماركس ما زال يعيش فى قلب المجتمع الرأسمالى البورجوازى حيث يحدد الاقتصاد كل شىء فى الواقع ، وتختفى الحرية . غير أن ماركس وانجلز كانا يناديان بأن وثبة ما سوف تحـدث من عالم الضرورة الى عالم الحرية ، وحينئذ سوف يبدأ التـاريخ الحقيقى ، الذى لن يتحكم فيه الاقتصاد فى الانسان الاجتماعى بالطبع — بل سيتحكم الانسان نفسه فى الاقتصـاد .

وقد حان هذا الوقت فى نظر الشيوعيين الروس . أو هكذا يشعرون ، فهم يرون أنفسهم فى عالم الحرية ، وهم ليسوا فى العالم الرأسمالى ، بل انهم فى المد العنصرى للثورة البروليتارية ، وهذا شىء لم يكن معروفا بعد لماركس .

والاقتصاد لايتحكم فيهم ، كما أنهم لايعتمدون على ضرورة التطور الرأسمالى ، وهم أنفسهم بنشاطهم الثورى ، يتحكمون فى الاقتصاد على أى نحو يشاءون ، ويشعرون أن لديهم القدرة بنشاطهم الثورى على أن يغيروا لا روسيا وحدها بل العالم أجمع ، وتحاول الفلسفة السوفيتية الفتية أن تعطى تفسيرا جديدا للمادية الجدلية ، ومقولتها الأساسية هى حركة التوليد الذاتى self-originating movement (١) ومنبع الحركة يكمن فى الداخل ، لا من قذفة من الخارج آتية من البيئة كما تعتقد المادية الميكانيكية . والحرية الحقيقية متضمنة فى المادة ، وفيها يوجد منبع النشاط الذى يعمل على تغيير البيئة . وسمات الروح والحرية والنشاط والعقل تنقل الى المادة ، أى أن عملية من الاحالة الروحية تتم للمادة . ويتردد باستمرار فى الأدب الفلسفى والسوسيولوجى السوفيتى ان الشىء الرئيسى ليس هو « القوى الانتاجية » — أى التنمية الاقتصادية — وانما هو « العلاقات الصناعية » أى حرب الطبقات ، والنشاط الثورى للبروليتاريا ، وهذا النشاط الثورى هو حركة توليد ذاتية ، فهى لا تعتمد على البيئة أو على الاقتصاد ، بل انها تعيد صنع البيئة ، وتتحكم فى الاقتصاد بطريقتها الخاصة ، وهكذا يريدون أن يشيدوا فلسفة للفاعلية activism ولا تصلح المادية — سواء المادية الميكانيكية أو الاقتصادية — لهذا الغرض على الاطلاق . وفلسفة الفاعلية — البروميثية ، العملاقة ، هى بالطبع فلسفة الروح كما هى الحال مع فشته ، وليست فلسفة مادية ، ولكن ليس من المسموح به فى الفلسفة السوفيتية الكلام عن الروح .. وما زالت المادية ذات حرمة مقدسة ، ومن ثم يجب نقل سمات الروح الفعال الى المادة ، وهذا ما يحاولون فعله ، وبالتالى ينتهكون المنطق والمصطلح الفلسفى وتتحول المادية تحولا غير محسوس صوب ضرب غريب من المثالية والروحية . وعند ماركس نفسه — وخاصة فى شبابه — نجد أن نظرية الوهم الكامنة فى النظام الرأسمالى — كما قلنا آنفا — من أن الانسان معتمد على منتجات نشاطه الخلاق ،

---

(١) راجع كتاب « المادية التاريخية » الذى اشتركت فى تأليفه مجموعة من كتاب « معهد أساتذة الفلسفة الحمر » تحت اشراف « جالتسفتش » Galtsevitch ونشر ١٩٣١ .

تضع أساساً لهذا الموقف . والمادية لا تستطيع أن تكون جدلية والديالكتيك لا يمكن أن يكون متضمنا فى المادة التى تتألف من اصطدام الذرات . والديالكتيك يفترض مقدما وجود « اللوغوس » Logos وجود «معنى» يتكشف فى التطور الديالكتيكى . ولا يمكن أن يكون الديالكتيك متضمنا الا فى الفكر والروح ، لا فى المادة . والمادية الديالكتيكية (الجدلية) مرغمة على الاعتقاد فى « لوغوس » للمادة نفسها ، وفى « معنى » يتكشف فى تطور القوى المادية المنتجة ، أعنى فى معقولية العمليات اللا معقولة ».

والفلسفة السوفيتية هى فلسفة دولة اتباعية (أرثوذكسية) ، فهى تبحث عن « الهراطقة » وتطردهم من حظيرتها . والاتباعية (الأرثوذكسية) تتألف من تأكيد المادية الجدلية بوصفها الحظ العام فى الفلسفة . والهرطقة Heresy اما أن تكون تأكيد المادة واستبعاد الديالكتيك ، أو تأكيد الديالكتيك واستبعاد المادة ، الأولى هى هرطقة المادية الميكانيكية التى يمثلها بوخارين Bukharin وعدد من الطبيعيين naturalists ، والهرطقة الثانية يمثلها ديبورين Deborim الذى كان ميالا الى المادية . ومن الضرورى تأكيد ديالكتيك يكون فلسفة فعلية actualist ثورية أيضا ، فلسفة تستمر فى تأكيد المادية . وهذا محال من الناحية المنطقية ، ولكنه شىء لايمكن تحاشيه من الناحية السيكلوجية . والمادية الاتباعية (الأرثوذكسية) التى تعترف بامكانية حركة التوليد الذاتى ، وبالحرية للبروليتاريا الثورية ، قد قررتها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى . ويطلق ستالين ، الذى لم يتلق أى تدريب فلسفى ، وفهمه للفلسفة أقل من فهم الفلاسفة السوفيت الشبان ، الذين نجد منهم بعض المتضلعين فى الفلسفة — يطلق حكما من أعلى بحكم السلطة (بصفة رسمية) عما هى الفلسفة الحقيقية . وعلى هذا النحو نفسه سيعرف هتلر أيضا بوصفه حكما على الحقيقة الفلسفية . وهذه سمة مميزة من سمات ديكتاتورية النظرة العالمية ، والنظام « التسلطى » الذى هو شىء جوهرى لها .

الفلسفة السوفيتية هى فلسفـــة « العملاقية » الاجتماعية social titanism ، والعمـــلاق فيهـــا ليس هو الفرد بل هو « الكل الاجتماعى » the social whole . وحتى قوانين الطبيعة ليست ملزمة بالنسبة لهـــا . وعدم قابلية هذه القوانين للتغير يعد فكرة لا تنتمى الا الى العلم والفلسفة البورجوازيين . وكذلك تعـــد فلسفة بليخانوف المـــاركسية وكاوتسكى ، والمناشفة ، فلسفة بورجوازية ، وأنها تنتمى الى نزعة « الاستنارة » . والفلسفة السوفيتية تعارض مادية القرن الثامن عشر المستنيرة ، وكل شىء — فى نظرها — لا تتحكم فيه استنارة الفكر ، أو نور العقل ، بل تمجيـــد الارادة ..الارادة الثورية العملاقة . ولا ينبغى للفلسفة أن تدرك العالم فحسب ، بل عليها أن تعيد صنعـــة وأن تخلق عالمـــا جديدا . وفصـــل الأفكار النظرية فى مجال معين ، وخلق طائفة من الباحثين والأكاديميين ، عمل من أعمال العالم البورجوازى . وينبغى أن يتحد العقل النظرى بالعقل العملى ، وأن يمتزج العمل الفلسفى بالعمـــل الفعلى ، بالبنـــاء الاجتماعى ، وأن يخدم غايات هذا البنـــاء . وقد دخلت الفلسفة السوفيتية فى مشروع السنوات الخمس . ولا تعرف الحقيقة ، والحقيقة المطلقة الا فى الفعل ، فى الصراع ، فى العمـــل . والتمجيد العملاقى للارادة الثورية يفترض مقدما وجود عالم حقيقى يمارس فيه الفعل ، فعل تغيير هذا العـــالم . وهـــذا افتراض سابق واقعى وضرورى ، وهم يؤكدون فى ثقة أنه افتراض مادى سابق . والوعى يحدده الوجود ، وينمو فى الوجود ، غير أن الوجود ينظر اليه على أنه مادى ، وان نظر الى المادة بطريقة تكاد تكون روحية. والمنازعات الفلسفية التى تمتد فى روسيا السوفيتية أعواما طويلة ثم تطبع، هى مشكلات لا تناقش من وجهة نظر الحقيقة أو الخطأ ، بمقدار ماتناقش من وجهة نظر التزامها بالمبـــادىء الصحيحة (الأرثوذكسية) أو الهرطقة ، أعنى أنهـــا منازعات لا هوتية اكثر منهـــا فلسفية .

وفلسفة النزعة « العملاقية » titanism تفترض مقدما تغييرا فى فهم ما تعنيه الحرية . واللينينية المـــاركسية أو المـــادية الجدلية فى مرحلة الثورة البروليتارية تضفى على الحرية معنى جـــديدا ، والحق أن المعنى الشيوعى يختلف اختلافا شديدا عن المعنى العـــادى . وعلى هذا الأساس

يصدم الشيوعيون الروس ويثورون مخلصين حين يقال لهم الا وجود للحرية في روسيا السوفيتية . واليك هذا المثال : ذهب شاب سوفيتى الى فرنسا ليقضى عدة شهور وفى نيته العودة الى روسيا السوفيتية . وحين اشرفت اقامتـــه على نهايتها سئل عن الانطبـــاع الذى تركته فرنســـا فى نفسه ، فأجاب : « لا وجـــود للحرية فى هذه البـــلاد » . وكان رد هـــذه الاهانة سؤالا ينم عن الدهشـــة : « ماذا تعنى ؟ ان فرنســـا هى بلد الحـــرية . وكل انسان حر فى أن يفكر كمـــا يشاء ، وأن يفعـــل ما يشاء . والحرية لا وجود لها عندكم » . ثم مضى الشـــاب فى عرض فكرته عن الحـــرية . لم تكن ثمة حـــرية فى فرنســـا ، وشعر الشـــاب القادم من الاتحـــاد السوفيتى بأنه مختنق فيهـــا اذ من المستحيل تغيير الحيـــاة فى فرنســـا ، وصنـــع حياة جديدة . والحـــرية المزعومة فيهـــا هى من ذلك النـــوع الذى يترك كل شىء دون تغيير ، وكل يوم كاليوم الذى سبقه . تستطيع أن تسقط حكومة كل أسبوع ، بيـــد أن هذا لا يغير من الأمر شيئا ، وهكذا احس الشاب القادم من روسيا بالضجر فى فرنســـا .

أما فى روسيا الشيوعية السوفيتية ، فهنـــاك — من ناحيـــة أخرى — الحرية الحقيقية لأن أى يوم قد يغير حياة روســـيا ، أو حيـــاة العالم أجمع حقا ، وقد يعيـــد صنع كل شىء . ولايشـــبه يوم يوما آخر ، وكل شـــاب يشعربأنه يبنى العـــالم ، لقد أصبح العـــالم مرنا ، ومنـــه يمكن صياغة أشكال جديدة . وهذا هو الذى اثر عليه كالسحر أكثر من اى شىء آخر . فكل انسان يشعر أنه شريك فى المهمة المشتركة ، المهمة التى لها دلالة عالمية . والحيـــاة لا تستنفـــد فى الصراع من أجل الوجود الشخصى الخاص ، بل فى اعادة تشييد العـــالم . وهكذا لاتفهم الحرية على أنهـــا حرية الاختيـــار ، حرية الاستدارة الى اليمين أو الى اليسار ، بل أنهـــا التغيير الايجابى للعـــالم ، وعلى أنها فعل لا ينجزه الانسان الفردى بل الانسان الاجتماعى بعد أن يتم الاختيار . وحرية الاختيـــار تعمل على تقسيم الطاقات واضعافها ، أما الحرية البناءة الحقيقية فتأتى بعد أن يتم الاختيار ويتحرك الانسان فى الاتجاه المحدد . وهذا النوع وحده من الحرية ، حرية التشييد الجماعى للحياة فى الاتجاه العـــام للحزب الشيوعى — هو المعترف

به فى روسيا السوفيتية . وهذه الحرية بالذات هى الحرية الفعلية الثورية. أما الحرية الفرنسية فحرية محافظة ، تعوق اعادة التشييد الاجتماعى للمجتمع ، وتؤدى بكل انسان الى أن يريد من الناس أن يدعوه فى سلام وهدوء .

وينبغى أن تفهم الحرية — بالطبع — على أنها طاقة خلاقة أيضا ، وعلى أنها الفعل الذى يغير العالم ، ولكن اذا فهمت الحرية على هذا النحو وحده ، ولم نلتفت الى ما يتم فى الداخل قبل الفعل أى قبل تحقيق الطاقة الخلاقة ، فان انكار حرية الشعور والفكر أمر لا مفر منه . ونستطيع أن نرى فى العالم الشيوعى الروسى أن حرية الشعور والفكر ليست موضوع الاعتراف بها على الاطلاق . هناك تطلق الحرية على الشعور الجماعى وحده ، ولا تطلق على الشعور الفردى . ولا يتمتع الفرد بأية حرية فى علاقته بالكل الاجتماعى ، وليس له حرية شخصية ، أو شعور شخصى . وما الحرية بالنسبة للشخص الفردى سوى قدرته على التكيف مع الكل الجماعى . ولكن حين يكيف الفرد نفسه ويمتزج بالكل الجماعى ، يكتسب حرية هائلة فىعلاقته ببقية العالم أجمع . وحرية الوعى ، والوعى الدينى قبل كل شىء ، تفترض مقدما أن هناك مبدأ روحيا فى الفرد ، وهذا المبدأ لا يعتمد على الجماعة ، والشيوعية لا تعترف به طبعا . وسنرى فى الفصل القادم أن مملكة قيصر ومملكةالله تتطابقان وتتماثلان فى نظر الشيوعية، وهكذا يكون تحطيم الشخصية الفردية فى الشيوعية القائمة على المادية — أمرا لا محالة واقعا . والأخلاق الشيوعية الثورية لا رحمة فيها حتما تجاه الانسان العينى الحى ، أو تجاه الجار . والانسان الفرد ما هو الا قالب من الطوب ضرورى لبناء المجتمع الشيوعى ، ولا يزيد عن كونه وسيلة لغاية .

وتفسير الشيوعية لحياة كل انسان بأنها أعدت لخدمة غرض يعلو على الأغراض الشخصية ، وليست لخدمة نفسه ، بل لخدمة كل عظيم .. هذا التفسير سليم ، ويتفق تمام الاتفاق مع المسيحية ، غير أن هذه

الفكرة الصادقة يشوهها انكار القيمـــة المستقلة لكل شخص انســـانى ، ولحريته الروحية . وفى الشيوعية ايضا تلك الفكرة الصـــادقة القائلة بأن يتحد الانسان مع اخوانه البشر للتحكم فى الحيـــاة الاجتماعية والكونيـــة وتنظيمها ، غير أن هذه الفكرة التى عبر عنها المفكر المسيحى ن. فيدوروف N. Fedorov (١) تعبيرا متطرفا اخـــذت شكلا يكاد يكون مخبولا ، اذ حولت الانسان الى أداء ومجرد وسيلة من اجل هـــذا التحكم .

هذه التشويهات جميعـــا لا ترجع الى النسق الاجتماعى والاقتصادى للشيوعية ، بمقدار ما ترجع الى روحها الزائفة . فالاقتصاد لا ينكر حرية الروح ، لأن الاقتصاد عاجز فى علاقته بالروح ، وانما تنكرها الروح نفسها ، الروح المعادية للحرية . والنزعة المـــادية المحاربة المعادية — للروح التى تتصف بهـــا الشيوعية هى ظاهرة من ظواهر الروح ، لا من ظواهر المادة. انهـــا توجيه زائف للروح . وقد يكون الاقتصاد الشيوعى محايدا فى حد ذاته ، ولكن الدين الشيوعى ، لا الاقتصاد ، هو عدو المسيحية ، وعدو الروح والحرية. والصواب والخطأ يتداخلان فى الشيوعية لأن الشيوعية ليست مجرد ظاهرة اجتماعية فحسب ، بل انها ظاهرة روحية أيضا . ولا تدعو الحاجة الى أن تندرج تحت فكرة المجتمع العـــامل اللاطبقى الذى يعمل فيـــه كل انسان من أجل الآخرين ، ومن اجل الجميع ، ومن أجل غرض يسمو على ما هو شخصى — نقول لا تدعو الحاجة الى ادراج انكار الله والحرية فى هذه الفكرة . وعلى العكس من ذلك ، هذه الفكرة أكثر اتفاقا مع المسيحية من الفكرة التى يقوم عليها المجتمع الراسمالى البورجوازى . غير أن امتزاج هذه الفكرة بنظرة عالمية زائفة ترفض الروح والحرية ، يؤدى الى نتـــائج مهلكة . والطابع الدينى للشيوعية ، ودين الشيوعية نفسه هو الذى يجعلها معـــادية للدين ، ومعـــادية للمسيحية . ويعلن المجتمع الشيوعى والدولة الشيوعية انهما شموليان ، بيـــد أن ملكوت الله هو وحده الذى يمكن أن

---

(١) راجع كتاب ن. فيدوروف « فلسفة المهمة المشتركة »
The Philosophy of Common Task

يكون شموليـــا ، أما مملكة القيصر فهى جزئية دائمـــا . ومملكة القيصر تصبح — فى نظر الشيوعية — مملكة الله ، وهذا ما حدث تماما فى الاشتراكية الوطنية الألمـــانية ، وان يكن قد حدث بصورة أشد اتساقا وتطرفا . وهذا أيضـــا يثير حتمـــا صراعا روحيـــا .

ومن الخطأ المميت اضفاء طابع الصراع الاجتماعى على هذا الصراع الروحى ، والقول بأنه يدافع عن المجتمع الرأسمالى البورجوازى القـــديم ، أو عن نظام الحكم القديم . فان ذلك يسلب الصراع ضـــد الشيوعية كل قوته . فالعالم كله يتحرك نحو انحلال المجتمعات الرأسمالية القديمـــة ، والانتصار على الروح التى كانت تستمد منهـــا هذه المجتمعـــات الهامها . والاتجاه نحو الاشتراكية — وأعنى بها الاشتراكية بمعنى واسع ، لا بمعنى نظرى — ظاهرة عالمية شاملة . وهذه الأزمة العالمية المؤدية الى شكل جديد للمجتمع لم تتضح بعد شخصيته — تتم على مراحل انتقاليـــة . ومن هذه المراحل الانتقالية المرحلة المعروفة برأسمالية الدولة الموجهة المرتبطة .. وهذه عملية صعبة تصاحبها عمليـــة جعل « الدولة » مطلقـــة . وهـــذه المرحلة — التى ليست باشتراكية بعد — تجد فى روســـيا السوفيتية كثيرا من التأييد من التقاليد القديمة للدولة المطلقة . وهنـــاك كثير من الأمور الأولية فيمـــا يحدث الآن فى الاتحاد السوفيتى ، كالعمل على تمدين الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين الخارجة من حالة الأمية . وليس فى هـــذا ما هو شيوعى على وجه التخصيص ، غير أن عملية « التمدين » تتم باحلال الرموز الشيوعية الماركسية مكان الرموز المسيحية الدينية . أما الشاذ وغير الصحى فهو أن يتم ربط الجماهير بالمدنية بتحطيم الانتلجنسيا الروسيةالقديمة تحطيما تاما . فهـــذه الثورة التى راودت أحلام الانتلجنسيا دائمـــا ، قد أصبحت هى نهاية الانتلجنسيا ، وهذا راجع الى التصدع القديم فى التاريخ الروسى بين الانتلجنسيا والجماهير ، وكذلك الى الغوغائية المخادعة التى وصل بهـــا الشيوعيون الروس الى انتصارهم ، فقـــد أدت الى عجز رهيب فى قوة الرجل المثقف . أما فكرة الثقافة البروليتارية فهى متناقضة فى ذاتهـــا وزائفة من وجهة نظر المثل العليـــا الشيوعية ، ما دامت الشيوعية تسعى

الى تحطيم وجود البروليتاريا بوصفها طبقــة ، ولا بد أن تجاهد فى سبيل الثقافة من أجل المجتمع كله . وهذه المسألة قد فهمها تروتسكى (١)

والشيوعية الروسية — اذا نظرنا فيها نظرة أعمق على ضوء مصير روسيا التاريخى — تعد تشويها للأفكار الروسية ، وللمسياوية والعالميــة الروسية ، وللبحث الروسى عن مملكة الحق والعدالة ، تلك الفكرة الروسية التى اصطنعت فى جو الحرب والتفسخ أشكالا غاية فى القبح . غير أن الشيوعية الروسية ترتبط بالتقاليد الروســية بروابط أكثر مما يفترض عامة ، لا بالتقاليد الحسنة فحسب ، بل ببعض التقاليد السيئة جدا أيضا .

ظل ك.ب بوبدونوستف K. P. Pobedonostzev الوكيل الشهير للمجمع المقدس يحكم الكنيسة الروسية ، والدوله الروسية من حيث الأفكار — زهاء خمسة عشر عاما ، وكان الزعيم الروحى لروسيا الملكية القديمة خــلال فترة انحلالهــا ، وكان لينين هو الزعيم الروحى لروسيا الشيوعية الجديدة، وظل أعواما طويلة القوة المسيطرة فى العملية التمهيدية للثورة ، وأصبح بعــد الثورة حاكما لروسيا . ويمثل بوبدونوستف ولينين أفكارا على طرفى نقيض ، ولكنهما متشابهان من حيث التكوين الروحى ، فكلاهما ينتمى الى نمط واحد بعينه الى حد بعيد . وقد كان بودنوستف أعظم وأعقد وأطرف ممــا يعتقد الانسان حين يضع فى اعتباره سياسته الرجعيــة وحــدها . ولقــد وصفت ذات مرة نظرته الى العالم بأنهــا « نزعة عدمية على أساس دينى » ، فقــد كان عدميا فى نظرته الى الانسان والى العالم ، ولم يكن يؤمن بالانسان بتاتا . وكان يعتقــد أن الطبيعة الانسانية شريرة جديرة بالاحتقار بصورة مطلقة . وهذا الموقف المزدرى المستخف بالحياة الانسانية ، وبحياة العالم ظل ينمو فى نفسه ، حتى امتد الى الأساقفة الذين كان يتصل بهم بوصفه وكيلا للمجمع المقدس . وكان يحتقر الأساقفة ويرفض أن يرى

---

(١) راجع الكتاب الشائق الذى نشر حديثــا بعنوان « الفكرة الاشتراكية » تأليف هنرى دى مان . Henri de Man

فيهم أى نوع من الصفات الروحية ، ويعتقد أن ممثل الدولة يجب أن يتحكم فى الأساقفة . وقد أخضع الكنيسة — بوصفه وكيلا للمجمع المقدس — للدولة لأنه لم يكن يؤمن بالصفات الانسانية فى الأساقفة ، أو فى الجمهور العادى . والانسان شرير ولا أمل فيه ، وخلاصه الوحيد هو أن يحكم بالحديد والنار . وينبغى ألا تمنح الحرية للانسان ، فليس فى الامكان أن يحكم العالم الا بالعنف والقهر اللذين تستخدمهما الحكومة الملكية .

ومن عدم ايمانه بالانسان ، ومن موقفه العدمى من العالم ، استخلص «بوبدونوتسف» أشد النتائج رجعية. كان يؤمن بالله ، ولكنه لم يكن يستطيع أن ينقل ايمانه بالله الى علاقاته بالناس وبالعالم . وقد كان هذا الرجل الذى اشتهر بأنه كالمدعى العام — وديعا فى حياته الخاصة ، وكان ولوعا بالأطفال ولعا مؤثرا ، وكان يخاف زوجته ، ولم يكن فظا فى معاملة « جاره ». ولكنه لم يكن يحب « الانسان البعيد » ، الانسان بوجه عام ، والانسانية ، والتقدم والحرية والمساواة ، وما الى ذلك . هل يمكن أن يقوم بينه وبين لينين أى وجه شبه ؟ كان لينين أيضا لا يؤمن بالانسان ، وكان يعتنق هو أيضا موقفا عدميا من العالم ، ويحتقر الانسان احتقارا ساخرا ، ويرى أن الخلاص الوحيد هو فى حكم الانسان بالحديد والنار . وكان يعتقد شأنه فى ذلك شأن « بوبدونوتسف » أن من المحال تنظيم الحياة الانسانية الا بالقهر والقوة . وكما كان « بوبدونوتسف » يحتقر الطبقات الكهنوتية التى يشرف عليها ، فكذلك كان لينين يحتقر الطبقات الثورية التى يشرف عليها . وكان يشير الى الشيوعيين فى لهجة ساخرة ، ولا يؤمن بصفاتهم الانسانية . وكان كل منهما يؤمن بالنظام العسكرى ، وبالتنظيم الاجبارى للشعب ، بوصفهما المخرج الوحيد . وليس فى الامكان أن يؤسس المجتمع على الصفات الانسانية ، بل لا بد من تنظيمه بحيث تخضع المادة الانسانية السيئة — بلا أمل فى اصلاحها — للنظام العسكرى ، وان تعاد ظروف الحياة كما تعيشها الجماعة .

ومن تعاليم لينين أيضا أن العالم والانسان تحطما بفعل الخطيئة ،

والخطيئة — فى نظره — هى استغلال الانسان لأخيه الانسان . خطيئة انتفاء المساواة بين الطبقـــات . ولم يكن لينين يؤمن بالطبيعـــة البشرية ، أو بأعلى مبـــدأ فى الانســـان ، غير أنه لم يكن يؤمن باللـــه ، كما كان « بوبدونوتسف » يؤمن به ، وانما كان يؤمن بالحياة المقبلة ، لا بالعـــالم الآخر ، بل بحياة مقبلة فى هذا العالم ، وبالمجتمع الشيوعى الجديد الذى احتل مكان الله عنده . وكان يؤمن بانتصار البروليتاريا الذى كان بالنسبة اليه « اسرائيل الجديدة » . بيد أن المجتمـــع الشيوعى لن يتحقق بقوة صفات الناس الطيبة ، ولكن بقوة النظام العسكرى ، والقهر ، والتنظيم . وحكومة لينين الشيوعية لا تقل تسلطا واستبدادا عن حكومة «بوبدونوتسف» الملكية . وقد استخلص لينين من كفره بالانسان ، ومن موقفه العدمى من حياة العالم ، استخلص النتيجة العكسية ، نتيجة ثورية متطرفة ، اذ من الممكن استخلاص نتيجة ثورية متطرفة أو رجعية متطرفة من تلك المقدمات ، غير أن حياة هـــذا العـــالم عبث وشر فى نظر لينين وبوبدونوتسف على السواء . ولم يكن لينين — شأنه فى ذلك شأن بوبدونوتسف — شخصا شريرا فى حياته الخاصة ، ولم تكن شفقته قليـــلة ، أو موقفة الانسانى من جاره ضعيفا . وكان يحب الأطفال والحيوانات أيضـــا ، ولم يكن من نمط « المدعى العام » . ومن الأمور الغريبـــة فى مصير روسيا والشعب الروسى أن روســـيا ظلت حتى قيـــام الثورة محكومة برجـــل لا يؤمن بالانسان ، ويتخذ موقفا عدميـــا من العالم ، وهذا شىء رمزى من الطراز الأول ، ويفسر كثيرا من الأشياء . فالحكومة الروسية لا تستطيع أن تكون انسانية ، والوجه الثانى لهذه الحقيقة هو الفوضوية الروسية . والموقف العدمى من العـــالم ومن الانسان صورة مشوهة للزهـــد الأرثونكسى ، وها نحن أولاء نصل الى المشكلة الأخيرة ، وأعنى بها المشكلة الدينية ، مشكلة العلاقة بين الشيوعية والأرثوذكسية .

———◆———

الفصل السابع

الشيوعية والمسيحية

تتطلب مسألة العلاقة بين الشيوعية والدين ، والدين المسيحى على وجه الخصوص — بحثا خاصا . فليس موقف الشيوعية المعادى لكل دين عداء لا هوادة فيه — ظاهرة عرضية ، وانما هو موقف نابع من جوهر النظرة الشيوعية العامة الى الحياة . ونظام الحكم الشيوعى نزعة متطرفة لتمجيد الدولة . والدولة فيه شمولية مطلقة ، تتطلب وحدة اجبارية للفكر . والشيوعية تضطهد جميع الكنائس ، وعلى رأسها الكنيسة الأرثوذكسية بسبب الدور الذى قامت به فى التاريخ . والشيوعيون يعلنون الحادهم النضالى ، وهم مرغمون على المضى فى دعايتهم ضد الدين . ان الشيوعية فى الواقع عدو لكل شكل من أشكال الدين ، وخاصة الدين المسيحى ، لا بوصفه نظاما اجتماعيا ، وانما باعتباره دينا فى حد ذاته ، ذلك أنها تريد أن تكون هى نفسها دينا ، وأن تحل محل المسيحية كما تعلن أنها تجيب على المسائل الدينية المتعلقة بالروح الانسانى ، وانها تعطى معنى للحياة . الشيوعية متكاملة ، وهى تحتضن الحياة كلها ، وعلاقاتها لا تقتصر على قطاع خاص منها . وعلى هذا الأساس فان صراعها مع الأديان الأخرى أمر محتوم . والتحيز والتعصب يصدران دائما عن مصدر دينى . ولا يمكن أن تكون نظرية علمية وعقلية خالصة على مثل هذا التعصب والتحيز ، والشيوعية مذهب يستبعد ما عداه كالعقيدة الدينية سواء بسواء .

ويلعب المزاج الدينى الروسى ، والسيكلوجية الطائفية والانقسامية الروسية دورا هائلا فى هذا المجال . بيد أن الموقف المحارب الذى لا سبيل الى المصالحة فيه من الدين قد تنبأ به ماركس نفسه مقدما ،

ففى كتابه : « مقدمة لنقد فلسفة الحياة عند هيجل » يقول ماركس : ان الدين أفيون الشعوب ، وهى عبارة اتخذت معنى محددا كل التحديد فى روسيا الحالية. كان ماركس يعتقد اننا لكى نحرر الطبقة العاملة ، وبالتالى الجنس البشرى كلـه — فلا بد أن ننتزع الشـعور الدينى من القلب الانسانى ، وكان يقول : «ليست حرية الضمير الدينية هى ما نريد ، ولكن تحرر الضمير من الخرافة الدينية». والعقائد الدينية تعكس العبوديةالانسانية العبودية لقوى الطبيعة العنصرية ، ولقوى المجتمع اللامعقولة ، وهذه العقائد تظل موجودة الى أن يتغلب الانسان ، أى الانسان الاجتماعى ، أخيرا على القوى العنصرية اللامعقولة التى تحيطه بالأسرار . وقد كان ماركس فى أفكاره عن الدين — تلميذا لفويرباخ ، ولكنه طور أفكار الأخير فى اتجاه اجتماعى . وكان فويرباخ أعظم عبقرية فى فلسفة القرن التاسع عشر الالحادية ، ويتمتع بذهن ثاقب ، ومواهب كثيرة للبحث فى الفلسفة الانثروبولوجية بوجـه عام ، وقد أراد — كما هو معروف جيـدا — أن يحول اللاهوت الى انثروبولوجيا ، والانسان فى نظره — لم يخلق على صورة ومثـال الله ، وانمـا الله هو الذى يأتى على صورة ومثـال الانسان . وما الدين الا تعبير عن أسمى طبيعة للانسان ، وهو مستمد من الانسان ، ثم انفصل عنه ، ونقل الى منطقة متعالية من عالم آخر . وقد عمل الدين على افقار الانسان وتجريده ، وهكذا أصبح للانسان الفقير اله غنى . وانتقلت ثروة الانسان كلها الى الله ، وعهدت اليه . والاعتقاد فى الله تعبير عن ضعف الانسان وفقره وعبوديته . أما الانسان القوى الغنى الحر ، فلا حاجة به الى الله ، فكل ما هو اسمى يجده فى نفسه .

ومن هذا استخلص ماركس هذه النتيجة وهى أن الاعتقاد فى الله يبقى البروليتاريا فى العبودية والفقر والامتهان . والعقـائد الدينية تمنح الانسان عزاء وهميا خياليا ، اذ تحول النصر الى مجال غير حقيقى ، ومن ثم كانت عائقا للنصر والتحرير الحقيقيين . وسوف تستغنى البروليتاريا الظافرة عن كل العزاءات الوهمية الخيالية ، عزاءات العالم الآخر ، لأنها ستحقق النصر على هذه الأرض . وتعاليم ماركس عن أوهام الشعور ،

والأوهام الدينية والأيديولوجية التى تعكس عبودية الانســـان وتبعيته ، وضعفه وهوانه ، مأخوذة من فويرباخ ، بيد أن ماركس قد أضفى على التعاليم الخاصة بطبيعة الشعور الوهمية طابعا اجتماعيا أشد حدة ، اذ يتطلب الجاد ماركس النضالى تغييرا فى الوعى قبل كل شىء . ولا بد أن تتحطم العقائد الدينية ، لا بالسجن والاضطهاد وانمـــا باحداث ثورة فى الفكـــر ، ويحدث هـــذا كنتيجة للحـــرب الطبقية الثوريـــة التى تشنها البروليتاريا . وكان ماركس فى شبابه معنيا عناية خاصة بالصراع ضـــد العقيدة الدينية ، وهذا الصراع فى رأيه صراع عقلى قبل كل شىء ، وفى هذا يتفق مع برونو باور Bruno Bauer . وقـــد وجد ماركس نفســـه سائرا فى تيار الهيجيلية اليسارية . ولم يلبث اهتمامه بالمســـائل المرتبطة بوضع نظرة عامة أن أصابه الضعف فيما بعد ، وانصب اهتمامه الرئيسى على المشكلات الاقتصادية ، ولكنه ظل ملحدا مناضلا . ومع ذلك لايزال ينبغى القول بأن العداء للدين عند ماركس قد أخذ تعبيرا أقل تطرفا منه عند باكونين فى روسيا أو « ديرنج » Düring فى المـــانيا . و « ديرنج » الذى يمثـــل نمطا من الاشتراكية مضادا للماركسية ، مع ميـــل الى الفوضوية يقول فى صراحة ان الدين ســـيكون « محرما » فى المجتمـــع الاشـــتراكى . أما انجلز الذى وضع كتابه الرئيسى فى صورة نقـــد لآراء « ديرنج » الفلسفية والاجتمـــاعية فيناقضه فى هذا التحـــريم للدين . والاستنارة النضالية تتخذ عادة صورة الالحاد النضالى ، ذلك أن العقل بعد أن يسيطر على نفسه ويحرر نفسه من التقاليد التى رسف فى أغلالها ، ينطلق لمعارضة الاعتقاد فى الله . وهذه ليست الا مرحلة انتقالية دائما ، يخفق فيها العقل فى أن يعرف الى أى حد يعتمد على رد الفعل العاطفى السلبى ، أما العقل الأكثر نضجا والمتحرر فعلا فيدرك حـــدوده ، ويغير موقفه من الاعتقاد الدينى . وما زال العقل المستنير فى روسيا فى مرحلته المحاربة الأولى ، وما زالت تجرفه الانفعالات . وهذا ما نلمسه فى لينين .

وقد كان لينين ملحـــدا متحمسا عن اقتناع ، وكارها للدين . وأنا استخدم كلمة « ملحد » ، على الرغم من اننى لا أومن بوجود « الملاحدة »

الخلص . فالانسان حيوان دينى ، وحين ينكر الآله الحقيقى الحى ، فانه يصنع لنفسه آلهة مزيفة ، وصورا وأصناما يعبدها . وقد ابتذل لينين الأفكار الماركسية عن الدين وجعلها اشد خشونة ، تماما كما ابتذلت اللينينية افكار لينين الخاصة وجعلتها اشد خشونة . وقد كان لينين عبقريا فى الخشونة الفجة ، وكان هذا هو اسلوبه . فبالنسبة لماركس ، كانت مشكلة الدين هى قبل كل شيء مشكلة افكار الانسان مع ارتباطها — طبعا — بالصراع الاجتماعى . أما بالنسبة للينين ، فقد كانت مشكلة الدين تكاد أن تكون مقصورة على مشكلة الصراع الثورى ، وطريقته فى وضع المشكلة كانت متكيفة مع احتياجات هذا الصراع . وقد أهاب لينين بالناس أن « يهاجموا السماء » ، غير أن قتال لينين ضد الله ينطوى على أى عمق ، ولا يتضمن دوافع فويرباخ ونيتشه العميقة ، أو شيئا مما يتكشف فى دوستويفسكى ، فليست فيه أى دراما داخلية . وأفكار لينين عن الدين المتناثرة فى مؤلفاته ، قد جمعت ونشرت على حدة (١) ويلتقى المرء فى هذه الأفكار مثلا — بعبارات مثل : « كل اله صغير معناه الرقاد مع جثة » ويعطى لينين تعريفه للدين ، وهو تعريف رجل غوغاء demagogue لا رجل علم ، فيقول : « الدين جانب من جوانب الاضطهاد الروحى الذى يقع فى كل مكان على الجماهير التى حكم عليها بالكدح الأبدى — من أجل الآخرين — وذلك بسبب حاجتها وعزلتها » وهاك تعريفا آخر : « الدين نوع من المسكر (البراندى) الروحى الذى يغرق فيه عبيد رأس المال صورة انسانيتهم وطلبهم لنوع من الحياة الانسانية المحترمة » وهذا التعريف وضع عام ١٩٠٥ .

وكان لينين يكره على وجه الخصوص أية محاولة للربط بين المسيحية والاشتراكية . وكان من رأيه أن الروح الاصلاحية فى الكنيسة اشد ضررا من « المائة يوم السود » . والمسيحية التقدمية التى بعثت من جديد اسوأ من المسيحية الفاسدة القديمة . ويكتب لينين قائلا : « ان

---

(١) تحت عنوان « آراء لينين عن الدين » .

كاهنا كاثوليكيا من الروم يغرر بفتاة لأقل خطرا بكثير من كاهن بغير رداء الكهنوتى ، كاهن بغير فظاظات الدين ، كاهن ذكى ديموقراطى يبشر بصنع هذا الآله الصغير أو ذاك ، لأنك تستطيع أن تفضح الأول وأن تدينه ، وأن تتخلص منه ، ولكنك لن تستطيع التخلص من الثانى بهذا اليسر ، وفضحه أمر أصعب آلاف المرات » وهذه المقولة عن « الكاهن بلا مسوح » تلعب دورا كبيرا فى الدعاية المناهضة للدين ، وهى فى الواقع مقولة تضم الكثيرين حقا . و « الكهنة بلا مسوح » يبدو أنها تشمل كل من لم يكن ماديا ، كل من يعترف بمبدأ روحى فى الحياة ، ولو كان ذلك بأقل الدرجات ، وجميع الفلاسفة الذين يقارفون أية ميول روحية أو مثالية . بل ان « أينشتين » نفسه نمت بأنه « كاهن متنكر » لأنه اعترف بوجود عاطفة كونية يمكن أن توصف بأنهـــا « دينية » . وكان لينين يمقت نفس كلمـــة « دين » ويعارض معارضة شديدة النظر الى الاشتراكية بوصفها دينا ، كما أراد «لوناتشارسكى» Lunacharsky أن يفعل ذات مرة. وقد كان لوناتشارسكى هو أيضا نوعا من الكاهن الذى لا يرتدى مسوحا لأنه كان يدعو الى «بناء الله» God-construction وهذه الدعوة فى الواقع صورة من صور الالحاد ، بل من الالحاد المحارب . ولكن ، مع كل كراهية لينين للدين ، فقـــد كان يعارض السياسة التى تطرح المسألة الدينية فى مقدمة المشاكل ، ويرى أن الكفاح ضد الدين مشكلة مستقلة متميزة عن النضال الطبقى الثورى بل كان يندد بالاهانة المتعمدة للمشاعر الدينية،وان يكن هو نفسه يهين هذه المشاعر فى خشونة . وكان يوصى بقراءة الفلسفة الالحادية الفرنسية التى انتشرت فى القرن الثامن عشر ، وهذا يبين الى أى حد كان الحاد ماركس ولينين يعتمد على الاستنارة البورجوازية فى ذلك القرن .

وعلى الرغم من أن روح المـــادية المستنيرة التى شاعت فى القرن الثامن عشر قوية جدا فى الشيوعية فان الشيوعيين الروس ، المتخصصين فى الدعاية المناهضة للدين ، يميزون بين الكفاح البورجوازى الراديكالى ضد الدين تحت اسم الاستنارة العقلية من جهة ، وبين النضـــال الثورى الطبقى البروليتارى ضد الدين من جهة أخـــرى . وفى الأدب السوفيتى

المناهض للدين ، وهو ضخم جدا (لأن الدعاية المضادة للدين قد وضعت فى مركز يلقى كل تشريف) ، يوجه اللوم الى بليخانوف على أساس أنه يحارب الدين بوصفه رجلا من رجال الاستنارة ، ومن ثم فانه يتخذ موقفا عطوفا مثيرا للضحك من الدين . ويعتقد بليخانوف أن انتشار الاستنارة سيؤدى الى موت المعتقدات الدينية موتا طبيعيا ، وسيختفى الدين من تلقاء نفسه دون صراع حاد أو عنيف . والمسألة بالنسبة لبليخانوف هى مسألة تغيير فى الوعى أولا ، أى أنها مسألة علمية وفلسفية . وضد هذا الرأى ، أعلن أنصار لينين النضال الثورى الطبقى ، ذلك الصراع الذى يتحول حتما الى اضطهاد . وهم يؤكدون باستمرار هذه الحقيقة وهى أن القتال ضد الدين ليس علميا كما كان فى نظر رجال الاستنارة ، بل قتالا طبقيا . ويفسر بعض الماركسيين الغربيين المتضلعين من أمثال كاوتسكى Kautsky وكونوف Kunov على أنهم من رجال الاستنارة الذين لا يفهمون حرب الطبقات الثورية . ولقد كان كاوتسكى وكونوف وضعيين ولم يكونا من الماديين الجدليين ، أى أنهما كانا مصابين بعدوى الراديكالية البورجوازية . وكان لكتاب كاوتسكى « أصل المسيحية » تأثير كبير فى الأوساط الماركسية حين ظهوره ، واستغلللدعاية ضد الدين فى الأيامالأولى من عهد روسياالسوفيتية. ويمكن أن يقال الشىء ذاته عن كتاب كونوف « أصل الاعتقاد فى الله » . ولكن منذ أن أعلن «الاتجاه العام» فى الفلسفة السوفيتية وفى الدعاية المعادية للدين ، رفض كتابا كاوتسكى وكونوف ، ونعتا بأنهما لا يناسبان النزعة اللينينية الماركسية الاتباعية (الأرثوذكسية) . ويربط كاوتسكى المسيحية بحركة قامت بها البروليتاريا الرومانية ، وفهمت وجهة النظر هذه على أنها خطيرة ، ما دامت قد توحى للطبقة العاملة ولجماهير الفلاحين بالتعاطف مع المسيحية .

وبالاضافة الى هذا ، كان كاوتسكى ينظر الى المسيحية بوصفها نتيجة مترتبة على تأثير البيئة الاجتماعية ولا ينظر اليها من وجهة نظر

حرب الطبقات ، أى انــه كان يميل الى التفسير الميــكانيكى لا التفسير الديالكتيكى ، وهــذه هرطقة . وقد أدين كونوف لأنه استخدم نظــريات الباحثين البورجوازيين ككتاب تايلور مثــلا : « نظرية حيوية المــادة » Theory of Animism لكى يفسر أصــول العقــائد الدينيــة . وكان وضعيا ، ولكنه لم يكن ديالكتيكيا . وتتطلب الدعاية المعادية للدين النظر اليه على أنه مجرد سلاح للاضطهاد الطبقى ، بينما تؤخذ كل وجهة نظر أخرى عن الدين على أنها بورجوازية . والمــادية الجدلية الأرثوذكسية هى وحدها التى تزودها بالمعنى الحقيقى لطبيعة الأديان جميعــا . وقد كتب فيلسوف سوفيتى شاب كتابا عن أصل الدين من وجهــة نظر علم الاجتماع المــاركسى ، وفى احدى الندوات التى نوقش فيها هذا الكتاب ، هوجم المؤلف بصورة يشوبها التهــديد لأنه لم يذكر شيئا فى كتابه عن آراء لينين فى السحر والطوطمية . وفى حركة يائسة تساءل المؤلف قائلا : انه لا توجد فى مؤلفات لينين كلها كلمة واحــدة عن السحر أو الطوطمية وأنه لا يدرى ماذا يصنع . ومعنى هذا الحوار العقيم واضح كل الوضوح : وهو أن مؤلفات لينين عبارة عن كتب مقدسة ، والكتب المقدسة ينبغى أن تحل مقدما جميع المشكلات .

وقد كان أضعف جانب من جوانب الماركسية دائما هو سيكلوجيتها ، وفى النزعة اللينينية — نظرا لنزعتها الغوغائية السائدة — فان علم النفس فيهــا ما زال أشد ضعفا وفجاجــة وبدائية . وحتى علم نفس الطبقات والطوائف الاجتماعية كان حظه أقل من التطوير وتحتل مكانه الاتهامات الأخلاقية الأولية . وهنا نجد أتباع لينين عاجزين تماما عن اتخــاذ موقف عقلى واضح . وموقفهم عاطفى صرف . ومجال علم النفس الدينى الذى يتسم بشدة الرهافة مجال يستعصى عليهم تماما . ويقف الأدب السوفيتى فى دعايته المعادية للدين فى مستوى منحط غاية الانحطاط ، وأسلوبه من الناحية الجمالية لا يطــاق ، وهو حقا أحــط أنواع الأدب فى روســيا السوفيتية . والصــور الهزلية التى يرسمها رجال الدعاية الســوفيتية

المعادية للدين ساذجة خالية من الذوق ، وعلى الرغم من أنهـا مباشرة وبسيطة فان جماهير الشعب لا تفهمها الا أضعف الفهم .

ولقد وضع علم كامل للمناهج للكفاح ضد الدين . والدعاية المعادية للدين قد فرضت بوصفها واجبـا ملزما على الفلاسفة السوفيت جميعا الذين ينظر اليهم على أنهـم اتباعيون (أرثوذكس) أى على أنهم يتبعون «النهج العام» . ويدخل الكفاح ضد الدين — أى دين — مشروع السنوات الخمس الذى لا يعد مشروعا اقتصاديا فحسب ، بل ومشروعا لاعادة بناء الحياة تماما . وفى الوقت نفسه يعترف المسئولون بأن المعتقدات الدينية ما زالت حية بين صفوف الشعب ، بل انها اكثر حياة من أى شىء آخر يرتبط بالحياة السياسية والاقتصادية ، وفى الجبهة الدينية بالذات يعانى الشيوعيون أفدح هزائمهم . وفى الدعاية المضادة للدين لا بد أن يحسب حساب ما يسمى بالتحيزات والخرافات الدينيـة المنتشرة بين الفلاحين والجماهير العاملة ، وعلى مناهج تلك الدعاية المضادة للدين أن تدخـل فى اعتبارها هذه المسائل : هل يمكن أن يكون المرء شيوعيا ، وعضـوا فى الحزب ، وأن يكون فى الوقت نفسه مسيحيا مؤمنا ؟ وهل يمكن أن يشارك المرء فى برنامج الشيوعية الاجتماعى دون أن يشارك فى النظرة الشيوعية الى العالم ، ودون أن يكون ماديا جدليا وملحدا ؟ وهذا سؤال جوهرى .

(٢)

ولا يقبل الشيوعيون — على عكس الديموقراطيين الاجتماعيين — أن يكون الدين مسألة خاصة لا تتعلق الا بالضمير الفردى . وعلى النقيض من ذلك ، يعدون الدين مسـألة اجتماعية من أعم المسـائل . والنظر الى العلم بوصفه من الشئون الخاصة ، أى الاعتراف بالحق الذاتى فى حرية الضمير ، بنـد منتظم فى البرنامج الديمقراطى الليبرالى ، وهـذا المبـدأ مستعار للديموقراطية الاجتماعية من الديموقراطية الليبرالية . ولم يكن ماركس نفسه يستطيع — بعد أن دمغ الدين بأنه أفيون الشعوب ، وبأنه

أكبر عقبة فى سبيل ضمان الحرية للطبقة العاملة وللانسانية — لم يكن يستطيع النظر الى الدين بوصفه من الشئون الخاصة . مشكلة الدين تدخل اذن فى النضال الاجتماعى ، والشيوعية الروسية تستنتج استنباطا منطقيا متطرفا من وجهة نظر ماركس عن الدين ، وهو استنباط لم تكن الديموقراطية الاجتماعية على استعداد لاستخلاصه لأنها استوعبت عددا من المبادىء الليبرالية . ويطلق الشيوعيون عادة على الديموقراطيين الاشتراكيين صفة «الخونة الاشتراكيين» ، ويعدونهم خونة أيضا فى مسألة الدين ، على سبيل الاجمال . وبينا يعد الديموقراطيون الاشتراكيون أنفسهم ماركسيين ، تراهم يقبلون انضمام عدد من المسيحيين المؤمنين الى عضوية الحزب ، بل أن منهم القساوسة ، وأساتذة اللاهوت ، بيد أن هذا يعنى أن الديموقراطية الاشتراكية لا تريد أن تكون نظرة شاملة الى الكون ، ولكنها تريد أن تكون حزبا سياسيا فحسب ، ونظاما للاصلاح الاجتماعى فقط . ولست أتحدث هنا عن الاشتراكية الانجليزية التى ترتبط بالمسيحية ارتباطا أوثق من ارتباطها بالماركسية .

أما الشيوعية — فانها تريد من ناحية أخرى — أن تكون « نظرة عالمية شاملة » أولا وقبل كل شىء ، فهى نزعة شمولية ، ولهذا كانت المسألة الدينية بالنسبة اليها على أكبر جانب من الأهمية . والشيوعية الروسية (الواقع أن الشيوعية عامة هى ابداع روسى) تقيم برنامجها كله على « نظرة عالمية » محددة . ويقول القسم رقم ١٣ من دستور الحزب الشيوعى — (ولا ينسحب هذا على الحزب الروسى فحسب ، بل على « الدولية » أيضا) انه ينبغى على كل عضو من أعضاء الحزب الشيوعى أن يكون ملحدا ، وأن يقوم بالدعاية المناهضة للدين ، ومطلوب من أعضاء الحزب أن يقطعوا كل صلة لهم أيا كانت بالكنيسة . وقد أقام لينين — فى وضوح — المبادىء التى يجب أن تتحكم فى الرجل الشيوعى من حيث علاقته بالدين ، وبين بأى معنى يمكن أن ننظر الى الدين بوصفه مسألة شخصية ، فالدين مسألة شخصية فى علاقته بالدولة البورجوازية ، وفى أية دولة بورجوازية يجب أن يقف الشيوعى مدافعا عن حرية الضمير

ومناديا بفصل الكنيسة عن الدولة ، وذائدا عن المبدأ القائل بأن الدين مسألة شخصية . غير أن المناقشة كلها تتغير حين تكون المسألة هى علاقة الدين بالحزب الشيوعى وبالتالى حين تكون المسألة فى دولة شيوعية ومجتمع شيوعى . فمن المؤكد أن الدين ليس مسألة شخصية داخل الحزب الشيوعى ، بل انه مسألة اجتماعية من أعم المسائل ، ويصبح الكفاح الذى لا يرحم ضد الدين أمرا ضروريا . والشيوعى — الشيوعى الحقيقى المتكامل — لا يمكن أن يكون رجلا متدينا ، رجلا مؤمنا ، ولا يمكن أن يكون مسيحيا . وثمة نظرة محددة الى العالم يلتزم بها عضو الحزب الشيوعى ، هى أنه ينبغى أن يكون ماديا ملحدا ، بل وأكثر من ذلك ، ينبغى أن يكون ملحدا محاربا militant atheist ولا يكفى أن يشارك المرء فى برنامج الشيوعية الاشتراكى لكى يصبح عضوا فى الحزب الشيوعى ، فالشيوعية اعتناق لعقيدة محددة ، عقيدة مضادة للمسيحية . والأدب السوفيتى كله يؤكد هذا التفسير للشيوعية . والشيوعيون كلفون بتأكيد خصومتهم للأخلاقية المسيحية الانجيلية المؤسسة على الحب والشفقة والتعاطف ، وربما كان هذا أبشع ما فى الشيوعية .

وثمة استثناء — لأسباب انتهازية — فى حالة العمال بالنسبة لمسألة الدين هذه . وما دامت هناك الآن آثار للتحيزات الدينية بين الطبقات العاملة ، فان هؤلاء الذين يتشبثون بها ، يمكن أن يقبلوا فى الحزب الشيوعى اذا شاركوا فى البرنامج الاشتراكى للشيوعية — دون القيام بتحريات عن معتقداتهم الدينية ، بيد أن هذا أمر غير مسموح به بالنسبة لأعضاء الانتلجنسيا . وقصة الشيوعى السويدى « هدلوند » Hedlund قصة دالة كل الدلالة فى هذا المجال ، فقد حاول تأكيد أن الدين مسألة تتعلق بضمير الانسان ، وأنه من الممكن أن يكون المرء شيوعيا ، ومسيحيا مؤمنا فى الوقت نفسه ، ولكنه هوجم لهذا السبب هجوما عنيفا ، وعامله ياروسلافسكى Yaroslavsky معاملة شديدة القسوة (١) ، وياروسلافسكى هو الخبير الرئيسى فى الدعاية الناهضة

---

(١) راجع كتاب ياروسلافسكى : « الجبهة المعادية للدين » و « ضد الدين والكنيسة » .

للدين . وفسروا له الأمر بأن الدين لا يعد فى صفوف الشيوعية مسألة شخصية . ولا يستطيع اى عضو من أعضاء الحزب الشيوعى فى الوقت الحاضر أن يتردد على الكنيسة أو أن يعتنق أية عقيدة دينية من أى نوع ، وهو يجعل نفسه موضعا للشبهات اذا اظهر أى فتور فى الدعاية المناهضة للدين ، أو لم يمارس الشيوعية المحاربة . والحزب الشيوعى فى تكوينه نفسه وفى تركيب أنصاره الروحى أشبه بالطائفة الملحدة ، طائفة ملحدة دينية استطاعت أن تقبض على زمام الحكومة .

ومن التساهل أن نفترض أن الاضطهاد الدينى فى روسيا موجه ضد الكنيسة الأرثوذكسية وحدها ، وهى الكنيسة السائدة التى ارتبطت فى الماضى بالملكية والرجعية . والطوائف — كطائفة المعمدانيين Baptists مثلا — ما زالت تعد أخطر من الأرثوذكس ، والصراع مع هذه الطائفة ما برح أمرا أصعب ، لأنهم هم الذين كانوا فى الماضى يعانون الاضطهاد من سلطات الحكم القديم ، دون أن يرتبطوا بها . ويعد المسحيون الذين يعترفون بعدالة الشيوعية فى مجال الحياة الاجتماعية — أشد ضررا وخطرا من المسيحيين الذين يصارحون بتأييدهم للنظام الاجتماعى القديم ، ويمارسون نشاطا مناهضا للثورة . وهكذا يؤثرون بورجوازية — متحررة ، ملحدة ومادية على المسيحيين الذين يتعاطفون مع الشيوعية ، ذلك انه من الممكن استخدام هذه البورجوازية فى العمل الاشتراكى البناء ، وهذه البورجوازية لا تبالى عادة بمسألة « النظرة العامة » ، بينما الشيوعيون المسيحيون يحدثون صدعا فى الكل المتكامل الذى تتسم به « النظرة العالمية » الشيوعية . وقد كان لينين هو الذى أعلن هذا الرأى (١) .

ولا توحى الكتيبات المخصصة للدعاية المناهضة للدين بالاضطهاد الدينى ، ويقول « ياروسلافسكى » المتخصص فى الالحاد : « اننا لا نكسب

---

(١) عولجت هذه المسألة فى صحيفة « تحت العلم الماركسى »
Under the Marxist Flag.

شيئا اذا صنعنا شهداء » ولكنهم يصنعون الشهداء فى الواقع ، فالقساوسة مرغمون على العيش فى ظروف لا انســانية ، فهم محرومون من أبسط الحقوق الانسانية الأولية ، انهم طبقة « المنبوذين » فى الاتحاد السوفيتى . ومن المنشود بوضوح وضع رجال الدين فى مركز لا يسمح لهم بالوجود . والمركز المــادى والأخلاقى للقساوسة الذين لا توجه اليهم اية تهمة ، كان مركزا لا سبيل الى احتماله ، ولهذا فانهم يفضلون فى بعض الأحيــان أن يلقى بهم فى السجن . ولكن بالاضافة الى هذا كله يعتقل الأساقفة ورجال الدين دون انقطــاع ، وينفون الى سولوفســكى Sclovsky ويعــدمون رميا بالرصاص . والشيوعيون الذين يترددون على الكنيسة يطردون من الحزب . والموظفون السوفيت يفصلون من وظائفهم اذا ارتادوا الكنيسة ، ولهذا لا يستطيعون الذهاب الى الكنيسة الا سرا ، فى مكان ما من ضواحى المدينة . وممارسة العقيدة علنا فى روسيا السوفيتية تحتاج الى بطولة ، وتؤدى الى استشهاد فى كثير من الأحيــان . ولا مانع من أن يتحــدث القسيس عن الله فى الكنيسة فحسب تأدية لوظيفته ، ولكنــه ممنوع من الحديث عنه خارج الكنيسة . وحرية الضمير لا وجود لها — بالطبع — فى روسيا السوفيتية . والدستور السوفيتى الذى فصل الكنيسة عن الدولة، ونادى بحرية الضمير ، هذا الدستور لا معنى له على الاطلاق .

وليس القهر مسألة فعل يمارس فى الحياة العملية فحسب ، ولكنه يدخل فى النظرة العالمية النظرية الشيوعية ، فهو جزء من تعاليمها . وحين يتحدث أحد الى ممثلى الحكومة السوفيتية عن الاضطهاد المناهض للدين ، يجيبون عامة بأنه لاوجود لمثل هذا الاضطهاد ، وأنهم لايضطهدون الا أعداء الثورة الذين يوجــدون بكثرة بين الأساقفة والقساوســة والمؤمنين من العامة ، ولا تضطهد الكنيسة الا بوصفها ملاذا للرجعية والحركة المضادة للثورة . بيد أن هذا التفسير الدبلوماسى يناقضه أن الشيوعيين فى جميع كتاباتهم التى تعرض وجهة نظرهم العامة وايمانهم ، يطالبــون بالنضال المحارب ضد الأديان كافة . وسيقولون ان هذا النضال يتم فى عالم الأفكار والفكر ، وهذا هو الراى الذى اتخذه ماركس عن القتــال ضد الدين . غير أن هذا جدل نظرى صرف .

والشيء المهم حقا هو أن الشيوعيين الروس يمثلون الحكومة الآن ، فالدولة فى أيديهم ، وهذه الدولة تنتمى الى مرحلة الديكتاتورية ، ديكتاتورية النظرة العالمية الشاملة ، ديكتاتورية ليست سياسية واقتصادية فحسب ، ولكنها عقلية أيضا ، ديكتاتورية تستبد بالروح والضمير والفكر . وهذه الديكتاتورية لا تبالى بالوسائل التى تصطنعها ، ذلك أنها تستخدم الوسائل جميعا ، وهذه الحالة يمكن أن تعد « حكم الفكرة » ideocracy وهى احدى تحولات جمهورية افلاطون المثالية ، وهذا هو ما يجعل انكار حرية الضمير والفكر أمرا محتوما ، وكذلك يجعل الاضطهاد الدينى أمرا لا مفر منه . وجميع المنازعات فى مجال النظرية ، والأفكار والفلسفة ، وجميع المناقشات فى العالم العملى والسياسى والاقتصادى فى روسيا السوفيتية تنشب تحت رايتى الاتباعية (الأرثوذكسية) والهرطقة heresy وجميع أولئك الذين يميلون الى « اليمين » أو الى « اليسار » فى الفلسفة أو السياسة ينظر اليهم على أنهم يميلون الى الهرطقة ، وفضح الهراطقة واضطهاد أولئك الذين تثبت عليهم تهمة الهرطقة عمليتان مستمرتان . بيد أن التفرقة بين الأرثوذكسية والهرطقة تفرقة دينية لاهوتية ، وليست تفرقة فلسفية سياسية . وحين توضع السياسة تحت راية نزعة أرثوذكسية ، ننظر الى الدولة حينئذ بوصفها كنيسة ، ولا يمكن فى هذه الحالة تجنب الاضطهاد بسبب العقيدة والرأى . ولقد كان الحكم بالتفويض الآلهى فى العصر الوسيط شبيها بهذا ، وكذلك الحال فى « الحكم الالهى » theocracy الشيوعى السوفيتى ، وفى الرايخ الثالث لهتلر ، وفى كل دولة تعلن أنها شمولية . وقد قلت آنفا ان ايفان الرهيب ، وهو أبرز شارح لنظرية الأوتوقراطية ، أسس تصور قيصرية أرثوذكسية يكون فيها خلاص أرواح الرعية واجب من واجبات القيصر . وهكذا انتقلت وظائف الكنيسة الى الدولة ، وأصبحت الحكومة الشيوعية معنية أيضا بخلاص أرواح رعاياها ، وهى تود أن تسوقهم الى حظيرة الحقيقة المنقذة الوحيدة ، لذلك أنها تعلم الحقيقة ، حقيقة المادية الجدلية . والحكومة الشيوعية — وهى حكومة لا محدودة — تستمد قوتها الدافعة من كراهيتها للمسيحية التى ترى فيها سبب العبودية والاستغلال وعتمة العقل .

والشيوعيون جهلة غير مستنيرين بصورة فذة فى المسائل الدينية ، ولكنهم يخضعون لدوافع تنتمى الى عالم الأفكار ، وتلهمهم عقيدتهم الدينية الخاصة . وكثيرا ما تظهر الحكومة الشيوعية مرونة عظيمة فى السياسة ، فهى تستطيع أن تكون انتهازية جدا فى مجال السياسة الدوليـــة ، وأن تقوم بتنازلات فى السياسة الاقتصادية ، بل انها على استعداد لمنح قدر معين من الحرية فى الفن والأدب . والشيوعية تتغير ، انها تتطــور ، وتصير مؤممة ، وأكثر ثقافة ، والحياة الشيوعية تتحول الى البورجوازية ، وهذه العملية الأخيرة تشكل خـطرا عظيما لا على الشيوعية وحدها ، بل على الفكرة الروسية فى العالم أيضا . غير أن هناك ميدانا ما برحت الشيوعية فيه متعصبة بلا تغيــير ، وبلا رحمة ، ولا تسمح فيــه بأية مصالحات كانت . هذا الميدان هو ميدان « النظرة العالمية الشاملة » فى الفلسفة ، وبالتالى فى الدين أيضـــا . والأدب الفلسفى السوفيتى ككل ، وفرعه المتعلق بالدعاية المناهضة للدين بوجه خاص ، أدب شديد التعصب والجمود ويخلو من كل استنارة . والنزعة الدجماطيقيـــة فى هــذا الأدب تتجاوز أى شىء حدث فى اللاهوت المسيحى ، ويبدو الأمر أحيـــانا وكأن الحكومة السوفيتية تفضل العودة الى الرأسمالية فى الحيـــاة الاقتصادية على أن تسمح بحرية الضمير ، وحرية الفكر الفلسفى ، وحـــرية ابداع ثقافة روحية . وهذا البغض للدين والمسيحية يضرب بجذوره عميقا فى ماضى المسيحية .

(٣)

والكراهية التى يضمرها الشيوعيون الروس للمسيحيـــة تنطوى على تناقض ذاتى لا يلاحظه أولئك الذين تخضع أحكامهم للمذهب الشيوعى . وخير نمط للشخص الشيوعى ، أعنى الشخص الواقع تماما فى قبضة الخدمة التى يقوم بهـــا فى سبيل فكرة ، والقادر على تضحيـــات هائلة ، وحماس لا يرمى من ورائه الى مصلحة شخصية ، هذا الشخص لا يمكن الا أن يكون

مجرد امكانية نتيجة للتدريب المسيحى للروح الانسانيـــة ، واعادة تشكيل الانسان الطبيعى بوساطة الروح المسيحية . ونتيجة هــذا التأثير المسيحى على الروح الانسانية — وهو عادة تأثير خفى غير ملحوظ — تظل باقيــة حتى حين يرفض الناس المسيحية عن وعى ، بل حين يصبحون أعداءها . واذا كان من المضمون أن تحطم الدعاية المناهضة للدين كل آثار المسيحية من روح الشعب الروسى ، وأن تقضى على كل شعور دينى فى نهاية الأمر — اذا كان ذلك مضمونا فان التحقيق الفعلى للشيوعية يصبح مستحيلا ، لأنك لن تجد فى هذه الحالة شخصا مستعدا لبذل التضحيات ، ولن يفسر أحد الحياة على أنهـــا خدمة غاية سامية ، وسيبقى النصر النهائى ملازما للنمط الباحث عن ذاته الذى لا يفكر الا فى مصالحه الخاصة . وهـــذا النمط الأخير من الأشخاص ، لا يلعب الآن دورا ضئيلا ، ونمو الروح البورجوازية راجع اليـــه .

وتريد الشيوعية — وفقا لأفكارها الخاصة — لا أن توجد العـــدالة فحسب ، بل تريد الاخاء أيضا فى العلاقات الانسانية ، تريد الشيوعية بين النـــاس . ولكن من العبث والسخف افتراض أن اخاء الانســـان يمكن أن يتحقق بالقهر الخارجى الذى يفرضه النظام الاجتماعى الصارم ، وبالتعود عليه ، كما يقول لينين ، لأن اخاء الانسان يتطلب جهادا تقوم به القوى الروحية العميقة . والشيوعية المـــادية الملحدة مآلها الفشل والهلاك ، أو الالتزام بتأسيس مجتمع أشبه بالجهاز الآلى الذى لا يستطيع المرء أن يميز فيه الشكل الانسانى . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أن الشيوعيين مدينون من نواح كثيرة للمسيحية ، وعلى الرغم من انهم يقيمون نشاطهم كله على تحويل الطاقة الدينية ، أى استخدامها فى شىء غير دينى ، فانهم يمقتون المسيحية ، والدين بوجه عام .

ولا بد أن هناك أسبابا عميقة خطـــيرة لهـــذا الاتجاه ، لا يمكن أن تعزى الى مجـــرد اعتناق نظرية مجردة فى العـــداء للدين . والمسيحيون الذين يدينـــون الشيوعيين بسبب الحـــادهم وما يرتكبـــون من ضروب الاضطهاد المعـــادى للدين ، لا يستطيعون أن يلقوا اللوم كله على هؤلاء

الشيوعيين الملحدين ، بل لا بد أن يجعلوا لأنفسهم نصيبا من اللوم ، ونصيبا محترما . ولا ينبغى أن يكونوا قضاة وموجهين للتهم ، بل ينبغى أن يكونوا نادمين أيضا ، فهل فعل المسيحيون الكثير لتحقيق العدالة المسيحية فى الحياة الاجتماعية ؟ وهل جاهدوا لتحقيق الاخاء بين الناس دون ذلك البغض والعنف اللذين يتهمون بهما الشيوعيين ؟ لقد كانت خطايا المسيحيين ، وخطايا الكنائس التاريخية عظيمة جدا ، وهذه الخطايا كانت تحمل معها عقابها العادل . وخيانة عهد المسيح ، واستخدام الكنيسة المسيحية لتأييد الطبقات الحاكمة ، والضعف الانسانى المعهود ، لا يمكن لهذا كله الا ان يجلب استنكار أولئك الذين أرغموا على معاناة تلك الخيانة ، وذلك التشويه للمسيحية . وفى الأنبياء ، وفى الاناجيل ، وفى رسائل الرسل ، وعند علماء الكنيسة ، نجد تنديدا بغنى الأغنياء ، واستنكارا للملكية ، وتأكيدا لمساواة الناس جميعا أمام الله . وفى أقوال باسيليوس الكبير ، وعند يوحنا فم الذهب بوجه خاص — نلتقى بأحكام على المظالم الاجتماعية التى ترجع الى الثروة والملكية .. وهذه الأحكام تبلغ من الحدة مبلغا يبدو معها برودون وماركس باهتين . ويقول علماء الكنيسة ان الملكية سرقة ، وقد كان القديس يوحنا فم الذهب شيوعيا كاملا ، وان لم تكن شيوعيته بالطبع هى شيوعية العصر الراسمالى أو الصناعى . وثمة أسباب قوية تدعو الى تأكيد أن للشيوعية أصولا مسيحية أو يهودية — مسيحية (١) وسرعان ما جاء وقت تكيفت فيه المسيحية مع مملكة قيصر المعاصرة ، وتم اكتشاف هذا الأمر وهو أن المسيحية ليست هى الحقيقة التى يمكن أن يشتغل بها العالم فحسب ، بل من الممكن أن تكون نافعة من الناحية الاجتماعية لتأسيس مملكة قيصر . وبدأ المسيحيون من بطاركة وأساقفة وقساوسة — يدافعون عن الطبقات الحاكمة وعن الأغنياء وأصحاب السلطان . واستنبطت استنتاجات زائفة من نظرية الخطيئة الأصلية لتبرير كل شر موجود ، وكل ظلم ، واصبح الألم والمحنة مفيدين

---

(١) راجع كتاب جيرار والتر ، « أصول الشيوعية »
Gerard Walter, Les Origines de Communisme

لخـلاص الروح ، وكانت هـذه النظرية تطبـق أساسا على الطبقات المضطهدة ، التى قدر عليها العـذاب والشقاء ، ولم تكن تطبق على من يمارس الاضطهاد والعنف . وفسر التواضع المسيحى تفسيرا خاطئا ، واستخدم هذا التفسير لانكار القيمة الانسانية وللمطالبة بالخضوع المهين لكل شر اجتماعى . وهكذا استخدمت المسيحية لتبرير هوان الانسان ، وللدفاع عن الاضطهاد .

وينبغى ان نتذكر دائما أن الكنيسة تحمل معنيين مختلفين ، والخلط بينهما ، أو انكار أحدهما ، يؤدى الى نتائج خطيرة . فالمسيحية هى الجسد الصوفى للمسيح Mystical Body of Christ وهى حقيقة روحية ، واستمرار فى التاريخ لحياة المسيح ، ومصدرها الوحى ، وتأثير الله على الانسان وعلى العالم . غير أن الكنيسة ظاهرة اجتماعية أيضا ، ومؤسسة اجتماعية ، وهى ترتبط ببيئتها الاجتماعية ، وتشعر بتأثيرها ، وتجد نفسها فى تفاعل مع الدولة ، ولهـا قانونها الخاص ، وهيئتها ، ومصدرها اجتمـاعى . والكنيسة بوصفها مؤسسة اجتماعية ، وبوصفها جزءا من التاريخ ، فهى آثمة ، ومعرضة للسقوط ، ولتحريف حقيقة المسيحية الأبدية ، بأن تأخذ الزمانى والانسانى على انه الأبدى والآلهى . والكنيسة فى التاريخ عملية الهية — انسانية معقدة ، وليست الهية فحسب ، والجانب الانسـانى منها معرض للخطأ ، ولكن الحقيقة الأبدية لكنيسة المسيح تؤثر سرا وتعمل من خلال الكنيسة من حيث هى مؤسسة اجتمـاعية ، نسبية ومعرضة للخطـأ دائما . ولا يرى اللينينيون المـاركسيون الكنيسـة الا بوصفها ظاهرة اجتماعية ومؤسسة اجتماعية . ولا يرون شيئا وراء ذلك ، فهم لا يعترفون بوجود حياة روحية ، وان وجدت كانت مجرد ظاهرة اضافية لاحقة epiphenomenon والوجود مسطح ، ذو بعدين ، ولا عمق فيه . ولكن ، يجب أن تفهم الشيوعية على أنها تحـد للعالم المسيحى ، وفيها نرى « الحكمة العليا » ، وتذكيرا بالواجب الذى لم يتم . والشيوعيون أنفسهم لا يفهمون هذا ولا يستطيعون أن يفهموه ، وهم يفضحون أعمال المسيحيين الشريرة العنيفة ، ولكنهم يواصلون ارتكاب نفس الشر والعنف . وربما كانت مسئوليتهم أقل لأنهم لا يعرفون حقيقـة المسيحية ، ولكنهم مسئولون عن أنهم لا يريدون معرفتهـا .

هنــاك كتابان لهما دلالة كبيرة الفهما « هــكر » Hecker ونشرا بالانجليزية(١) . وهما يعطيان انطباعا مبهما فلو أن « هــكر » كان يدافع عن الشيوعية وعن وجهة النظر الشيوعية لبدأ كل شيء واضحا ، بيد أن موقفه من المسيحية مختلف عن موقف شخص شيوعى متكــامل ، ومن المحتمل انه يحب — بسبب ماضيه أن يحتفظ بقيمة معينــة للمسيحية ، وان يكن هذا الموقف يضعه فى تناقض حاد مع مسيحية الكنيسة . وموقفه من المسيحية يذكر المرء بذلك النمط العقلى — الأخلاقى من الطائفيين . ويشهد كل ما يقوله « هــكر » عن المسيحية بأنه يفشل تماما فى أن يرى ويفهم الجانب الصوفى منها . والكنيسة فى نظره — مجرد ظاهرة اجتماعية، تحددها البيئة المحيطة بها وتعانى كل العلل التى تصيب الطبقات الحاكمة عبر التاريخ ، فهو عاجز عن ادراك الجانب الروحى منها . والدين مصدره الخوف ، هذا الخوف الذى يتسامى به الانسان فيما بعد ، وعلى هذا فانه يفسره بمعنى سوسيولوجى بحت . ولايشك هكر فى أن الانسان قد انحدر من القرد ، أى أن له أصلا حيوانيا . وتمشيا مع الفلسفة السائدة الاجبارية فى الاتحاد السوفيتى ، يأخذ بالطبع — وجهة النظر الديالكتيكية ، وان لم نجد فيه أية آثار تكشف عن هضمه للنزعة الهيجيلية . ولا يرى « هــكر » من الكنيسة الأرثوذكسية سوى مظهرها الخارجى (شعائر لا يرى خلفها بالطبع أية أسرار) ، والرابطة التى تربطــها بالدولة الملكية ، وتبعيتها الذليلة لها ، وخضوع رجال الدين . واقتصار نظرة هكر على هذا العالم الدنيوى لا يسمح له بأى شعور عن موضوع الخلاص والحيــاة الأبدية . وتقتصر قيمة المسيحية فى نظره على أنها مسألة أخــلاق ، وتنظيم للحياة الاجتماعية . وتبدو له الأرثوذكسية كشكل من أشكال المسيحية ، شكل لم يضع أى نسق أخلاقى خاص به ، ولا يؤثر أى تأثير فى سبيل تحسين الحياة الاجتماعية . وتلوح له مشكلة الدين على أنهــا خاضعة نهــائيا للمنفعة الاجتماعية، ومن ثم فان مســألة حقيقتها لا تثار . وهــذه هى

---

(١) يوليوس هكر ، « الدين والشيوعية » و « محاورات موسكو » .

البرجماتية الأنجلوسكسونية ، وهى نزعة تلمحهـــا على الفور فى هكر ، ولكنها تناقض فى الواقع نظرة الشيوعيين العامة التى تزعم معرفة الحقيقة المطلقة

وهكر هو المعتــذر عن الشيوعيـــة الروسية للغـــرب ، ولكن من المؤكـــد أنه ليس شيوعيا متكاملا . ونظرته العـــامة انتقائية eclectic وهو معجب بليو تولستوى ويظهر أنه يميل الى فهم الشيوعية كمـــا فهمها ليو تولستوى ، أى بوصفها قانونا أخلاقيا فى أساسها . وهذا الفهم جاء نتيجة لمسيحية « هـــكر » الطائفية . وانى لأميل أنا نفسى الى الاعتقاد بأن ليو تولستوى قد كان هو الموقـــظ للضمير المسيحى فى عالم مسيحى راكد ، وأن ثمة كثيرا من الحق فى نقده للمسيحية التاريخيـــة . وقد قلت آنفا أن هناك عناصر من العدمية الروسية فى ليو تولستوى تجعله واحـــدا من رواد الشيوعية الروسية ، بيد أنه من المستحيل أن نستنتج من ذلك — كما يميل هـــكر الى الاستنتاج — أن الشيوعية تحقق أفكار تولستوى ، ذلك أن الأيديولوجية الشيوعية ، وخاصـــة فى مجال التطبيق ، تتعـــارض تعارضا يبلغ حد التناقض — مع تعاليم تولستوى . الشيوعية تمثل المقاومة العنيفة المتطرفة ، والنزعة المتطرفة فى تمجيـــد الدولة . وما تمثله المدنية التكنيكية والصناعة من اغراء ، وانكار الاخاء الانسانى الجوهرى ، وانقطاع الروابط المباشرة بالأرض ، وتحطيم المبدأ الدينى للحياة ، أما ليو تولستوى فيدعو الى عدم المقاومة ، والى الرفض الفوضوى للدولة وللمدنية التكنيكية ، والى الاعتراف بالاخاء الانسانى الجوهرى ، والى الارتباط بالأرض ، وتأكيد المبدأ الدينى للحياة .

وقـــد كان هـــكر فى هجماته التى شـــنها على ماضى الكنيســـة الأرثوذكسية فى روسيا — كان صادقا — فى معظم الأحيان — فى الوقائع التى أوردها . وليس أيسر من بيان أن تاريخ الكنيسة ، وتاريخ المسيحية بوجه عام ، هو الى حد بالغ تاريخ الخطيئة الانسانية والغدر والانحلال والخنـــوع ، برغم الايمـــان الدينى . والواقع أن الكنيســـة منـــذ عهـــد

قسطنطين لم تتحكم فى مملكة قيصر بقدر ما كانت خاضعة لها . وتاريخ الدين بوصفه مرتبطا ببيئته الاجتماعية ، وبمطالبه ومصالحه الاجتماعية ، كان دائما أبرز وأقوى من تاريخ الدين مرتبطا بالوحى والحياة الروحية ، وانما الضعف والعمى الروحى وحدهما ، واخضاع الروح لبيئتها الخارجية فحسب ، هو الذى يؤدى الى هذه النتيجة وهى أنه لا وجود لشىء اسمه الوحى ، ولا وجود لشىء اسمه العالم الروحى .

ومما لا شك فيه أن الكنيسة ـ باعتبارها مؤسسة اجتماعية ، كانت فى حالة خضوع فى روسيا ، بل لقد استعبدتها الدولة . وتبعية الكنيسة المهينة للدولة لا ترجع الى عصر بطرس فحسب بل ترجع الى العصر المسكوفى ايضا . ومما لا جدال فيه أن رجال الدين فى روسيا كانوا فى مركز مهين تابع ، فقدوا فيه كل احساس بالزعامة ، وخاصة فى عصر الانقسام . وكان مستوى طبقة الأسقفية منحطا بوجه خاص ، وأصبح الأساقفة الذين كانوا يملكون ـ خلال عصر الاحتلال التترى وخلال العصر المسكوفى ـ الى حد ما ـ احساسا بالزعامة الروحية ـ موظفين مدنيين ، وحكاما ولوعين بالنجوم والأشرطة ، ويستقلون العربات الخاصة . وكان الأساقفة يضطهدون عادة جماعة « الستارتسى » Startsi وهى تضم رجالا يملكون قوة روحية ، ويضطهدون كل مظهر تلقائى من مظاهر الحياة الدينية . ويمكن أن نرى ايضا وقائع مناظرة لذلك فى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ومما لايقبل النقاش أنه فى الثورة يجب أن تدفع الكنيسة الأرثوذكسية ثمن الخطايا التى ارتكبتها فى الماضى . لم يكن رجال الكنيسة يستطيعون أن ينبذوا فجأة روابط الكنيسة التاريخية بنظام الحكم القديم . بيد أن رؤية هذا كله لا يبرر الالتجاء الى الجلاد ، والاحتجاج على خضوع الكنيسة المهين فى مملكة قيصر القديمة لا يمكن أن يؤدى بكل تأكيد الى المطالبة بخضوع مهين لمملكة جديدة لقيصر آخر وان سميت الشيوعية . ومع كل الحقائق الصادقة التى ذكرها « هكر » عن الأرثوذكسية ـ ويمكن أن تقال ايضا عن ماضى الكاثوليكية والبروتستانتية ـ فان أحكامه العامة خاطئة ، وخارج

المنظور تماما ، وهذا شيء محتوم ما دامت الروح والحياة الروحية لا وجود لهما في نظره .وهو يرى أن الكنيسة الأرثوذكسية لا تزيد عن كونها مجرد شكلية ظاهرية ، والايمان بالشعائر ورواسب الخرافات القديمة ، وتعاطفه مقصور على الطوائف العقليـــة . غير أن ما اثر على الروح الروسية وصاغها هو الحياة الروحية الخفيـــة للأرثوذكسية ، لا النزعة الكنيسية الرسمية الظاهرية . ومن العبث أن ينظر « هــكر » الى الحياة الطقوسية للكنيسة على أنها مجرد شكلية ظاهرية ، شيء شبيه بالسحر الخـــرافى ، في الوقت الذي تنطوى فيه على عمق روحى ، وتأمل للحيـــاة العلوية . ان تعاليم خومياكوف عن الكنيسة أى عن « السوبورنوست » sobornost (الاتحاد الحر للكنائس جميعا) والحرية ، بدت لهكر « يوتوبيا » لم تتحقق قط في الحياة الواقعية ، لأنه يعتقد أن الواقـــع شيء تستوعبه المعطيات التجريبية ، لأنه كان عاجزا عن فهم عالم الأفكـــار بالمعنى الأنطولوجى المحتجب وراء العالم التجريبى ، والمضاد له حتى حين يؤثر عليه . ومن ثم فانه لا يرى في الكنيسة الا نزعة تجـــريبية ساذجة ، ولا يرى شكلها المثالى ، أى الجسد الصوفى للمسيح .

ولقد ندد الفكـــر الروسى الدينى الخلاق فى القرنين التاسع عشر والعشرين ابتـــداء من خومياكوف والسلافوفيل حتى مفكرى مطلع القرن العشرين ، بخطايا الكنيسة التاريخية الروسية ، وكانوا فى معظم الأحيان يتحـــدثون بلهجة أشد حـــدة من لهجة « هكر » والعبـــارة القائلة بأن الكنيسة الروسية قد أصيبت بالشلل ، تنتسب الى دوستويفسكى المسيحى الأرثوذكسى . ولا حاجة بنا الى الشيوعية الروسية أو الى مؤلفات هكر لبيان الزيف المهين الذى تتصف به العلاقة القائمة بين الكنيسة والدولة القديمة . والى هذه العلاقة يشير أشخاص مؤمنون اشارات قاسية ، بل أشخاص يعدون أنفسهم أنصارا للملكية من أمثال خومياكوف وسامارين ، واكساكوف ودوستويفسكى ، وسولوفييف، وغيرهم كثيرين . ولقد دخل الفكر الروسى الدينى الخـــلاق ابتـــداء من خومياكوف ومن تلاه فى طريق الاصلاح الدينى داخل نطاق الأرثوذكسية . وانه لتوجد فى كثير من الأحيان

اتهامات للمراتب الروحية ، وخاصة مرتبة الأسقفية — بين أولئك الممثلين للأرثونكسية الذين لا يمتون بأية صلة للنزعة الطائفية . ولم يكن رجـال الطوائف وحدهم ، بل المفكرون الدينيون الروس أيضا ، الذين لا يميل « هكر » الى اضفاء أية دلالة عليهم ، قد كانوا يتميزون بنوع من الخروج على المـألوف . ولكن « هكر » لا يقـول شيئا عن الدور الهائل المفيد الذى لعبته الكنيسة فى الحياة الاجتماعية خلال عصر التتار ، كما لا يقول شيئا عن حب الفقراء فى روسيا القـديمة ، ولا يشـير أية اشارة الى تلك الظاهرة الايجابية ، ظاهرة القداسة الروسية . وهو لا يستطيع أن يفهم أن الأرثونكسية الروسـية — على الرغم من انهـا أجنبية عن النزعة الأخلاقية — كانت هى فى نهـاية الأمر التى زودت أولئك الذين هجرتها عقولهم بتدريب أرواحهم تدريبا باطنيا ، وهى التى أشتعلت فى أرواح الشعب الروسى البحث عن ملكوت الله ، وعن عدالته ، وهى التى أوجدت تلك الانسانية وذلك التعـاطف اللذين ينعكسان على نطـاق واسع فى الأدب الروسى . ولم يفهم « هـكر » اننا حين نجد علامات حقيقية على القداسة فى « تشرنشيفسكى » ، أو كرامات تدل على تصوفه ، فذلك لانه استمدها من مسيحية طفولته وصباه . ولقـد سبق الانحلال فى الكنيسة الرسمية وتهافت الحياة المسيحية بين الشعب — سبقا الثورة . وعلى هذا النحو تسير الأمور دائما ، فكثيرا ما كانت الأرثونكسية الرسمية تظهر بمظهر بشع . وفى مطلع القرن العشرين حدثت نهضة دينية فى دائرة ضيقة جدا فى روسيا ، وكانت هذه النهضة ظاهرة لا تنتمى الى الحياة الشعبية بقدر ما تنتمى الى « الصفوة » المثقفة . ولهذا السبب لم تكن فعالة الأثر من الناحية الاجتماعية كما سبق أن قلت . وكان راسبوتين رمزا على تفسخ العالم القديم ، ودليلا على الحتمية الروحية للثورة ، بيد أن فهم « هكر » وتقديره للحركة الفلسفية — الدينية كلها — يخلوان من كل دقة ، وهو لا يستطيع أيا كان الأمر أن يدرجها مع الأرثونكسية الرسمية للدولة .

و « هكر » يستخدم فى — المقام الأول — وعلى نحـو غير صحيح عبارة « البحث عن الله » ذلك أن هذه العبارة لا تنطبق على تيارات الفكر

التى تعد نفسها تيارات مسيحية على وجه التحديد . وحين يتحدث عن المسيحيين الجدد neo-Christians (وهى كلمة يمكن أن نسمح بها ما دام المرء يتحدث عن المسيحيين الذين يؤمنون بامكانية قيام عصر خلاق جديد من المسيحية) يذكر بينهم ف. روزانوف V. Rozanov الذى كان مفكرا عبقريا دون جدال ، ولكنه كان عدوا لدودا للمسيحية ، والأحرى أن يسمى « وثنيا جديدا » neo-pagan وهكذا نستطيع أن نورد كثيرا من الأحكام التى تفتقر الى الدقة عند هكر . وهو ينظر الى تلك الظواهر الروحية التى يكتب عنها — عن بعد ، وأحكامه عامة جدا ، لا تميز فيها بين الأضواء والظلال ، ولا تقدير فيها للسمات الفردية المميزة . وينبغى أن نشير — فضلا عن ذلك — الى أن كل من يناصر فلسفة الشيوعية يفقد القدرة على تمييز الشىء الفردى .

والشىء الأخير الذى يعجز هكر عجزا ميئوسا منه ، هو مشكلة الشخصية فى الشعور المسيحى . فهو يجعل من الدفاع عن مبدأ الشخصية شيئا واحدا هو والفردية والأنانية . ويبدو أنه يعتقد أنه حين يهيب الانجيل بالانسان أن يضحى بحياته فى سبيل صديقه ، فانه بذلك يعلن نفسه ضد مبدأ الشخصية . غير أن الاعتراف بالقيمة المطلقة لكل شخصية من حيث أنها خلقت على صورة الله ومشابهة له ، والامتناع عن معاملة الشخصية الانسانية كمجرد أداة أو آلة ، يستقران فى أساس المسيحية. والمسيحية بالذات هى التى تعلمنا أن الروح الانسانية أثمن من ممالك العالم طرا . والمسيحية تهتم اهتماما لاحد له بكل انسان فرد ، وبمصيره الفردى . والكائن الانسانى الذى هو دائما فرد لا يمكن أن يتكرر — يعد فى المسيحية حقيقة أكثر أولوية وعمقا من المجتمع . وقد يضحى الانسان بحياته ، بل ينبغى عليه أن يضحى بها أحيانا ، ولكن لا ينبغى عليه أن يضحى بشخصيته أبدا ، بل عليه أن يحقق الشخصية التى تنطوى عليها جوانحه ، والتضحية شرط من شروط تحقيق الشخصية . والشخصية هى التى تتلقى نداء الحياة الأبدية ، بل هى اقتحام للأبدية . والشخصية مقولة دينية — روحية ، وهى تشير الى المهمة الملقاة على عاتق البشر . والشخصية شىء مختلف

تمـــام الاختلاف عن الفرد الذى هو مقولة بيولوجية واجتماعية ، والجزء الذى تتألف منه الأسرة والجماعة . أما الشخصية فلا يمكن أن تكون جزءا من أى شىء ، سواء أكان هذا الشىء هو الجمـــاعة أم العالم ، فهى كل متكامل ، وبفضل ما لهـــا من عمق تنتمى الى العالم الروحى لا الى العالم الطبيعى (١) . وكل ما فى الفلسفة الشيوعيـــة من زيف وضيق فى الأفق يرجع الى فشلها فى فهم مشكلة الشخصية ، وهذا ما يحيـــل الشيوعية الى قوة مجردة من الانسانيـــة ، معادية للانسان ، فهى تأخذ الجمـــاعة ، والجماعة الاشتراكية والطبقة الاجتماعية ، والبروليتاريا ، وتجعل منهـــا أصناما ، أما الكائن البشرى الحقيقى فانها تنكره وتنبذه .

وينبغى أن اقول كلمة أو كلمتين عن تفســـير « هكر » الزائف لآرائى الخاصة . فالمصطلح الذى استخدمه والذى يتضمن كلمات مثل « المبـــدأ الارستقراطى » و « العصور الوسطى الجـــديدة » ... الخ — هـــذا المصطلح يضلله ، فهو ينظر الى بوصفى مناصرا للأرستقراطية الاقطاعية ، وهذا شىء يكاد أن يبعث على الضحك ، ذلك أن أى مناصر للأرستقراطية الاقطاعية فى يومنـــا هذا ينخرط فى عداد المجانين ، والواقـــع أننى نصير للمجتمع اللاطبقى ، أى أننى من هذه الناحية قريب جدا من الشيوعية (٢) ولكننى — مع ذلك كله — مؤيد للمبـــدأ الارستقراطى من حيث هو مبـــدأ كيفى qualitative فى المجتمع الانسانى ، ولكنه مبدأ شخصى كيفى ، لا مبدأ يتوقف على الطبقة أو الملك ، أعنى أننى مناصر للارستقراطية الروحية . فلا بد من التغلب على عدم المساواة فى المجتمع الانسانى ، بيـــد أن عدم المساواة الشخصية ستظهر بعد هـــذا اقوى ممـــا كانت ، اذ ينبغى أن يتميز الانسان عن أخيه الانسان بصفاته الشخصية ، لا بمركزه الاجتماعى ، أو بطبقته أو بما يملكه . والمبدأ الكيفى — أعنى المبدأ الشخصى الأرستقراطى لا يمكن أن يختفى من المجتمع الانسانى ، بل على العكس ، سيتضح اشـــد

---

(١) راجع كتاب « العزلة والمجتمع » تأليف برديائف وللكتاب ترجمة عربية قام بهـــا فؤاد كامل مجموعة الالف كتـــاب .

(٢) راجع كتابى « المسيحية والصراع الطبقى »
Christianity and the Class Struggle

الوضوح فى المجتمع اللاطبقى ، حين لا يعود للطبقات وجود ، لأن الطبقات تضع قناعا على الفوارق الشخصية الكيفية بين الناس وتخفيها ، وتجعلها رمزية ، لا واقعية . والانسان يحتل مركزا رفيعا فى المجتمع لا بقوة صفاته الشخصية وأرستقراطيته الروحية ، وانما رمزيا وبفضل ما يغدق عليه بانتمائه الى طبقة معينة . وأنا نصير للنزعة الشخصية المسيحية ، ولست بالتأكيد نصيرا للنزعة الفردية ، المعادية لمبدأ الشخصية . وفى المجتمع البورجوازى الرأسمالى توضع الشخصية فى مستوى منخفض ، وينظر اليها من عل وكأنها مجرد ذرة (١) والنزعة الفردية معادية للفكرة المسيحية عن « تواصل » communion الناس ، فى الوقت الذى يفترض فيه تحقيق الشخصية هذا التواصل .

وحين أقول أن العالم يتجه صوب « عصور وسطى جديدة » ، فاننى لا أعنى بكل تأكيد عودة الى العصور الوسطى أو الى عصر الاقطاع . وما هذه العبارة الا اشارة الى نمط المجتمع الذى سيجاهد فيه الانسان للوصول الى الاكتمال والوحدة بوصفهما هدفين مضادين للنزعة الفردية السائدة فى التاريخ الحديث ، وفى هذا المجتمع أيضا ستزداد أهمية المبدأ الدينى حتى ولو كان ذلك على هيئة نزعة نضالية مضادة للدين ، وقد فشل « هكر » تمام الفشل فى فهم المشكلات الجديدة فى الفكر الروسى الدينى . وهذه المشكلات — فى الوقت الذى لاتنفصم فيه العرى التى تربطها بالتراث الباطنى الروحى للكنيسة الأرثوذكسية ، تهتم بالجهود الخلاقة فى العالم المسيحى . وتوضع مشكلة الانثروبولوجيا المسيحية وضعا حادا ، وترتبط بها مشكلة الثقافة المسيحية والمجتمع المسيحى . وقد أدخل الفكر الروسى الدينى الخلاق فكرة الانسان الاله وكما حدث فى يسوع المسيح الله — الانسان ، تجسيد فردى لله فى الانسان ، فكذلك يجب أن يحدث فى الانسانية تجسيد جماعى لله . والله — الانسانية استمرار لتجسيد الله ،

---

(١) بل اننى أميل الى الاعتقاد بأن الفرد — بالمعنى العميق لهذه الكلمة — ذو نزعة ثورية ، وبأن الجماهير محافظة .

وبهــذا تضع مشكلة تجسيد حقيقة المسيح وعدالته فى حياة الانسانية ، وفى الثقافة الانسانية والمجتمع الانســانى . وفكرة الله — الانسانية بوصفها جوهر المسيحية لم تتطور فى الفكر الغربى المسيحى الا قليــلا ، فهى انتاج أصيل للفكر الروسى المسيحى الذى تفهم فيه الفلسفة المسيحية على أنها فلسفة « الله — انسانية » على أنها علم المسيحية Christological فهى تتجاوز حدود الفكر اليونانى والاسكلائى ، وكذلك حدود الفكر العقلى فى العصور الحديثة . وهذا المجال غريب كله عن « هكر » الذى لم يفهمــه على الاطلاق . وهو يحكم — بوصفه برجماتيا ونفعيا اجتماعيا — يحكم على دلالة أية ظاهرة من ظواهر الروح والفكر وعلى قيمتها بنتيجتها الاجتماعية المباشرة فحسب . ولكن ، من الممكن أن توجد فى العالم حركات فعالة جدا ، ومعادية تماما للروح والفكر عداء تاما ، حين يقــذف الانسان بأكمــله فى الجانب الخارجى من الأشياء ، ويحقق غايات قد تكون هامة ، ولكنها شىء مختلف عن الأهداف العميقة التى يسعى اليها الفكر والروح . ومشكلات الفكر الروسى الدينى تعنى بالمستقبل الأبعد حين تحل المسائل الاقتصادية العاجلة ، فهى تتجه اذن صوب الأبدية .

ويضع هكر « الكنيسة الحيــة » المزعومة تحت حمايته ، ويضفى عليها طابعأولوية واضحة على الكنيسة البطريركية الأرثوذكسية . ويبدو له ، كمــا بدا للكثيرين غيره فى الغرب — أن حركة « الكنيسة الحيــة » شىء شبيه بحــركة الاصلاح الدينى Reformation أو أنها قريبة من البروتستانتية . وهــذا خطأ ، فلم يكن هنــاك نوع من حركة الاصلاح فى روســيا فى عصر الثورة ، وان كانت ثمــة حركة اصلاح بين صفوف رجال الدين فى مستهل القرن العشرين ، وقد كان زعماء « الكنيسة الحية » — التى فقــدت الآن كل دلالة — يفتقرون الى أية فكرة دينية خلاقة . وكان مجرد تكيف ذاتى قام به جزء من رجال الدين الأرثوذكس مع الحكومة القائمة ، ولم يكن اصلاحا ، بل كان ملاءمة conformism وهنــاك ظهرت تقاليد العبودية القــديمة من جانب طغمة الكنيسة لسلطان الدولة . وبغض النظر عن بعض الاعتبارات الأخرى ، لم يكن دعاة « الكنيسة الحية » جديرين بأى احترام ، لأنهم تحولوا

وشاة ضد البطريرك ، وطغمة الكنيسة البطريركية ، واصبحوا جواسيس كنيسيين ، وكيفوا أنفسهم مع أولئك الذين يمسكون بأعنة السلطة ، وارتبطوا بالبوليس السرى السياسى G. P. U. ، وقد احيا هذا العلاقة القديمة بين الكنيسة والدولة ، وما دام وكيل الكنيسة قد أصبح عضوا فى البوليس السرى السياسى. وما كان من الممكن أن تقوم حركة اصلاح أساسية من أى نوع من الخنوع والخضوع ومن التجسس والوشاية ، لأن حركات الاصلاح الأساسية قد قامت حين ضحى الذين يدعون اليها بأنفسهم ، لا بغيرهم .

ولم يكن لحركة « الكنيسة الحية » أفكار دينية أيا كانت ، ولم تقل شيئا اللهم الا أن الكنيسة ينبغى أن تكيف نفسها مع الحكومة السوفيتية ، وليست هذه الفكرة فكرة دينية . ولم يرتفع أنصارها حتى الى فكرة أن هناك حقيقة مسيحية فى الشيوعية ، لأنهم لم يكونوا مهتمين بالشيوعية ، بل بالحكومة . وأنا نفسى أعتنق أفكارا أشد تطرفا من أفكار أنصار « الكنيسة الحية » ، وأومن أكثر مما يؤمنون بالأفكار الجديدة الخلاقة عن المسيحية ، والى الفيض الجديد الذى تغدقه الروح القدس على الانسان ، ولكننى أعارض تماما حركة « الكنيسة الحية » لأننى أرى هذا الضرب من التكيف فى الحياة الدينية شيئا غير مسموح به . وأولى بالكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا أن تعقد نوعا من الاتفاق concordat مع الحكومة القائمة ، كما يحاول المطران سرجيوس أن يفعل الآن ، اذ لا ينبغى أن تقحم الكنيسة نفسها فى الصراع السياسى ، وعليها أن تستبعد كل شبهة من الارتباط بينها وبين نظام الحكم القديم . وعلى الكنيسة أن تسمو دائما على مملكة القيصر . وادانة الكنيسة للنظام الرأسمالى واعترافها بعدالة الاشتراكية ، وبالمجتمع العامل ، هذه الادانة وهذا الاعتراف هما — فى نظرى — أمران صائبان ، غير أن الكنيسة فى ظل النظام السوفيتى فقدت كل معنى دينى ، لأنها أصبحت مجرد منفذ لمطالب البوليس السرى السياسى .

(٤)

نتناول الآن المشكلة الجوهرية للشيوعية وأعنى بهـا مشكلة العلاقة بين الانسان والمجتمع . و « هكر » يقتسم كل مواطن الضعف فى النظرة الشيوعية ، وفى الحل الشيوعى لهـذه المشكلة ، اى أن مشكلة الانسـان تفتقر الى بعد العمق عنده . فماذا كان الحال مع ماركس ؟ كان ماركس عالما اجتماعيا ممتازا ، ولكنه كان انثروبولوجيا فى غاية الضعف.والماركسية تضع مشـكلة المجتمع ، ولكنها لا تضع مشـكلة الانسان ، والانسان — فى رأيهـا — وظيفة من وظائف المجتمع ، وظيفـة « تكنيكية » من وظائف الاقتصاد . والمجتمع ظاهرة ، أما الانسان فظاهرة اضافية . ومثل هذا الحط من شأن الانسان تناقض صارخ مع تعاليم ماركس التى تدين كل محاولة للحط من الحياة الانسانية ، ومن الانسان . وبهذا تبقى مغروسة فيـه ثنائية فكرية : هل تحويل الانسان الى وظيفة فى العمليـة الاقتصـادية خطيئة وشر يتسم بهمـا الاستغلال الرأسمالى القديم ، أم هى أنطولوجيا الانسان ؟ ومهما يكن من أمر ، فان هذه الواقعة حاسمة وهى أن المحاولة الأولى لتحقيق الشيوعية على الأرض الماركسية التى نراها فى روسـيا ، هذه المحاولة تنظر الى الانسان على أنه وظيفة من وظائف الاقتصاد كما أنها تجرد الحياة الانسانية من انسانيتها كما يفعل النظام الرأسمالى . ولهذا ، لم تحدث الثورة التى كان يأمل ماركس وانجلز أن تحدث فى تاريخ العالم .

ومع ذلك فان الشيوعية تزعم أنهـا لم تخلق المجتمع الجديد فحسب ، بل انهـا خلقت الانسان الجديد أيضا ، وهم يتحدثون كثيرا فى روسـيا السوفيتية عن الانسان الجـديد ، وعن التكوين الروحى الجديد . بل ان الأجانب الذين يزورون روسيا السوفيتية مولعون بالحديث عنـه أيضا ، غير أن الانسان الجـديد لا يمكن أن يظهر الا فى حالة النظر الى الانسـان بوصفه القيمة العليا فى الحياة . أما اذا عد الانسان مجرد قالب من الطوب فى بناء المجتمع ، ولم يكن أكثر من أداة فى العملية الاقتصادية ، فلا ينبغى أن يتحدث المرء كثيرا حينذاك عن ظهور الانسان الجـديد ، بل الأحرى أن يتحدث عن اختفاء الانسان ، أى عن شدة عمليـة تجريد الانسان من انسانيته . والانسان فى هذه العملية محروم من بعد العمق ، وقد تحول

الى كائن مسطح ذى بعدين اثنين . ولن يوجد الانسان الجديد الا اذا كان له ذلك العمق ، وكان كائنا روحيا ، والا فلن يوجد الانسان ، وانما سيكون مجرد وظيفة من وظائف الجماعة . والانسان فى بعده الخاص بالعمق ، لا يعد مشاركا فى الزمان فحسب ، بل فى الأبدية أيضا . واذا كان الانسان محصورا كله فى عملية الزمان ، ولم يكن فيه شيء من الأبدية أو للأبدية ، فان صورة الانسان الشخصية لا يمكن الاحتفاظ بها . والشيوعية فى شكلها الالحادى المادى تجعل الانسان تابعا كله لعملية الزمان ، فليس الانسان الا وحدة عابرة فى سلسلة من اللحظات ، وكل لحظة ما هى الا وسيلة لانتاج اللحظة التى تليها . وعلى هذا النحو يفقد الانسان وجوده الباطنى ، وتتجرد الحياة الانسانية من مضمونها الانسانى . فالماركسية تكشف عن محنة فى النزعة الانسانية . وفى ماركس — وعلى الأخص أثناء صباه المبكر ، وحين كان لا يزال يحتفظ بآثار من المثالية الألمانية ، كانت هناك امكانيات لنزعة انسانية جديدة ، فلقد بدأ بثورة على النزعة الى تجريد الانسان من انسانيته ، ولكنه تأثر هو نفسه فيما بعد بهذه النزعة ذاتها ، وورثت الشيوعية فيما يتعلق بالانسان — خطايا الرأسمالية .

وفى الشيوعية الروسية الماركسية أوغلت هذه العملية فى تجريد الانسان من انسانيته ، وهى عملية تحكمت فيها مجموعة الظروف التى نشأت فيها الشيوعية الروسية . وهناك لم تدخل فى الشيوعية الروسية تقاليد النزعة الانسانية الروسية التى تنبع من أصل مسيحى ، وانما النزعة الروسية المضادة للانسانية ، المستمدة من نزعة الدولة الروسية الى الحكم المطلق ، وهى النزعة التى كانت تنظر دائما الى الانسان على انه مجرد وسيلة للوصول الى غاية . والماركسية تعد الشر معبرا الى الخير . والمجتمع الجديد ، والانسان الجديد يولد من نمو الشر والظلام ، وروح الانسان الجديد تشكلها العواطف السلبية من بغض وانتقام وكراهية ، وهذا هو العنصر الشيطانى فى الماركسية ، ويسمى بالديالكتيك فالشر. ينتقل — ديالكتيكيا — الى الخير ، والظلام الى النور . وقد أعلن لينين

أن كل شيء أخلاقى ما دام يخدم الثورة البروليتارية . وهو لا يعرف تحديدا آخر للخير . ومن هـذا ينتج أن الغاية تبرر الوسيلة أيا كانت . ويفقد الحافز الأخلاقى فى الحياة الانسانية كل دلالة مستقلة ، وهـذا بلا شك نزعة لا انسانية . والغـاية التى تبرر كل وسيلة ليست هى الانسان — الانسان الجديد ، أو اكتمال الانسانية ، بل مجرد تنظيم جديد للمجتمع . للمجتمع وسيلة للانسان .

ويمكن تعريف الانسان الشيوعى من وجهة النظر السيكولوجية بهذه الحقيقة وهى أن العالم ينقسم فى نظره انقســاما حادا الى معسكرين : معسكر أرمزد واهريمان ، أى الى مملكة النور ومملكة الظلام ، دون أية تدرجات دقيقــة بينهما . وتكاد هذه النظرة أن تكون ثنائية مانوية تستخدم فى الوقت نفسه نظرية وحدانية . ومملكة البروليتاريا هى مملكة النــور التى يحكمها أرمزد ، ومملكة البورجوازية هى مملكة الظلام التى يحكمها أهريمان . وكل شيء مباح لأولئك الذين ينتمون الى مملكة النور للقضاء على مملكة الظلام . والتعصب والتحيز والقسوة والعنف مما يتصف به النمط الشيوعى الكامل يفسرها شعوره بأنه فى مواجهة مملكة الشيطان ، وانه لا يستطيع أن يحتمل هـذه المملكة . ولكنه يعتمد فى الوقت نفسه — فى صورة سلبية — على مملكة الشيطان ، على الشر ، على الرأسمالية ، على البورجوازية . وهو لا يستطيع ان يعيش بلا عدو ، ودون شعور بالعداء لهذا العدو ، وهو يفقد « حافزه » اذا لم يوجد هذا العدو ، وان لم يوجد أى عدو فعليه أن يخترع واحــدا . واضطهادات « المخربين » ترجع الى هذه الحاجة فى خلق عدو ينتمى الى طبقة ما . فاذا اختفى هـذا العدو الطبقى فى نهاية الأمر ، وعاشت الشيوعية فى يسر ، فان « الحافز » الشيوعى سيختفى أيضا . و « الحافز » الثورى يرجع الى حد كبير — الى الموقف العدائى من المــاضى . وأحيانا يوضع هذا السؤال : الى أى مدى تنتمى الشيوعية الى المستقبل فعلا ، وهل هى معنية بالمستقبل ؟ ليس من شك فى أنها معنية بالمستقبل أكثر من عناية الفاشية التى تعتبر

ظاهرة انتقالية تماما . وثمة مشكلة عالمية ترتبط بالشيوعية ، غير أننا نجد فى الشيوعية اعتمادا كبيرا على الماضى ، وهياما بكراهية الماضى ، وهى شديدة التقيد بما فى الرأسمالية والبورجوازية من شر . فالشيوعية لا تستطيع أن تنتصر على الكراهيــة ، وفى هذا يكمن ضعفها الرئيسى . والكراهيــة تلتفت دائما الى الوراء ، وتعتمــد دائما على الماضى . والانسان الذى تسيطر عليه عاطفة الحقد لا يستطيع أن يهتم بالمستقبل ، بحياة جديدة ، والحب وحده هو الذى يجعل الانسان يتطلع الى المستقبل ، ويحــرره من أغلال الماضى الثقيلة ، وهو وسيلة لخلق حيــاة جديدة أفضل . وطغيان الحقــد على الحب شىء مريع فى صفوف الشيوعيين ، بيد أن المرء لا يستطيع أن يلومهم وحدهم على هذا ، فانهم فى هذا المجال ضحايا الشر القديم .

وروح الشيوعية ، ودين الشيوعية ، وفلسفة الشيوعية هى جميعا مناهضة للمسيحية وللنزعة الانسانية على السواء . غير أن نظام الشيوعية الاجتمــاعى يمتلك نصيبا كبيرا من الحقيقة يمكن أن يتصــالح تماما مع المسيحية ، بأكثر مما يستطيع النظام الرأسمالى الذى يناهض المسيحية مناهضة شديدة ، فالشيوعية على حــق من حيث هى ضد الرأسمالية . وزيف الروح الشــيوعية وعبوديتها الروحية يمكن أن يدينهما أولئــك المسيحيون فحسب الذين لا يمكن الاشتباه فى أنهم يدافعــون عن مصالح العالم البورجوازى الرأسمالى . والنظــام الرأسمالى بالذات هو الذى يحطم الشخصية ويجرد الحيــاة الانسانية من انسانيتها ويحيل الانســان الى « شىء » والى سلعة للمساومة . ولا يليق بالمدافعين عن هذا النظام أن يدينوا الشيوعيين فى انكارهم للشخصية الانسانية ، وتجريدهم للحياة الانسانية من انسانيتها . وقد كان العصر الصناعى الرأسمالى هو الذى أخضع الانسان لسلطان الاقتصاد والمــال ، ولا يليق بأتباعه أن يعلموا الشيوعيين تلك الحقيقة الواردة فى الانجيل ، وهى انه ليس على الخبز وحده يحيا الانسان . ومسألة الخبز هى بالنسبة لى مسألة مادية ، ولكن مسألة الخبز لجيرانى — ولكل انسان — مسألة روحية ودينية . الانسان

لا يحيا على الخبز وحده ، ولكنه يحيا على الخبز ، ومن ثم ينبغى أن يكون ثمة خبز للجميع . ويجب أن يتم تنظيم المجتمع بحيث يكون هناك خبز للجميع ، وهناك ، سوف تتبدى المسألة الروحية للانسان بكل عمقها . وليس من المسموح به أن نقيم الصراع من أجل المصالح الروحية ، وفى سبيل نهضة روحية على أساس أن الخبز لن يكون مضمونا لشطر كبير من البشر . ومثل هذه النزعة « الكلبية » cynicism تثير رد فعل الحادى ، وانكارا للروح . وينبغى أن يكون المسيحيون مشبعين باحساس بالأهمية الدينية لاحتياجات الانسان الأولية اليومية ، وبالجماهير الواسعة من الناس ، والا يستهينوا بهذه الاحتياجات من وجهة نظر روحية متعالية .

الشيوعية ناصح عظيم للمسيحيين ، وهى تذكير متصل لهم بالمسيح وبالأناجيل ، وبالعناصر التنبؤية فى المسيحية . ومن الممكن افتراض مبدأين متناقضين فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية ، المبدأ الأول يقول : فى الحياة الاقتصادية اتبع مصلحتك الشخصية ، وهذا سوف ينهض بالتنمية الاقتصادية للمجموع ، وسيكون ذلك نافعا للمجتمع ، وللأمة ، وللدولة . وهذه هى الأيديولوجية البورجوازية فى الاقتصاد . والمبدأ الثانى يقول : فى الحياة الاقتصادية اخدم الآخرين ، اخدم المجتمع كله ، وحينئذ سوف تتلقى كل ما تحتاج اليه فى حياتك . والشيوعية تؤكد هذا المبدأ الثانى ، وهى من هذه الناحية على حق . ومن الواضح وضوحا لا مزيد عليه أن المبدأ الثانى يتفق مع المسيحية اتفاقا أوثق من اتفاق المبدأ الأول . والمبدأ الأول مناهض للمسيحية مناهضة النظرية الرومانية فى الملكية . وحين اخترع الاقتصاد السياسى البورجوازى الانسان الاقتصادى والقوانين الاقتصادية الأبدية ، نظرت الى المبدأ الثانى على أنه طوباوى . ولكن الانسان الاقتصادى عابر ، ومن الممكن ايجاد حافز جديد للعمل ، حافز يتفق اتفاقا اكبر مع قيمة الانسان . وثمة شىء واضح : ان هذه المشكلة لا يمكن ان تكون مشكلة تنظيم جديد للمجتمع فحسب . انها حتما مشكلة تكوين جديد للانسان ، مشكلة الانسان الجديد . غير أن الانسان الجديد لا يمكن ان نمهد له بوسائل ميكانيكية : فهو لا يمكن أن يكون نتيجة آلية

لتنظيم معين للمجتمع . والتكوين الروحى الجديد يفترض اعادة تدريب الانسان روحيا . والشيوعية ملزمة على تكريس الكثير من انتباهها لهذه المشكلة الأخيرة . ولكنها لا تمتلك القوة الروحية لحلها . ومن المستحيل خلق الانسان الجديد ، والمجتمع الجديد فى الوقت الذى تنادى فيه بأن الحياة الاقتصادية وظيفة تعنى الموظفين المدنيين وحدهم . فهذه ليست احالة اجتماعية للاقتصاد ، بل احالة بيروقراطية .

والشيوعية فى صورتها التى ظهرت بها فى روسيا ، عبارة عن نزعة متطرفة لتمجيد الدولة étatism ، انها ظهور اللواياتان Leviathan الذى وضع مخالبه على كل شىء . والحكومة السوفيتية — كما قلت آنفا — هى الدولة الشمولية الوحيدة فى العالم التى انتهت الى نهايتها المنطقية المتسقة ، فهى تحول لأفكار ايفان الرهيب ، وصورة جديدة لتضخم الدولة الرهيب فى التاريخ الروسى . ولكن ، لكى نفهم الحياة الاقتصادية بوصفها خدمة اجتماعية لا يعنى — بكل تأكيد — العمل على تحويل كل فاعل agent اقتصادى الى موظف مدنى ، أو الاعتراف بالدولة على انها « الفاعل » الاقتصادى الوحيد . ومما لا جدال فيه أن شطرا من التجارة — التجارة على نطاق واسع — ينبغى أن ينتقل الى الدولة ، ولكن على المرء أن يعترف — جنبا الى جنب مع هذا — بالتعاون بين الناس سواء على هيئة نقابات عمالية ، أو على هيئة أفراد منفصلين وفقا لتنظيم المجتمع فى ظروف تستبعد استغلال الانسان لأخيه الانسان ، وسيكون للدولة وظائف الاشراف والتوسط بما لا يسمح باضطهاد الانسان لأخيه الانسان . ولايدخل فى نطاق مهمتى الحالية أن أمضى فى تفاصيل هذه المسائل . وانما من المهم فحسب أن نلاحظ أن النزعة المتطرفة فى تمجيد الدولة ليست الشكل الوحيد للتنظيم الجديد للمجتمع . والنظام المتعدد pluralist الاجتماعى خير من النظام الاجتماعى الواحدى monist فى تجاوبه الصادق مع حرية الروح الانسانية . فالنظام الواحدى الاجتماعى يؤدى دائما الى الطغيان والى اضطهاد الشخصية الانسانية ، والنزعة الواحدية فى النسق الماركسى هى عيبه الأساسى ، والواحدية فى الدولة الشمولية لا تتفق

— على اى حال — مع المسيحية ، فهى تحيل الدولة الى كنيسة ، وتجعل ثمة نضالا بطوليا فى الانتظار ضد المزاعم المطلقة لملكة القيصر فى الشيوعية والفاشية . وقد تتطهر المسيحية — اثناء هذا الصراع — وتتحرر من طابع مملكة القيصر الذى دمغ الكنيسة منــذ عهد قسطنطين . ويبــدو لى أن المسيحية لا تتفق الا مع النظام الذى أسميه نظــام الاشتراكية المتعددة الذى يوحد بين مبدأ الشخصية بوصفه القيمة العليا ، وبين مبدأ المجتمع المتآخى من البشر . ومن الضرورى فى الوقت نفسه أن نضع هذه التفرقة التى يتجاهلها الشيوعيون بين تحقيق العدالة فى حياة المجتمــع ، الذى يفترض وجود دافع القهر ، وبين تحقيق الاخاء بين الناس ، واتصالهم أو تواصلهم الحقيقى الذى تفترضه حرية الانسان ، وفعل الفضل الآلهى .

* *

حاولت فى هذا الكتاب أن أبين أن الشيوعية الروسية أشد ارتباطا بالتقاليد مما يظن عادة ، وأنها تحويل وتحريف للفكرة الروسية المسياوية القديمة . ولهذا فان الشيوعية فى أوروبا الغربية ظاهــرة مختلفة تمام الاختلاف على الرغم من تماثل النظريات المــاركسية . ولهــذا الطابع التقليدى الروسى للشيوعية يرجع جانباها الايجابى والسلبى على السواء : فهى من ناحيــة بحث عن ملكــوت الله وعن الحق والعــدالة المتكاملين وقدرة على التضحية ، وخلو من الروح البورجوازية ، وهى من ناحية أخرى نزعة مطلقة للدولة ، واستبداد ، واحساس ضعيف بحقــوق الانسان ، وخطر من ظهور نزعة جماعية لا ملامح لها featureless collectivism . وقد تكون الشيوعية فى بلاد أخرى ، وفى حالة القيام بمحاولة لايجادها — اقل تكاملا ، أو اقل مطالبة بأن تحل محل الدين ، وقد تكون أكثر دنيوية ، وأشد بورجوازية فى روحها ، ومشكلات الشيوعية تنبه وتعمل على ايقاظ الضمير المسيحى ، كما ينبغى أن تؤدى الى تنمية مسيحية اجتماعية خــلاقة ، لا بمعنى فهم المسيحية بوصفها ثيئاً اجتماعياً ، ولكن بمعنى الكشف عن الحق والعدالة

المسيحيين من حيث علاقتهما بالحياة الاجتماعية وهذا يعنى الانعتاق من العبودية الاجتماعية ، تلك العبودية الاجتماعية التى يجد الوعى المسيحى نفسه مكبلا فيها . والعالم يعـــانى الآن خطر النزعة الى تجريد الحيـــاة الاجتماعية من النزعة الانسانية ، بل تجريد الانسان نفسه من انسانيته . ووجود الانسان نفسه معرض للخطر من كافة العمليـــات التى تجرى فى العالم . ولا يستطيع أن يرد هذا الخطر الا تقوية الانسان تقوية روحية . وحين ظهرت المسيحية فى العالم ، دافعت عن الانسان ضد الخطر الناشىء عن عبادة الشيطان . وكان الانسان فى قبضة القوى الكونية ، وشياطين الطبيعة وأرواحها التى كانت تسومه العذاب ، فركزت المسيحية الانسان روحيا ، وأخضعت مصيره لله ، وهكذا تم التمهيد لامكان سيطرة الانسان على الطبيعة . والمسيحية مكلفـــة فى الوقت الحاضر بحماية الانسان ، وحماية صورته كلهـــا من عبادة الشيطان التى تعذبه من جديد ، ومن الخضوع لعبودية القوى الكونية القـــديمة ، والقوى التكنيكية الجديدة . بيد أن هذه مهمة لا تستطيع أن تنهض بها الا مسيحية متجددة الشباب ، صادقة لروحها التنبؤية ، متجهة صوب ملكوت اللـــه .

تم الكتـــاب

مطابع مدكور وأولاده بالقـــاهرة ت : ٥١٥٧١

الثمن ٣٥ قرشـــا

مايو ١٩٦٦